الأشعرية

في الغرب الإسلامي

الأشعرية

في الغرب الإسلامي

الطبعة الأولى

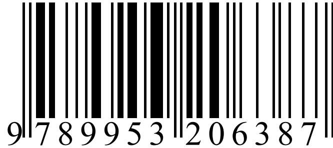
١٤٤٢ هـ ـ ٢٠٢٠ م

شركة دار المشاريع

بيروت ـ لبنان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن خلدون،
بناية الإخلاص
تلفون وفاكس: ٣١١ ٣٠٤ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٥٢٨٣ ـ ١٤ بيروت ـ لبنان





ISBN 978-9953-20-638-7

email: dar.nashr@gmail.com
www.dmcpublisher.com

الأشعرية في الغرب الإسلامي

خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين
الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين

تأليف

د. أسعد محمد مطيع تميم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد الأولين
والآخرين
وحبيب رب العالمين
سيدنا محمد النبي الأمي الأمين
وعلى ءاله وأصحابه الطيبين الطاهرين

قال الله تعالى

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ
لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ
وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾

قرآن كريم

سورة القصص، الآية ٨٣

اختزالات

ج	= جزء
د.ت	= من دون تاريخ
ص	= صفحة
صص	= صفحات متتالية
ط	= طبعة
ق	= القرن
م	= التاريخ الميلادي
م.س.	= مصدر أو مرجع أو مقال سابق
هـ	= التاريخ الهجري

أصل الكتاب

هذا الكتاب في الأصل أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، نوقشت يوم السبت **٢٩** فبراير **٢٠٢٠** برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، المغرب، أمام لجنة مكونة من السادة الأساتذة:

- الدكتور المصطفى طهر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ظهر المهراز. فاس. رئيسا

- الدكتور عبد الإله بنمليح: كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ظهر المهراز. فاس. مشرفا ومقررا

- الدكتور خالد زهري: كلية أصول الدين. تطوان عضوا

- الدكتور عبد العزيز اليعكوبي: كلية الآداب والعلوم الإنسانية. ظهر المهراز. فاس. عضوا

- الدكتور حميد الفاتحي: كلية الآداب والعلوم الإنسانية. القنيطرة عضوا

ونالت درجة: مشرف جدا مع توصية بالطبع وتهنئة اللجنة.

تقديم

بقلم الدكتور عبد الإله بنمليح
أستاذ تاريخ الغرب الإسلامي
جامعة سيدي محمد بن عبد الله. فاس. المغرب

يغمرني شعور بالسعادة الممزوجة بالفخر والاعتزاز، وأنا أقدم هذا العمل المبارك لجمهور القراء: باحثين ومهتمين، في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، الذي أنجزه الأستاذ الألمعي الدكتور أسعد محمد مطيع تميم، الباحث القدير الذي نذر نفسه لخدمة أبناء مجتمعه العربي - الإسلامي، متخذا من العلم والمعرفة جسرا ومعبرا.

حظي البحث في موضوع الأشعرية في المشرق الإسلامي، موطنها الأول، بدراسات عديدة وباهتمام أقلام كثيرة، حققت تراكما كبيرا، فاتجهت همة الباحث إلى استكمال حلقتها الرئيسة عبر البحث في الموضوع ذاته في الغرب الإسلامي، دافعه الأول إيمانه القوي بوحدة الظاهرة الإسلامية، لا فرق فيها بين الشرق والغرب، إلا بالجغرافيا والمقام.

جاءت فصول الكتاب ومباحثه متناغمة، تصل الأولى بالتالية رابطة الانسياب الموضوعاتي، ولعل السر في ذلك هو اعتماد صاحبه المنهج التاريخي، الذي افتتحه بالتأصيل والتقعيد وانتقل به إلى الوصف والتحليل، من دون مغامرة في التنظير..

وحدد الباحث في مستهل عمله الإطار العام الحاضن لموضوع العقيدة الأشعرية، في سياق تاريخي ثقافي، توقف مليا عند أرضيته وأسسه.

وأقبل الباحث بعد ذلك على دراسة أهم رموز العقيدة الأشعرية في الغرب الإسلامي، وأنموذج ذلك الفقيه الفاسي أبو عمرو عثمان السلالجي، المتوفى عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، الذي خصه بوقفة متأنية، انتهت به إلى كونه يمثل صورة لثقافة العالم الحريص على تعليم الناس أصول العقائد، وما «البرهانية» التي ألفها لخيرونة الأندلسية إلا خير شاهد على سموه وتسامحه الثقافي والروحي في هذه الفترة من تاريخ الغرب الإسلامي، والذي يعد انتقاله من قراءة «مختصر» ابن أبي زيد القيرواني إلى قراءة «الإرشاد» لإمام الحرمين، ليس تحولا في حياة هذا العالم فحسب، وإنما انتقال بيّن في استعمال الأدلة العقلية في تعليم الاعتقاد السليم وإجلال آراء المتكلمين الأشاعرة.

ولن يغيب عن فطنة القارئ الجهد الكبير الذي بذله الأستاذ في عمله، وهو يقلّب الصفحات والأوراق في التصانيف والمظان ذات الصلة، سواء كانت تاريخية أو عقدية أو فقهية..

هنيئا للأستاذ الفاضل أسعد تميم بهذا المولود الجديد، ورجاؤنا أن يوفقه الله عز وجل في مساريه: الحياتي والعلمي.

هنيئا لنا جميعا بهذا الكتاب القيم الذي رام صاحبه إحياء مكارم الأخلاق والقيم في مجتمعات ينخرها النظام العالمي الجديد والعولمة وجاراتها..

فاس المحروسة في ١٧ نوفمبر ٢٠٢٠

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على أشرف المرسلين سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وبعد:

فإن الناظر في تاريخ الغرب الإسلامي، يجد فيه زخما ثقافيا لنشاط واسع للعلوم الإسلامية في عصوره المختلفة، برز في خضم هذا النشاط علماء أفذاذ في سائر علوم الشريعة، في العقيدة والحديث والفقه والأصول والقراآت والتفسير والتاريخ وعلوم العربية، إضافة إلى علوم الطب وغيرها.

لقد كانت العقيدة التي انتشرت هي عقيدة سلف الأمة من الصحابة والتابعين، التي عمل علماؤها على الدفاع عنها والذود عن بيضتها وحمايتها عن كل تحريف، وتعليم الأبناء وتنشئتهم عليها، والحرص على أن يكون المجتمع مشربًا من روائها.

كما تبين بالاستدلال والاستقراء أن هذا الاتجاه العقدي مستقًى من عقيدة مالك بن أنس، ومرتبطًا ارتباطًا لازمًا لا ينفك بمذهبه الفقهي.

وفي مسيرة تاريخ هذه الرقعة الجغرافية، وجدناها لا تنفصل عن تاريخ أمة الإسلام في سائر بقاع الدنيا، لأنه حيثما حلَّت

عقيدة «لا إله إلا الله» حلَّت معها البركات، وانتشرت أنوار الهداية، لتسطع على الدنيا حضارة زاهرة، تعبق بالعلم الموصل إلى نعيم أبدي، إلى جنة عرضها السموات والأرض، لأنها هدي محمد ﷺ الذي أُنزل عليه القرآن، والقائل في الحديث الثابت الذي رواه البيهقي في شعب الإيمان «**إنما أنا رحمة مهداة**» الحديث[١]. فعقيدة رسول الله محمد ﷺ التي يجب أن تكون في قلوب أجيالنا مصانة في كل العصور وعلى مدى الأزمان لأنها الموصلة إلى جنات النعيم هي عقيدة الوسطية والاعتدال التي لا إفراط فيها ولا تفريط.

وأما ظهور التطرف الذي يشهده عصرنا الراهن، فأحد أسبابه الرئيسة عدم الالتزام بعقيدة الوسطية والاعتدال، وهذا شيء ملحوظ تكلم فيه علماء الإسلام قديمًا وحديثًا. لأنه عندما ينتشر الانحراف باسم الدين وتظهر آفاته ومساوئه في كثير من البلدان إرهابًا وظلمًا وتقتيلًا، ففيه أمران عامان شاملان:

أولهما: تخريب عقول الناشئة باستغلال الفقر والجهل، فينعكس ذلك خرابًا وتدميرًا للمجتمع الإسلامي في أي بلد من البلدان.

وثانيهما: تشويه سمعة الإسلام والمسلمين في أقطار الدنيا، مما له انعكاساته السيئة على علاقة المسلمين مع غيرهم في البلدان غير الإسلامية.

وقد حصل ما يشبه ذلك في التاريخ الماضي، في حالات

(١) أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، حديث رقم ١٣٣٩، (ج٢، ص٥٢٩).

ضعف الخلافة العباسية في عصرها الثاني وما تلا ذلك. وما كان إنقاذها وإنقاذ المجتمع الإسلامي إلا بالأشعرية والأشاعرة.

فالمدقق الفطن في تاريخ هذه الأمة يحس المخاطر التي مرت بها في صور مختلفة، فكانت بمجموعها وبسوادها الأعظم على المحجة البيضاء، وعلى اعتدال نتج عن تمسكها بالكتاب والسنة من غير تحريف، ومن غير إفراط ولا تفريط. يقول الله تعالى في سورة البقرة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾[1] فسرها الطبري بأنهم «وسَط» لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه ولا هُم أهلُ تقصير فيه، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها[2]. فتميز سوادها الأعظم عن الذين انحرفوا وفرطوا وأفرطوا فأخرجهم عن الوسطية والاعتدال، وأوقعهم في أفخاخ ومستنقعات التطرف. ظهر هذا في تاريخ الأمة ولكن الاعتدال بقي مستمرًا بأركان هديه المعروفة من الكتاب والسنة، والتطرف بقي مستمرًا بانحرافاته عن الكتاب والسنة.

كل ذلك جرى قبل ظهور أبي الحسن الأشعري في المشرق، وكان ظاهرًا واضحًا أنه لا فرق بين ما كان يجري في المشرق وما كان يجري في المغرب، فالأمة كلٌّ متكامل لا يوجد بين مشرقها ومغربها الحدود المغلقة المتعارف عليها في زماننا، بل

---

(١) سورة البقرة، آية (١٤٣).

(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، (ج٣، ص١٤٢).

كانت أوجه العلاقة مترابطة بين مشرقها ومغربها. على الرغم مما كان يشوب المراحل التاريخية المختلفة من أوضاع سياسية مضطربة.

استمر هذا الصراع بين الحق والباطل، بين الاعتدال والتطرف، على مدار تاريخ هذه الأمة، فظهر من الفتن ما عكر استقرارها، وظهر من البدع المخالفة في الاعتقاد بظهور الفرق المختلفة، ما جعل العلماء حماة الدين يردون بطرائق شتى دفاعًا عنه من التشويش والتحريف. في خضم هذا الصراع كان ظهور أبي الحسن الأشعري منارة مضيئة التف حولها أهل الحديث وعلماء الإسلام ليأخذوا بطريقته للدفاع عن عقيدة سلف الأمة، عقيدة رسول الله محمد ﷺ وصحابته والتابعين، والأئمة من المذاهب الأربعة لأهل السنة والجماعة. وكان نصيب الغرب الإسلامي من هذا النشاط الفاعل في إحقاق الحق وإزهاق الباطل كبيرًا واسعًا، حتى برز منهم الأساتيذ في كافة العلوم الشرعية.

وقد جعلت بحثي هذا يتعلق بأحداث القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين لمزايا كثيرة ظهرت بشرق العالم الإسلامي وغربه، ففي الشرق ظهرت قوة سنية نامية هي قبائل السلاجقة من الغز الأتراك، التي انتقلت من وسط آسيا باتجاه خراسان والأناضول، تعشق الجهاد والرباط على الثغور، فقارعت البيزنطيين وتوسعت في الأراضي التي كانت تحت سيطرتهم، فقامت بنصرة الخلافة العباسية بعد أن كادت تندثر، بسبب البويهيين والباطنية من القرامطة وغيرهم، فوحدوا قوى المسلمين وتوسعوا في البلاد،

ثم أعقبها الدولتان النورية والأيوبية فاستكملتا العمل حتى السيطرة على مصر وإخراج العبيديين منها، بعد أن سيطرت على كل الجزيرة العربية وبلاد الشام، باستثناء الجيوب الصليبية التي تم الخلاص منها تدريجيًا.

أما في الغرب الإسلامي، فقد تم القضاء نهائيًا على سيطرة العبيديين في إفريقية وسائر بلاد المغرب، وكذلك تحصَّل من ثمرات النهضة العلمية التي قامت بهمة علماء المالكية قيام دولتي المرابطين والموحدين، اللتين تم بهما القضاء على جيوب الخوارج والمتنبئين من بورغواطة وغمارة وبقية جيوب من الرافضة، كل ذلك من غربي الإسكندرية إلى ساحل المحيط الأطلسي، أما الأندلس فقد توالت الانتصارات التي قامت بها هاتان الدولتان، وتم القضاء كذلك على دول الطوائف، فقامت بذلك وحدة أراضي الغرب الإسلامي في ظل دولة واحدة.

كل ذلك قد تم بانتشار النهضة العلمية للعلماء شرقًا وغربًا، الذين رأوا في العقيدة الأشعرية سبيلًا إلى صيانة الأجيال، حتى أنه قبل نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ساد الانتصار الكبير لهذه العقيدة، وهذا ما سنبينه في مباحث هذا الكتاب.

حظي موضوع الأشعرية بالغرب الإسلامي باهتمام العديد من المفكرين المغاربة وغيرهم، وقد استفاد هذا العمل من الأفكار والآراء التي عبر عنها هؤلاء في كتاباتهم، منها:

* أن التمهيد لانتشار الأشعرية سابق عن ظهور ابن تومرت، «وأنها في حقيقتها ليست إلا تطويرًا لمذهب السلف في الاعتقاد أضيف إليه العنصر العقلي في الاحتجاج

والتأويل، فلما كانت الأذهان عامرة بالأصل تقبلت هذا التطوير بما سبق لها من العهد به طيلة ما يقارب القرنين»[١].

* وكذلك إنصاف ابن تومرت ودفع ما نسب إليه من خداع وسحر وشعوذة وأن ذلك كان «من مبالغات المناوئين للحركة الموحدية المتحاملين عليها، إمعانًا منهم في الطعن في أسسها، خاصة وأن هذه الشناعات لم يوردها في صيغة التصديق بها إلا مؤرخون معروفون بمناهضة الدعوة الموحدية. . أو من نقل عنهم، فلا يستبعد أن يكون هؤلاء تساهلوا في نقلها، دون عرضها على محك النقد لما تصادف في نفوسهم من ميل عن دولة الموحدين. وإذا كان الأمر كذلك فإنها لا تكون قادحة في إخلاص ابن تومرت في إيمانه وفي دعوته، وتبقى هذه الصفة إحدى المميزات في شخصيته»[٢].

* ارتباط انتشار العقيدة الأشعرية بمذهب مالك «فإن الكلام على دخول المذهب الأشعري إلى الغرب الإسلامي، لا يمكن أن يكون في معزل عن الكلام على المذهب [المالكي]، الذي كان يمثل المرجعية العقدية التي حافظ - من خلالها - علماء المغرب على عقيدة أهل السنة، وواجهوا بها المذاهب العقدية المخالفة التي كان لها موطئ قدم في المنطقة، وانضوى تحتها الكثير من الأتباع.

---

(١) عبد المجيد النجار، ابن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب. ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، القاهرة، ١٩٨٣، (ص٤٤١).
(٢) نفسه، (صص١٣٧ - ١٣٨).

فقد ارتبطت عقيدة السلف في الغرب الإسلامي بالفقه المالكي، فانتشرت بانتشاره، وكانت لكليهما[(١)] سلطة معرفية قوية، بل يمكن القول بأنهما كانا يستمدان هذه القوة من بعضهما البعض، إذ كل منهما كان يمد الآخر بعناصر القوة والتجذُّر، وبعوامل البقاء والنمو»[(٢)].

* اعتبار ابن أبي زيد القيرواني حلقة هامة في سلسلة أعلام المذهب الأشعري، فقد «اجتهد الشارحون المغاربة أن يجعلوا من «الرسالة» أصلًا استند إليه مصنِّفو العقائد في تحرير عقائدهم. فيكونون بذلك قد جعلوا من صاحبها سلفًا.. ولا شك أن هذه العقائد أشعرية خالصة، وكأنهم يقصدون أن ابن أبي زيد القيرواني حلقة هامة في سلسلة أعلام المذهب الأشعري، بل من بواكير هذه السلسلة»[(٣)]، «بل كانت المحور، الذي عليه سائر كتب المذهب المالكي»[(٤)].

* اعتبار أبي عمران الفاسي «ثمرة من ثمرات المدرسة الباقلانية، ومن أبرز خريجيها، فقد تخرج على يديه الكثير من رؤوس المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، كعتيق السوسي، وأبي القاسم السيوري، وعبد العزيز الدباج، وابن الصابوني، وأبي محمد عبد الحميد المعروف بابن

(١) أي عقيدة السلف والفقه المالكي.
(٢) خالد زهري، من علم الكلام إلى فقه الكلام. ط١، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، ودار الضياء للنشر والتوزيع الكويت، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص٢٩٦).
(٣) نفسه، (صص٢٦٠ و٢٦٣).
(٤) نفسه، (ص٢٣٦).

الصائغ، إلخ، مما يجعلنا لا نتردد في نعته بأنه صاحب مدرسة أشعرية، يمكن أن نسميها بـ«المدرسة الأشعرية العمرانية». فلا غرو إذًا، إذا ربطنا بين تتلمذه على الباقلاني والقابسي، وبين انتمائه الأشعري»[١].

* انتقاد المصادر والدراسات التي طعنت في المرابطين عبر إصدار أحكام متسرعة، فإن «من أبرز ما وُصفت به المرحلة المرابطية.. [أنها] تعصبت للفروع الفقهية، وأنها ولّت ظهرها لعلم الكلام بما فيه «الكلام الأشعري»[٢]. بيد أن هذه الأحكام الجاهزة، تجعل الباحث الناقد يتردد كثيرًا في قبولها، لأن تاريخ المرابطين كُتب من لدن طرفين مختلفين، كلاهما كان عدوًا له، : أولهما: الموحدون الذين لم يألوا جهدًا في طمس كل ما هو مشرق في حضارة الملثمين. وثانيهما: المستشرقون.. الذين قدموا تفسيرًا إيديولوجيًا لتاريخ المرابطين، وتعمدوا تشويه هذا التاريخ.. فشكلت عائقًا معرفيًا حقيقيًا»[٣].

وبعد التأمل في النصوص الأصيلة والبحوث المختلفة التي خاض فيها عدد من المعاصرين، وجدت ما يمكن اعتباره ثغرة يمكن وصفها «بالثغرة المنهجية». فقد وقفت في مطالعاتي على مغالطات صادرة عن بعض الباحثين، الذين انزلقوا إلى الخندق المضاد منهجيًا، وهم بصدد التأريخ لانتشار العقيدة الأشعرية،

---

(١) نفسه، (ص٣٠٩).

(٢) أي على معنى التفويض مع تنزيه الله تعالى عن الشبيه وهو ما عنوا به: «أمروها كما جاءت بلا كيف».

(٣) خالد زهري، م.س.، (صص٣٥٥ - ٣٥٦).

مما يدعو إلى الاستغراب. ولعل ذلك مرده إلى عدم الدقة أو ضبابية في فهم بعض المصطلحات الخاصة بالأشعرية. ولقد رأيت فعلًا أن العقدة الأساسية، تتعلق بفهم مصطلح «السلف». ومعنى اعتقاد «السلف»، ومفهوم صفة «السلفية»، وعلى من تطلق هذه الصفة بالحقيقة؟ ومن يريد احتكار استعمالها ؟

وتوضيحًا لما نريده، فإن أصول الاعتقاد هي التي تميز التعريف الواضح والسليم «لأهل السلف»، فاعتقادهم ولا شك هو اعتقاد رسول الله محمد ﷺ، وهنا مدار الأمر كله والمحور الذي يجري عليه بحثنا في هوية «السلف».

إن حل هذه الإشكالية وإعطاء الأجوبة الواضحة عليها، وتبني المعنى السليم فيها، أعتبره أمرًا لا بد منه، لفهم موضوع دخول وانتشار الأشعرية في الغرب الإسلامي. بل هو منهج مبني على قواعد أصيلة تخص هذا الفن بالذات، وأعني به التأريخ للعقيدة الأشعرية.

والأمر يتعلق بتنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، لأن علم العقيدة يتعلق بأشرف معلوم وهو معرفة الله تعالى وصفاته عز وجل، ومعرفة رسوله عليه الصلاة والسلام على ما يليق. وأتمسك بما قاله ابن جزي رحمه الله في «التسهيل لعلوم التنزيل»: «لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله»[(١)]. فالتأريخ المنصف لهذا الموضوع يرتكز على فهم العقيدة الأشعرية،

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي المالكي، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق: محمد سالم هاشم، جزءان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (ج٢، ص٢٧).

ولبُّها وأساسُها هو تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين.

والمناوئون للأشعرية مذاهب عقدية شتى، تكلم فيها من صنَّف للفرق المختلفة. ومن جملة هذه الفرق «المجسمة» الذين يعتقدون أن الله تعالى جسم يتحرك ويتنقل من مكان إلى مكان. والباحث الذي يريد أن يبحث في انتشار العقيدة الأشعرية إنْ كان لا يلتزم مذهب تنزيه الله تعالى عن الجسمية، أو كان عنده ضبابية في فهم معنى «السلف»، ويعتبر أن الذين سموا أنفسهم «سلفية» ويعتقدون التشبيه والتجسيم في حق الله تعالى هم على صواب، وسرد في بحثه ما يخلط بين أصحاب التنزيه وبين هؤلاء المجسمة الذين انتحلوا صفة «السلفية»، فهو بلا شك لن يصل إلى المأمول في نصرة عقيدة رسول الله محمد ﷺ، وعقيدة سائر أنبياء الله تعالى عليهم السلام، وبالحقيقة هو لن يؤرخ لانتشار الأشعرية في البلاد، لمخالفته الأسس والأدوات المنهجية التي تخوله النجاح في بحثه.

لقد بدأ ظهور الأشعرية في الغرب الإسلامي بإرهاصات مهدت وأدت إلى تبني قواعد المذهب بالكامل، ولا شك أن ذلك له علاقة بالقواعد العقدية، التي كانت سائدة قبل ظهور الأشاعرة المعروفين بأشعريتهم، وهي عقيدة سلف الأمة، التي رافقت حركة الفتح الإسلامي لكل الغرب الإسلامي، يعني رافق هذه الحركة في الفتوح حركة علمية كان قادتها وزعماؤها وعلماؤها الصحابة والتابعين.

لذلك آثرت أن أبين وأوضح هذا الأمر عند ذكر عقيدة مالك ابن أنس رحمه الله تعالى، لأنه من أهل السلف، وكذلك بقية الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب، وأعتبر هذا الأمر أصلًا

وقاعدة يُبنى عليها مجمل البحث في صياغة الأبواب والفصول، وما تتضمنه من مباحث. وبذلك نستطيع أن نزيل اللبس وتُفْهم كل المراحل الأخرى بعد بحثنا هذا بكل وضوح إن شاء الله تعالىٰ. مع تبيان الحجج التي استندت إليها، والتي تؤيد ما ذكرته في حل هذه الإشكالية. ولا نغفل أن نبين منهج خصوم هذه العقيدة ممن ينتسب للإسلام، ويناقضون عقيدة سلف الأمة.

ان المجتمعات التي تشكلت فيما بعد حركة الفتوحات الإسلامية ظهر فيها العلماء الذين صانوا علوم الإسلام، فلم يستعملوا التعابير والمصطلحات الفلسفية، التي تلهج وفق منهج الفلاسفة، الذين اتبعهم من تم وصفهم بالفلاسفة الإسلاميين، كابن سينا والفارابي وابن رشد الحفيد، وتبعهم ابن تيمية في القول بأزلية العالم، مما جعلهم في مواجهة جمهور المسلمين على اختلاف تصنيفهم من سلف وخلف.

لذلك آثرت أن أبين أمرين اثنين في هذا المسار، هما:

١- الاتجاه الديني السليم بحسب الاتجاه العقدي المتعارف عليه عند جمهور العلماء، ومواجهة الفرق الدينية التي نشأت على أطراف هذا الاتجاه.

٢- والأحداث السياسية التي رافقت المسار الديني، والتي كان لها تأثير في التحولات في السلطة الدينية، فضلا عن تأثير أحدهما في الآخر.

وقد جعلت ما قام به علماء إفريقية والقيروان والمغرب الأقصى والأندلس، في سياق نهضة علمية ميزتها خصوصية وعظمة دين الإسلام، وفي صورة الثمرات الباهرة لنتاج علمي

مشهود له بعظمة الحضارة التي ترعرعت في كنفها هذه النهضة. ويدور في فحوى ومحتوى ما ذكرته، مسيرة إظهار القواعد العقدية:

- في التمسك بعقيدة سلف الأمة على المعنى السليم، لا على المعنى الذي ذهبت إليه فرق المشبهة والمجسمة قديمها وحديثها.
- ومواجهة أهل البدع باستعمال الكلام، الذي كان موافقًا لما فعله علماء السلف في المشرق.

وقد حصل هذا الانسياب في التطبيق في كل الغرب الإسلامي، عن طريق علماء المذهب المالكي الأوائل، الذين تلقوا عن مالك وتلاميذه مثل أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد وعلي بن زياد والبهلول بن راشد ومحمد بن سحنون وسعيد بن الحداد ويحيى بن يحيى وغيرهم. وكذلك عن طريق الأشاعرة الأوائل الذين تلقوا عن تلاميذ أبي الحسن الأشعري مثل أبي القاسم عبد الرحمٰن بن عبد المؤمن وابن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن القابسي وأبي عمران الفاسي ودراس بن إسماعيل وغيرهم.

ويصادف الباحث في تاريخ الأشاعرة وتاريخ علمائها سواء في المشرق أو في المغرب مسألة المصادر إن لم نقل معضلة المصادر. فبخصوص موضوع الأشعرية في الغرب الإسلامي وقفت على مصادر تعتبر أصيلة، لكن النهج الذي اتبعه بعض المناوئين لمنهج أبي الحسن الأشعري، والأشاعرة وطريقتهم، قد وجد سبيلًا في كتاباتهم للتشويش على أولئك المدافعين عن عقيدة أهل السنة والجماعة، والمبينين الموضحين لقواعدها السليمة.

وسأكتفي بالموقف من ابن تومرت ومن توجهه الأشعري، لأقدمه أنموذجًا للمغالطات التي تحفل بها المصادر وما تبعها من دراسات حديثة.

يتعلق الأمر في البدء بكتاب بعنوان «مسألة في المرشدة» ينسب لابن تيمية الحراني[(١)]، فيه نصوص مضطربة، ينسبها لابن تيمية مما ذكره في كتابه «مجموع الفتاوى». قدمها محقق الكتاب في ترجمة ابن تومرت من كتاب الذهبي «سير أعلام النبلاء»[(٢)] ولم يذكر ابن تيمية التي نُسبت إليه من أين استقى معلوماته، وما هو سنده فيها. ومع ذلك يكيل كومًا من الاتهامات التي تُظهر أن ابن تومرت كان كاذبًا مخادعًا سفاكًا للدماء بغير حق، يكلم الموتى وهم في قبورهم، فقال: «واستجاز أن يظهر لهم أنواعًا من المخاريق، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواما، ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلب منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله ﷺ.. فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه، ويشهدون له بذلك، عَظُمَ اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره. ثم إن أولئك المقبورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهروا أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا وأنه يجوز له إظهار الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه»[(٣)].

---

(١) أحمد بن تيمية الحراني، مسألة في المرشدة، تحقيق: علي رضا بن عبد الله، دار الوطن للنشر، ط١، الرياض سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٢) نفسه، (صص٦ - ١٤).

(٣) نفسه، (صص٢٠ - ٢١).

كانت وفاة ابن تيمية سنة (٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، أما الذهبي فقد توفي سنة (٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م) وكانت ولادته سنة (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م)، فكانا متعاصرين، وينقل الذهبي أخبارًا في ترجمته لابن تومرت قريبة من عبارات ابن تيمية إن لم تكن هي نفسها؛ فمن ينظر في ترجمته في سير أعلام النبلاء يخرج بنتيجة واحدة، وهي تخيله كرجل مجنون ظالم مخادع غدار سفَّاك للدماء ظالم مدّعٍ لأشياءَ وأوصافٍ كاذبة حتى يُرَغِّب الناس فيه وفي اتّباعه.

ثم يأتي المعاصرون ممن أخذوا ترجمة ابن تومرت منه ومن ابن تيمية، فحذوا حذوهما، من دون تبين أو حجة، لتسطر أقلامهم العبارات نفسها التي تم ترويجها من قبل، وليتحسروا على بقاء الأشعرية واستمرارها إلى يومنا هذا، وأنها صارت المذهب الرسمي في المغرب، وما ذاك إلا من التعصب الأعمى، وهو أمر لا شك خطير في الحكم على الأمور.

وفي الإطار نفسه أُوْرد بعضَ العبارات التي قالها، والقصد من ذلك زيادة فائدة في تبيان الدليل لما نقوله. فمما يدعو للعجب، أن الذهبي ذكر أنه استند في ترجمته لابن تومرت إلى «اليسع، في تاريخه» ومرة ذكره باسم «اليسع بن حزم»، وذكر أيضًا أنه أخذ معلوماته من «الأمير عزيز» في كتابه «أخبار القيروان»، لكنني في عملي المتواضع هذا، بحثت فيما أعرفه من كتب التراجم المشهورة في رجال الغرب الإسلامي ومن كتب التاريخ المتاحة، فلم أعثر على أي منهما، فقد استعمل الذهبي عبارة: «قال اليسع: وكل ما أذكره من حال المصامدة، فقد شاهدته، أو أخذته

متواترا»[١]، وقد ذكر عبارة «متواتر» لأنه في مصطلح الحديث يعتبر خبرًا قطعي الثبوت، لكن أيضًا في مصطلح الحديث، إذا كان الراوي الناقل واحدًا خرج الخبر عن التواتر، وإذا كان فوق ذلك مجهولًا فهذا من علامات الضعف.

وللتبيان، أذكر نماذج مما أورده الذهبي عن ابن تومرت مما لا يقبله عقل، من ذلك قوله:

- «كان لهجًا بعلم الكلام، خائضًا في مزال الأقدام، ألف عقيدة لقبها بالمرشدة، فيها توحيد وخير بانحراف فحمل عليها أتباعه وسماهم الموحدين، ونبز من خالف المرشدة بالتجسيم وأباح دمه، نعوذ بالله من الغي والهوى»[٢].
- «قال [اليسع]: وكان جل ما يدعو إليه الاعتقاد على رأي الأشعري، وكان أهل الغرب ينافرون هذه العلوم.. وألف لهم كتاب «أعز ما يطلب»، ووافق المعتزلة في شيء، والأشعرية في شيء، وكان فيه تشيع»[٣].
- «قال الأمير عزيز في «أخبار القيروان»: سمى ابن تومرت أصحابه بالموحدين، ومن خالفه بالمجسمين»[٤].

---

(١) الذهبي: محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء. ٢٥ جزءا، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (ج١٩، ص٥٤٦).
(٢) نفسه، (ج١٩، صص٥٤١ ٥٤٢).
(٣) نفسه، (ج١٩، ص٥٤٩).
(٤) نفسه، (ج١٩، ص٥٥٠).

- «قال اليسع بن حزم: سمى ابن تومرت المرابطين بالمجسمين، وما كان أهل المغرب يدينون إلا بتنزيه الله تعالى عما لا يجب وصفه بما يجب له، مع ترك خوضهم عما تقصر العقول عن فهمه.. إلى أن قال: فكفرهم ابن تومرت لجهلهم العرض والجوهر، وأن من لم يعرف ذلك، لم يعرف المخلوق من الخالق، وبأن من لم يهاجر إليه، ويقاتل معه، فإنه حلال الدم والحريم، وذكر أن غضبه لله وقيامه حسبة»[(١)].
- «[وقال اليسع]: وكان في وصيته إلى قومه إذا ظفروا بمرابط أو تلمساني أن يحرقوه»[(٢)].

ويأتي تاج الدين السبكي على ذكر الذهبي الذي كان يميز في الترجمة بين البدعي المجسم والسني المنزه فيقول: «وهذا شيخنا الذهبى.. عنده على أهل السنة تحامل مفرط فلا يجوز أن يُعتمدَ عليه، ونقلت من خط الحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائى رحمه الله ما نصه: الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبى.. غلب عليه مذهب الإثبات ومنافرة التأويل والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافًا شديدًا عن أهل التنزيه، وميلًا قويًا إلى أهل الإثبات، فإذا ترجم واحدًا منهم يطنب فى وصفه بجميع ما قيل فيه من المحاسن، ويبالغ فى وصفه ويتغافل عن غلطاته، ويتأول له ما أمكن؛ وإذا ذكر أحدًا من الطرف الآخر كإمام الحرمين والغزالي ونحوهما، لا يبالغ فى وصفه، ويكثر من قول من طعن فيه، ويعيد ذلك

(١) نفسه، (ج١٩، صص٥٥١ ٥٥٢).
(٢) نفسه، (ج١٩، ص٥٤٦).

ويبديه ويعتقده دينًا وهو لا يشعر، ويعرض عن محاسنهم الطافحة فلا يستوعبها، وإذا ظفر لأحد منهم بغلطة ذكرها، وكذلك فعله فى أهل عصرنا، إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح، يقول فى ترجمته: والله يصلحه، ونحو ذلك، وسببه المخالفة في العقائد،

[ثم يعلق السبكي:] والحال فى حق شيخنا الذهبى أزيد مما وصف وهو شيخنا ومعلمنا غير أن الحق أحق أن يتبع، وقد وصل من التعصب المفرط إلى حد يسخر منه، وأنا أخشى عليه يوم القيامة من غالب علماء المسلمين وأئمتهم، الذين حملوا لنا الشريعة النبوية، فإن غالبهم أشاعرة، وهو إذا وقع بأشعرى لا يبقي ولا يذر، والذى أعتقده أنهم خصماؤه يوم القيامة»(١).

هذا نقل لما قاله ولاحظه صلاح الدين العلائي، ومرتبته في العلم مشهورة معتبرة، وهذا كلام تاج الدين السبكي في تعقيبه على العلائي، وهذه ملاحظه دقيقة لتاج الدين السبكي، فيما يترجمه الذهبي للأشاعرة وكيف يبخس حقهم، في مقابل ما يترجمه لأهل التجسيم.

وسأكتفي بالإشارات التي ذكرها العلائي والسبكي في الرد عليه، خصوصًا بتلك العبارة: «عنده على أهل السنة تحامل مفرط فلا يجوز أن يُعتمدَ عليه»، ففي مسألة الأشاعرة وقضية ابن تومرت يوجد عند ابن تيمية والذهبي ومن حذا حذوهما تحامل يستدعي الباحث أن يحذر حذرًا شديدًا في نقله عنهم.

---

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٦ أجزاء، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، (ج١، ص٢٥٢).

من خلال القراءة التاريخية في المصادر والمراجع التي توفرت لدي، رأيت أن أقسم الرقعة التي أبحث فيها إلى ثلاث نواحٍ، أستطيع من خلالها أن أختصر المزايا الهامة التي انطبع عليها أو التي طبعت صورة التاريخ المغاربي منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بمزايا وشروط أخرى بحسب العوامل المؤثرة في هذا التاريخ.

وهذه النواحي الثلاث هي: المغرب الأدنى والأوسط، والأندلس، والمغرب الأقصى.

*** المغرب الأدنى والأوسط: يتميز هذا المجال بكونه:**

- قاعدة الفتوح الأولى لبقية بلاد الغرب الإسلامي.
- بناء مدينة القيروان التي كانت، فضلًا عن كونها قاعدة للفتح، مركزًا رئيسًا لنشر التعليم.
- قيام إمارة الأغالبة باسم الحكم العباسي، التي قضى عليها العبيديون وأسسوا دولتهم على أنقاضها، إلى أن تركوها لأعوانهم بني زيري الصنهاجيين. ثم خربت بإيعاز منهم خلال غزو عرب بني هلال وبني سليم، في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.
- انتشار المذهب الأشعري بواسطة العلماء الذين تلقوا بسند مباشر ممن تلقى عن أبي الحسن الأشعري وبعض تلاميذه.

*** الأندلس:**

تميزت حضارتها العلمية في دولة الأمويين، فتأسست قرطبة

وغرناطة كمراكز علمية احتضنت بعض أوائل علماء المالكية، الذين أثروا تأثيرًا كبيرًا في نشر المذهب المالكي؛ ثم رحلاتهم العلمية إلى المشرق، حيث كانت أولى محطاتهم في القيروان، فيغترفون من مَعينها العلمي في الذهاب والإياب، ومنهم من كان يكتفي بما تلقاه في القيروان.

*** المغرب الأقصى:**

يتميز المغرب الأقصى أولًا بتأسيس دولة الأدارسة وبناء مدينة فاس، لتصبح بعد ذلك مركزًا علميًا مهمّا بتأسيس جامع القرويين، في أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وقد انتشر بعض المذاهب العقدية المخالفة للإسلام مثل البرغواطيين والخوارج والمتنبئين. وما حصل إلى نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، يمكن أن نجعله في مرحلتين تاريخيتين:

مرحلة المرابطين: ومن مميزاتها:

- «تنظيف» الساحة المغربية من المذاهب المخالفة ومن بقايا الرافضة الإسماعيليين، إضافة إلى القضاء على الحكم الزناتي.
- حضور شخصية أبي عمران الفاسي وتخطيطه لهذا العمل، وبتنفيذ من تلاميذ مدرسته المنتشرة في بعض الربط.
- السيطرة على المجال الأندلسي بكامله، من خلال الانتقال بجيوش الفتح إلى العدوة الأندلسية، والقضاء على ممالك الطوائف وتوحيد الأندلس وإلحاق الهزيمة بأعدائهم نصارى أوروبا.

- وعندما يقال في بعض المصادر «كان للفقهاء حظوة عند السلطان، وعدم البروز بالعمل العقدي بشكل واسع لعلماء الأشاعرة المتكلمين»، تبين لي عدم الجدوى من تعميم هذا الحكم، لأنني رأيت في عصر المرابطين تحديدًا عملًا غزيرًا جدًا لعلماء الأشاعرة، وسأبين ذلك في موقعه من هذا البحث إن شاء الله. لذلك يمكن استعمال كلمة «بعض» تخفيفًا لقسوة هذا الحكم.
- ويمكن أن يقال إنه قد ظهر نوع من الضمور في نشاط المتكلمين الأشاعرة، بسبب أنهم لم يحصلوا من السلطة الحاكمة على الدعم الكافي لحماية انتشار المذهب الأشعري، وقد يكون ذلك أثر سلبًا في عقائد البعض، بسبب الجهل بقواعد أصول الدين وانحراف معنى «التفويض والتسليم» إلى الأخذ بظاهر النصوص، دون رعايةِ مصطلح (بلا كيف) التي كانت السمة الأساسية «للسلف»، لذلك اتُّهموا بالتجسيم في بعض الأوساط القريبة من السلطان.

مرحلة الموحدين: وقد تميزت بالآتي:

- الحركة الناشطة والسريعة لدعوة الموحدين مبتدِئة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي كان يقوم به ابن تومرت.
- استناد ابن تومرت على التعليم العقدي الذي اعتبرَهُ ضروريًا لتعميمه بين العامة والخاصة، بنشر العقيدة المرشدة ليحفظها الجميع، ودعمها بقواعد في أصول العقيدة والفقه.

- الدفاعات الأولى عن وجود بذور الجماعة التي أسسها ابن تومرت (بعد ما حصل في المعركة الأولى في مواجهة المرابطين له عسكريا) ثم عرف أن الأمر يستدعي المقاومة للتغيير. فشحذ همة القبائل التي كانت موالية لدعوته لقتال المرابطين، ثم السيطرة على عاصمتهم مراكش.
- عدم إغفال الموحدين أمر الأندلس التي تمت السيطرة عليها.
- زحف جيوش الموحدين إلى المغرب الأوسط والأدنى لطرد الأوروبيين النصارى، الذين سيطروا على بعض الجيوب في الساحل الإفريقي.
- تأسيس أكبر دولة في كل تلك البلاد شملت كل الغرب الإسلامي.
- ترسيم المذهب الأشعري لينتشر في كل الدول اللاحقة لدولة الموحدين.

إن التدقيق في صحة الكلام عن الحدث الذي يعرضه المصنف في كتابه، وبعبارة أخرى في صحة الخبر، هو من المصاعب التي تواجه الباحث خصوصًا الذين يستعملون لفظ «السلف» على المدلول الذي أسسه لهم المجسمة وخصوصًا ابن تيمية ومن تبعه كما بينت آنفا. واستعملوا في مؤلفاتهم هذا المصطلح على غير المفهوم السليم، مما زاد الأمر تشويشًا على الباحثين الذين يبحثون في المواضيع العقدية إن كانوا لم يدققوا في المصطلحات. مع أن أولئك الذين احتكروا صفة «السلف» لهم، وأخرجوا غالب الأمة من مضمون ما كان

يعتقده السلف بصدق من تنزيه الله تعالى عن المخلوقين، قاموا بتعمد التشويه على المنهج الذي يعاكس ويواجه جمهور الأمة الإسلامية، حتى بلغ بهم الحال إلى الكلام الصريح في تزييف وتشويه الحقائق التاريخية، فاعتبروا أن ما قام به عبد الله بن ياسين في تأسيس دولة المرابطين، يُذَكِّر بما كان يقوم به محمد ابن عبد الوهاب في غزواته في الجزيرة العربية ضد قبائل أهل السنة لإخضاعهم لطاعته(١)، وعبد الله بن ياسين هو تلميذ واجاج بن زلو الذي تتلمذ على أبي عمران الفاسي الأشعري. وذلك بسبب منهجية أسس لها من يبغض الأشاعرة، ولأسباب قد تتعلق بخصومة من نوع آخر لبعض المعاصرين، الذين كانوا قريبين من عصر ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين، حيث ما ترك فيه ما يمكن ذمه إلا فعله، فصارت صورته أمام القراء: المجرم الذي يحب سفك الدماء والذي يقوم بالسحر والشعوذة، واتهموه بالاعتزال والتشيع، كما نسب ذلك إليه ابن تيمية ومن مشى في فلكه(٢)، حتى اختلط في كثير من المصادر والمراجع الحابل بالنابل كما يقولون. وقد بلغ من جلافة بعض المعاصرين الذين يسيرون في سلك مجسمة العصر، المنتسبين

---

(١) يتحدث متحاوران في موقع أهل الحديث الإلكتروني عن تاريخ الدولة المرابطية، فيقول أحدهما: «كلما قرأت سيرة الشيخ عبد الله بن ياسين، مؤسس الدولة المرابطية، وجدت أنه يشبه إلى حد بعيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العقيدة والمنهج والصلابة في الحق». انظر: من المكتبة الشاملة، أرشيف ملتقى أهل الحديث ٢، (ج٢٠، ص١١٠). تم تحميله: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، http://www.ahalalhdeeth.com

(٢) ابن تيمية، مسألة في المرشدة، تحقيق: علي رضا بن عبد الله، دار الوطن للنشر، ط١، الرياض سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. (صص٢٠ ٢١).

لما قرره محمد بن عبد الوهاب، من قواعد التجسيم وتكفير من يقوم بالتوسل بالأنبياء والتبرك بهم، بلغ من جلافتهم الشتم والذم لما قام به ابن تومرت من نشر العقيدة الأشعرية[١]، ويتحسرون وكأنهم مكتئبون لامتداد هذه العقيدة في المغرب الأقصى إلى وقتنا الراهن، ويعتبرون ذلك بسبب ابن تومرت.

وذلك مرده إلى اللغط المتفشي الذي حصل في المصادر التي تؤرخ لدولة الموحدين، وهذه صعوبة تتعب الباحث الذي يريد إظهار «الحقيقة»، وقال بعضهم «وما آفة الأخبار إلا رواتها»، ممّا يؤثر في منهج البحث إذا كان الباحث قد استسهل الأخذ من أي مصدر أو مرجع يبني عليه بحثه.

ولا يسعني في مقدمة كتابي هذا إلا وأن أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذ عبد الإلٰه بنمليح عميد كلية الآداب في جامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس / ظهر المهراز الذي أشرف علي في هذا البحث لنيل شهادة الدكتوراه من الجامعة

(١) انظر: حوارهم في موقع ملتقى أهل الحديث، فقد قال أحدهم: «أما دولة الموحدين فهي دولة الزندقة والضلال. مؤسس دولتهم هو الزنديق محمد بن تومرت الذي ادعى المهدوية وكان دجالا خبيثا، ألف كتبا في العقائد على مذهب الأشعرية، مخلوطة بالزندقة والرفض وغير ذلك من البدع التي لم تكن موجودة في بلاد المغرب حتى أدخلها هو، وألزم الناس بها. وقد خفف من جاء بعده من ملوك الدولة، مثل عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف وابنه يعقوب المنصور، من هذه البدع، لكن أصبح المذهب الرسمي للدولة المغربية منذ ذلك الحين هو المذهب الأشعري، بعد أن كان المغرب سنيا محضا». رابط الموقع: http://www.ahlalhdeeth.com منقول من الشاملة: أرشيف ملتقى أهل الحديث ٢، تم تحميله: في ٧ رمضان ١٤٢٩هـ - ٧ سبتمبر ٢٠٠٨م. وترقيم الصحيفة في الشاملة: (أرشيف ملتقى الحديث. ٢٠/ ١١٠).

المذكورة. وأرشدني إلى دقائق المسائل، التي تجعله بحثًا متميزًا على الأصول الأكاديمية المعروفة في كتب التاريخ، وبالخصوص في أسلوب المقاربة بين العمل التأريخي والبحث في الأصول العقدية، بالمرونة التي يحتاجها الكاتب، وبالسلاسة التي يستسيغها القارئ.

واللهَ أسأل أن يكون عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم وأن يحصل فيه النفع للباحثين والدارسين من أبناء هذه الأمة التي عاشت في تاريخها نكبات ونكسات شتى، لكنها كانت تفيق من كبوتها وتضمد جراحها وتقف منتصبة بوجه الأهوال والمحن، والأمل ما زال حيًا في صدور أبنائها الذين يتوقون لحياة نظيفة تستند على اعتقاد سليم بالإسلام وممارسة سليمة لشريعة هذا الدين العظيم، الذي رفعها حضارة زاهية على مرّ العصور. والفطن الكيس الذكي يستخلص العبر من الماضي ليضمد جراحات الحاضر الذي تتوالى عليه النكسات تترى للوصول إلى مستقبل زاهر ومشرق بإذن الله، والله الموفق للسداد.

د. أسعد محمد مطيع تميم

الباب الأول

الأشعرية في المشرق
وإرهاصات ظهورها في الغرب الإسلامي

الفصل الأول: الأشعرية في المشرق

المبحث الأول: أهم الوقائع السياسية في المشرق حتى نهاية القرن ٤هـ/ ١٠م

المبحث الثاني: أهم الوقائع السياسية في المشرق خلال القرنين ٥ - ٦هـ/ ١١ - ١٢م

المبحث الثالث: في نشأة الفرق الإسلامية

المبحث الرابع: في علم الكلام

المبحث الخامس: ظهور أبي الحسن الأشعري

الفصل الثاني: إرهاصات ظهور الأشعرية في الغرب الإسلامي

المبحث الأول: بداية الحركة العلمية في الغرب الإسلامي

المبحث الثاني: ارتباط العقيدة الأشعرية بمذهب مالك بن أنس

المبحث الثالث: الأشاعرة الأوائل في الغرب الإسلامي

إن الرقعة الجغرافية التي تجري عليها الأحداث التي نبحث فيها كبيرة وواسعة، انتشر فيها الإسلام منذ القرن الأول من الصين شرقا إلى الغرب الإسلامي. هذا الوعاء الكبير الذي حوى أمة الإسلام، وانتشر الفاتحون يعلمون العقيدة التي كان عليها الرسول ﷺ وصحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

يذكر ابن عذاري عن حد المغرب: «هو من ضفة النيل بالإسكندرية، التي تلي بلاد المغرب، إلى آخر بلاد المغرب، وحده مدينة سلا. وينقسم أقسامًا»[(١)]. واصطلاح الغرب الإسلامي يدخل فيه إضافة لما ذكره ابن عذاري بلاد الأندلس.

هذه الرقعة شهدت تقلبات سياسية توالت عليها من بلد إلى بلد، وكانت مؤثراتها تتبع بعضها حسب ظروف اجتهد المؤرخون في تبيان أسبابها ونتائجها.

وفي كل الأحوال يمثل العالم الإسلامي في الشرق والغرب وحدة تاريخية، على الرغم من المسافات البعيدة التي تفصل بلدانها. وما يهمنا هو تسليط الضوء على الأحداث المهمة التي جرت في الشرق والغرب الإسلاميين التي أثرت في ظهور الأشعرية وانتشارها، بدءًا من أخبار دولة الخلافة الأولى وأخبار الأمويين والعباسيين، بدون أن نغفل أن موضوعنا يتركز حول القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

---

(١) ابن عِذاري المراكشي: البيان المُغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان وإ.ليفي بروفنسال، المكتبة الأندلسية، ط٣، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣، (ج١، ص٥).

فقد ربط الإسلام بين شرق العالم الإسلامي وغربه، وتميزت هذه العلاقة بالصلات العلمية التي كان لها التأثير الأكبر في تمتين روابط أبناء الأمة الواحدة ذات الحدود المترامية الأطراف. فالشرق كان محط أنظار علماء الغرب الإسلامي الذين اشتهروا برحلاتهم العلمية للتحصيل من العلماء الذين تلقوا من التابعين الذين بدورهم تلقوا عن الصحابة. فهو المكان الذي بُعث فيه النبي ﷺ في مكة المكرمة، قلب الجزيرة العربية، وانطلقت المغازي والفتوحات من عاصمة الخلافة من المدينة المنورة، فوحدت شبه الجزيرة العربية في دولة واحدة ارتكزت عليها الفتوحات المجيدة التي شارك فيها الصحابة والتابعون، فانتشر الدين الإسلامي إلى سائر الأقطار.

وبعد دولة الخلفاء الراشدين بقي المشرق أيضًا المكان الذي كان فيه مركز الخلافة في دمشق في عهد الأمويين ثم في بغداد في عهد العباسيين. وقد رافقت التطورات السياسية ذلك الانتشار الواسع من ظهور فرق مختلفة تنتسب لهذا الدين الحنيف، وثورات داخلية وحركات انفصالية عن دولة الخلافة، إلى مجابهة الأعداء الخارجيين من الصليبيين الأوروبيين إلى المغول، في غزوهم واحتلالهم لهذه البلاد ثم إخراجهم منها، مع كل المميزات والخصائص التي كانت تتميز بها البلاد والأقاليم المختلفة.

وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمة كتابه الشهير: «وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين، وجعلوه سمة لمن يملك الحجاز والشام والعراق، المواطن التي هي ديار العرب،

ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح»[١].

وفي الشرق انتشر العلماء والمجتهدون أصحاب المذاهب التي اندثرت وكذلك التي بقيت إلى يومنا هذا، وفيه أيضًا انتشر أهل الفرق التي حذر منها النبي ﷺ وفيه حصلت المناظرات المختلفة بحركة مستمرة وبعراك متواصل بين الحق والباطل.

والباحث في الأحوال السياسية في القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، يجد نفسه مدفوعًا لأن يحيط بأحوال العالم الإسلامي بشكل عام، وأحوال الخلافة العباسية والدولة العبيدية بشكل خاص. ليتسنى له فهم الظروف التي ساهمت قي انتشار العقيدة الأشعرية وتفوقها بل وانتصارها شرقًا وغربًا.

ففي المشرق بدأ الوهن يدب في أوصال دولة الخلافة العباسية التي فقدت هيبتها في عصرها الثاني، وهو عصر انحطاط كما وصفه المؤرخون فنشأت الحركات الباطنية والإمارات الانفصالية التي نخرت جسم دولة الخلافة، حتى إنه لم يعد للخليفة العباسي من الحول والقوة إلا مركز الخلافة وما حولها، وحتى بغداد نفسها حصل فيها أنْ خُطب للخليفة العبيدي نحو أربعين جمعة، في الوقت الذي كان الخليفة «القائم» نفسه مقبوضًا عليه، أو كما يقولون في أيامنا «تحت الإقامة الجبرية»، عندما سيطر البساسيري على بغداد وعدة مدن من العراق.

---

(١) عبد الرحمٰن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م، (ج١، ص٢٨٣).

وفي الغرب عمل أصحاب الدعوة العبيدية إلى دك آخر معاقل الخلافة العباسية التي كانت في إفريقية تحت حكم الأغالبة، وأسسوا دولة وصلت سلطتها إلى طنجة غربًا، وتمكنت من المغربين الأوسط والأدنى، ثم سيطرت على مصر. وكان حصيلة ما حكمته هذه الدولة كما يقول ابن خلدون مائتين وسبعين سنة[١]. فنذكر نشأة الحركة العبيدية التي قادها ابتداءً أبو عبد الله الشيعي، ومهّد لمجيء عبيد الله الذي ادعى أنه المهدي، وصولًا إلى بسط سلطتهم على مصر.

يستنتج الباحث أي ظلام دامس كان يعيشه المسلمون في هذه الحقبة من الزمن، إلى أن جاء من يعمل على حصول توازن للقوى، أعاد للخلافة العباسية شيئًا من هيبتها ولو من الناحية الإسمية والمعنوية، وذلك بظهور السلاجقة الذين مهدوا لظهور دولتين عملتا على توحيد المسلمين، وتوحيد أراضيهم تحت حكم واحد في مواجهة البيزنطيين على التخوم الشمالية، وجحافل الصليبيين القادمين من أوروبا، بجهاد دؤوب لردهم عن ديار الإسلام، عنينا بذلك ظهور الدولتين النورية والأيوبية في المشرق.

وفي الغرب الإسلامي ظهرت دولتان أيضا، كان لهما الدور البارز في ترسيخ أصول أهل السنة والجماعة في تلك البلاد. فالدور الرائد الذي قامت به دولة المرابطين في الغرب وكذلك دولة الموحدين بعدها في توحيد أراضي الغرب الإسلامي، والقيام بالدفاع عن الأندلس قبل أن يضمحل نفوذ المسلمين

---

(١) نفسه، (ج١، ص٢٩).

فيها ويفقدون هذه البلاد تحت ضربات الممالك النصرانية الأوروبية الناشئة.

غير أن اللافت للنظر أن المناخ السياسي والتغيرات التي حصلت في المشرق والمغرب، لم تكن لتؤثر في الحركة العلمية لجهاد علماء الإسلام سلبًا، بل كانت هذه الحركة العلمية وجهاد علمائها دافعا وقّادًا يؤجج الحماسة في الأمة المحمدية، ويدفعها في طريق التقدم العلمي، الذي أدى إلى انتشار العقيدة الأشعرية شرقًا وغربًا.

وسنؤكد إن شاء الله تعالى في الفصول القادمة، كيف أن أعلام هذه العقيدة دعموا المسيرة السياسية التي قام بها السلاطين، من سلاجقة وزنكيين وأيوبيين ومن جاء بعدهم في الشرق، وكذلك ما قام به علماء المالكية في الغرب، في إفريقية والقيروان وفاس والأندلس، بدون أن يوقف نشاطهم ضغوطات الحكم العبيدي، وكذلك ظروف نشأة كل من دولتي المرابطين والموحدين اللتين لم تنفكا عن هذه الحركة العلمية في نشر العقيدة الأشعرية ومذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

الفصل الأول

ظهور الأشعرية في المشرق الإسلامي

المبحث الأول: أهم الوقائع السياسية في المشرق حتى نهاية القرن ٤هـ/ ١٠م

المبحث الثاني: أهم الوقائع السياسية في المشرق خلال القرنين ٥ - ٦هـ/ ١١ - ١٢م

المبحث الثالث: في نشأة الفرق الإسلامية

المبحث الرابع: في علم الكلام

المبحث الخامس: ظهور أبي الحسن الأشعري

المبحث الأول

أهم الوقائع السياسية في المشرق الإسلامي حتى نهاية القرن ٤هـ/ ١٠م

إن ما حصل في العالم الإسلامي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين كان نتيجة لتراكم كبير من الحوادث التي سبقت ومهدت لما يحصل في الزمن الذي نبحث فيه. لذا لا بد أن نعرض شيئًا مختصرًا عن هذه الأحداث ليستقيم فهم ما جاء بعدها.

وكان النبي محمد عليه الصلاة والسلام قد أخبر فيما رواه أحمد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك**»(١). قال العلماء: لم يكن في الثلاثين بعده ﷺ إلا الخلفاء الأربعة وأيام الحسن(٢). ومضت سنوات الخلافة الثلاثون ووقعت نزاعات واستقرت الأحوال عن تنازل الحسن بن علي بن أبي طالب بالخلافة لمعاوية بن أبي سفيان حقنا لدماء المسلمين، فظهرت المعجزة النبوية في قوله ﷺ «**يصلح الله به بين فئتين من المسلمين**»(٣).

---

(١) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أبو المعاطي النوري، ٦ أجزاء، ط١، عالم الكتب، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، رقم الحديث ٢٢٢٦٤، (ج٥، ص٢٢٠).

(٢) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمود رياض الحلبي، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، (ص١٦).

(٣) نفسه، (ص١٦٩)، والحديث رواه البخاري في الجامع الصحيح، (حديث رقم ٢٧٠٤)، (ج٣، ص١٨٦).

وانتقل الملك إلى بني أمية الذي استمر سلطانهم إحدى وتسعين سنة، من سنة (٤١هـ/ ٦٦٢م) إلى سنة (١٣٢هـ/ ٧٥٠م). ثم انتقل إلى بني العباس الذين استمروا إلى منتصف القرن السابع الهجري/ ١٣م، وانتهى بدخول هولاكو إلى بغداد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

١- الفتوحات الإسلامية:

وانطلقت جيوش المسلمين شرقًا وغربًا، فتحطمت أمام زحفهم الدول التي كانت تسيطر على مساحات من الأرض من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، حيث تم ذلك بفترة من الزمن استطاعت فيه نشر الإسلام وتعليم الناس مبادئ هذا الدين إضافة إلى نشر اللغة العربية.

بدأت حركة التوسع الإسلامية الأولى خلال العصر النبوي، بعد هجرة النبي ﷺ وتآخي المهاجرين القادمين من مكة والأنصار من أهل المدينة من المسلمين، فقاموا في حياة النبي ﷺ بتوحيد جزيرة العرب تحت راية الإسلام.

وخلال العصر الراشدي من سنة (١١هـ/ ٦٣٣م) إلى (٤١هـ/ ٦٦٢م)، تغلب المسلمون على الروم البيزنطيين في معركة اليرموك سنة (١٣هـ/ ٦٣٥م)، وعلى دولة الفرس في معركة القادسية سنة (١٤هـ/ ٦٣٦م)، وكانت الدولتان في أوج قوتهما، فاندحر البيزنطيون عن بلاد الشام وانسحبوا إلى آسيا الصغرى والقسطنطينية، بينما تمت إزالة دولة الأكاسرة الفارسيين تمامًا. وانكشفت بعدها بلاد خراسان لفتوحات المسلمين.

ويعتبر الانتصار الحاسم الذي أحرزه المسلمون على الجيوش البيزنطية في موقعة اليرموك نقطة تحول كبيرة في حركة الفتوح

الإسلامية، أدت إلى انهيار قوى الروم، وانفصال الشام عن جسم الإمبراطورية البيزنطية. ويذكر ابن الأثير أن هرقل لما علم بنبأ الهزيمة التي حلت بجيوشه، رحل يريد القسطنطينية، فعلا على رابية ثم التفت إلى الشام فقال: «السلام عليك يا سورية، سلام لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومي أبدًا إلا خائفًا»[١].

وعلى إثر هذه المعركة أخذت مدن الشام الكبرى في الشمال والجنوب تتساقط سريعا، الواحدة بعد الأخرى في أيدي المسلمين. ولم يكد هؤلاء ينتهون من فتح دمشق حتى وجهوا جهودهم لفتح المدن الساحلية الشامية والجزر الواقعة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط[٢].

خلاصة ما تقدم أن المسلمين استطاعوا - قبل نهاية العصر الراشدي - أن ينتزعوا السيادة البحرية على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وأن تكون لهم السيطرة الكاملة على سواحل ذلك البحر، من طرابلس الشام، إلى قرطاجنة في منطقة إفريقية، واستولوا على جزر أرواد وقبرص ورودس، تمهيدًا لغزو القسطنطينية[٣].

---

(١) علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ. ١٣ جزءا، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، (ج٢، ص٥٣٠). وانظر البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر بن داود. فتوح البلدان، فتوح البلدان، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨م، (ص١٣٨). أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك، ط١، ٥ أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، (ج٢، ص٤٤٦).

(٢) طه عبد المقصود عبد الحميد أبو عُبيَّة. موجز عن الفتوحات الإسلامية، ط١، : دار النشر للجامعات، القاهرة، صص٢٢ - ٢٤).

(٣) نفسه، (ص٢٦). وورد في الأثر أن النبي ﷺ قال: «**لتفتتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش**» رواه أحمد بن حنبل في مسنده، ٦ أجزاء، ط١، عالم الكتب، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (ج٤، ص٣٣٥).

وكان المسلمون حتى خلافة عثمان - رضي الله عنه - قد أتموا فتح البلاد التي تقع بين العراق ونهر جيحون، أي كل أقاليم دولة إيران الساسانية، وتضم منطقة الجبال والري، وجرجان وطبرستان وقوهستان وخراسان وفارس وكرمان ومكران وسجستان. وقد نجحت الدولة الإسلامية في عهد معاوية بن أبي سفيان في فتح معظم خراسان على يد أميرها عبيد الله بن زياد، وكان معاوية قد ولاه على البصرة والكوفة، وعمل هذا الأمير على مد حركة الفتح إلى بلاد ما وراء النهر[(١)].

وقد اتسعت مساحة الفتح الإسلامي في العهد الأموي حتى وصلت إلى سور الصين شرقًا وكل رقعة الأندلس غربًا. مترافقًا ذلك مع نشر تعاليم الإسلام والعناية بتعليم اللغة العربية للقيام بتعليم القرآن وحفظه بين الشعوب التي اعتنقت الدين الحنيف، وكان ضمن الجيش الفاتح الصالحون والعلماء وكبار التابعين[(٢)].

٢- الدولة العباسية:

يجمع الباحثون على تقسيم مدة حكم الخلافة العباسية إلى عصرين، العصر الأول الذي امتد مائة عام من سنة (١٣٢هـ/ ٧٥٠م)، بعد سقوط دولة الأمويين أي من بدْء خلافة أبي العباس عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح، إلى وفاة تاسع الخلفاء العباسيين أبي جعفر هارون الواثق بالله ابن المعتصم

(١) نفسه، (ص٦).
(٢) نفسه، (صص٧ - ١٥).

في (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)[١]. وامتاز هذا العصر بالقوة والهيبة التي زرعها في النفوس خلفاء أقوياء وجيش قوي استمر في أعمال الفتوحات. فخلال هذه الفترة أتم المسلمون فتح المشرق حتى حوض السند وبلاد فرغانة شرقًا، وإلى ساحل المحيط الأطلسي وشمال بلاد الأندلس غربًا.

ويذكر حسين مؤنس أنه قد تم بناء قاعدة العالم الإسلامي في هذه الفترة أيضا، وهي الجزء العربي منه، وبلاد فارس وما وراء النهر، وبلاد طخارستان (أفغانستان الحالية تقريبا) وحوض السند، وتشمل كذلك جزءًا من بلاد الأتراك. ثم يقول: «سكن العالم الإسلامي بعد ذلك فترة طويلة أكمل المسلمون خلالها إسلام ما فتحوه، وملأوا الفراغات، وقد نجح العرب خلال هذه الفترة في إدخال كل شعوب الإسلام التي تم فتحها في نطاق اللغة العربية، فاستعربت إلا بلاد إيران التي انتعشت فيها اللغة الفارسية»[٢].

ولعل من أسباب هذا السكون ضعف حالة الخلافة العباسية وظهور الدويلات التي عملت على الانسلاخ عن دولة الخلافة العباسية في فترة الضعف التي عصفت بها.

٣- العصر الثاني للدولة العباسية: فترة الضعف:

وقد اختصر ابن خلدون خبر العباسيين وحالات الضعف التي ألمت بهم وسيطرة قادة العسكر على الخلفاء والبلاد،

---

(١) ابن الأثير. م.س.، (ج٦، ص١٠٧).

(٢) حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، (ص٣٢).

بقوله: «كان بنو العبّاس حين ولوا الخلافة قد امتدّت دولتهم على جميع ممالك الإسلام، كما كان بنو أمية من قبلهم. ثم لحق بالأندلس من فل بني أمية من ولد هاشم بن عبد الملك حفيده عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام، ونجا من تلك الهلكة فأجاز البحر ودخل الأندلس فملكها من يد عبد الرحمٰن بن يوسف الفهري، وخطب للسفّاح فيها حولا ثم لحق به أهل بيته من المشرق فعزلوه في ذلك فقطع الدعوة عنهم وبقيت بلاد الأندلس مقتطعة من الدولة الإسلامية عن بني العبّاس. ثم لما كانت وقعة فخ، وخلص منهم إدريس بن عبد الله بن حسن إلى المغرب الأقصى، وقام بدعوته البرابرة هنالك، فاقتطع المغرب عن بني العبّاس فاستحدثوا هنالك دولة لأنفسهم.

ثم ضعفت الدولة العبّاسية بعد الاستفحال، وتغلب على الخليفة فيها الأولياء والقرابة والمصطنعون، وصار تحت حجرهم من حين قتل المتوكّل وحدثت الفتن ببغداد، وصار العلوية إلى النواحي مظهرين لدعوتهم، فدعا أبو عبد الله الشيعي سنة ست وثمانين ومائتين بإفريقية لعبيد الله المهدي، وبايع له، وانتزع إفريقية من يد بني الأغلب، استولى عليها وعلى المغرب الأقصى ومصر والشام واقتطعوا سائر هذه الأعمال عن بني العبّاس واستحدثوا له دولة أقامت مائتين وسبعين سنة كما يذكر في أخبارهم. ثم ظهر أيام الفتنة من دعاة العلوية صاحب الزنج الذي ادّعى أنه يعود في نسبه إلى آل البيت، وطعن الناس في نسبه، فكانت له ولبنيه دولة بنواحي البصرة أيام الفتنة قام بها الزنج إلى أن انقرضت على يد المعتضد أيام السبعين ومائتين. ثم ظهر القرامطة بنواحي

البحرين وعمان فسار إليها من الكوفة سنة تسع وسبعين أيام المعتضد، وانتسابه إلى بني إسماعيل بن جعفر الصادق دعوى كاذبة، وكان من أصحابه الحسن الجمالي وزكرويه فقاموا من بعده بالدعوة ودعوا لعبيد الله المهدي وغلبوا على البصرة والكوفة، ثم انقطعوا عنها إلى البحرين وعمان، وكانت لهم هنالك دولة انقرضت آخر المائة الرابعة. وفي خلال ذلك استبدّ بنو سامان بما وراء النهر آخر الستين ومائتين وهم لا ينفذون أوامر الخلفاء، وقامت دولتهم إلى آخر المائة الرابعة. ثم اتصلت دولة أخرى بغزنة إلى منتصف المائة السادسة. ثم استمر الخلفاء من بني العبّاس آخرا في هذا النطاق الضيق ما بين دجلة والفرات وأعمال السواد وبعض أعمال فارس، إلى أن خرج التتار من مفازة الصين وهم على دين المجوسية. وزحفوا إلى بغداد فقتلوا الخليفة المستعصم، وانقرض أمر الخلافة وذلك سنة ست وخمسين وستمائة [هجرية] (١٢٥٨م). ثم أسلموا [أي التتار] بعد ذلك وكانت لهم دولة عظيمة»(١).

٤- **أسباب ضعف الدولة العباسية:**

أكدت المصادر أن أحد أسباب هذا الضعف في عصر الدولة العباسية الثاني، هو اعتماد الخلفاء العباسيين على جيش بأفراده وقادته كان دأبهم الجشع المالي، لسد شهواتهم اعتمادًا على القوة العسكرية التي كانت بيدهم. وقد بدأ ذلك في فترة خلافة المعتصم الذي استقدم أعدادًا كبيرة من الغلمان الأتراك ليشكل منهم قوة الجيش الذي سيعتمده في حماية الدولة.

---

(١) ابن خلدون، م.س.، (ج٣، صص٣٥١ - ٣٥٣).

وبعد أن كثرت تعديات أولئك الأتراك، عمل المعتصم على بناء مدينة سامراء[١] ليُسكِنهم فيها، يقول ابن الأثير: «وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك، فكانوا لا يزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلًا وذلك أنهم كانوا جفاة، يركبون الدواب فيركضونها إلى الشوارع، فيصدمون الرجل والمرأة والصبي، فيأخذهم الأبناء عن دوابهم ويضربونهم، وربما هلك أحدهم فتأذى بهم الناس»[٢].

وعن تذمر أهل بغداد من هؤلاء الأتراك الذين جلبهم المعتصم يذكر مسكويه كيف احتج بعض أهل بغداد للمعتصم، فقال: «يُحكى أنّ المعتصم كان ركب يوم عيد إلى المصلّى، فلمّا انصرف وصار فى مربعة الحرشي، قام إليه شيخ فقال يا أبا إسحاق، فابتدره الجند ليضربوه، فأشار إليهم المعتصم بالكفّ عنه فقال الشيخ: مالك لا جزاك الله عن الجوار خيرا، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين أظهرنا فأيتمت بهم صبياننا وأرملت بهم نساءنا وقتلت بهم رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك كلّه، ثم دخل داره». ويذكر مسكويه بأن هذه الحوادث كانت السبب الذي جعل المعتصم يبني (سر من رأى)[٣].

ثم ازداد نفوذ الأتراك في نهاية العصر الأول للدولة العباسية

---

(١) وأصل تسميتها (سُرّ من رأى).

(٢) ابن الأثير. م.س.، (ج٦، ص٤٥٢).

(٣) مسكويه أبو علي أحمد بن محمد. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ٧ أجزاء، ط٢، دار سروش، طهران، ٢٠٠٠م، (ج٤، ص١٨٤). وانظر: ابن الأثير. م.س.، (ج٦، ص٤٥٢).

حتى تآمروا مع المنتصر على قتل أبيه المتوكل سنة (٢٤٧هـ/ ٨٦٢م)، فانتهى العصر العباسي القوي وجاء عصر الضعف حيث سيطر العسكريون على الحكم[١].

ويقول أحد الباحثين إن الأتراك وإن أظهروا الطاعة، إلا أن الأمر لم يستمر طويلا، فلقد أدركوا بدورهم أنهم القوة التي عليها وحدها يعتمد الخليفة وبالتالي أصبح الخليفة خاضعًا لقواته الخاصة الجديدة. وهذا الأمر بدا واضحًا إثر مقتل المتوكل على يد قائد تركي، ومن يومها استولى الأتراك على المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاؤوا أبقوه وإن شاؤوا أبعدوه وخلعوه وإن شاؤوا قتلوه. وبذلك بات الأتراك طرفًا أساسيًا في الصراعات الداخلية[٢].

هذه الفوضى التي عمت بسبب تسلط القادة العسكريين واستبدادهم، وعدم قدرة أحد على الوقوف في وجههم، نتج عنها حالات من الضعف الشديد استحكمت بدولة الخلافة العباسية وأفقدت هيبتها حتى صار السلاطين ألعوبة بيد القادة العسكريين سواء كانوا من الأتراك أو من البويهيين.

٥- ظهور الحركات الباطنية:

اعتبرت فرق المبتدعة البعيدة عن الإسلام، حالة الضعف هذه فرصة للانقضاض على كل ما يستطيعون السيطرة عليه من أراضي دولة الخلافة ومن الأموال والمتاع، وهذا ما حرك في نفوس

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٧، صص٩٥ - ١٠٠).
(٢) حسن منيمنة، تاريخ الدولة البويهية السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. الدار الجامعية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، (ص٦٠).

الطامعين القيام بحركات وثورات على السلطة الشرعية، فنشأ في بدن دولة الخلافة إمارات ودويلات انفصلت عنها. وأشد هذه الحركات في هذه الفترة: حركة الزنج والدعوة الإسماعيلية التي ظهرت مع القرامطة والعبيديين. وكل كان يبحث عن نسب له إلى البيت الهاشمي حتى يلقى القبول عند العامة من الناس بسبب ما لحق آل البيت من ظلم في بعض الفترات.

*** القرامطة والإسماعيلية:**

كان القرامطة دعاةً للإسماعيلية، ثم انحرفوا عنها عندما علموا أن الدعوة في مدينة سلمية لم تعد لأولاد محمد بن إسماعيل وإنما لأولاد عبد الله بن ميمون القداح، وأصبح الاختلاف واضحًا بين الفريقين في الوسائل التي اتخذوها، وفي العقائد التي غدت للقرامطة وعدَّهم الإسماعيليون ملاحدة وربما عد القرامطة الإسماعيليين مخالفين.

وانطلق هؤلاء في كل مكان يستطيعون الوصول إليه يقتلون ويسبون وينهبون رغم مقاومة الدولة العباسية لهم في مواقع عديدة، لكن عندما يتسع الخرق على الراقع فلا حيلة له بعد ذلك حتى اضطر بعض الخلفاء أن يدفعوا لهم المال حتى يتمكنوا من اجتياز الحجاج الأراضي التي يسيطرون عليها للوصول إلى الأماكن المقدسة، فقد ساحوا في أرض الخلافة من شبه الجزيرة العربية حيث جمعوا العربان للسلب والنهب واجتازوا أجزاء من العراق وبلاد الموصل والرقة والجزيرة ومدنًا كثيرة في الشام وساحلها حتى مصر استهدفوها في زمن العبيديين، كل ذلك كان يجري مثل كابوس متنقل يزرعون الخراب أينما حلّوا.

وقد انتهى قرامطة الشام بعد مقتل يحيى بن زكرويه عام (٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) المعروف بالشيخ، ثم مقتل أخيه الحسين سنة (٢٩١هـ/ ٩٠٤م) المعروف بصاحب الشامة[١]، وتشتتوا في البلاد وتفرقوا، كما قضي على قرامطة العراق بعد خروج زكرويه بن مهرويه ومقتله سنة (٣٠١هـ/ ٩١٤م). ولكن زادت شوكة قرامطة البحرين في هذه الآونة وهم أخبث القرامطة وأكثرهم فسادًا، فبعد أن قتل أبو سعيد الجنابي سنة (٣٠١هـ/ ٩١٤م) على يد خادمه في الحمام قام مقامه ابنه سعيد إلا أن أخاه سليمان أبو طاهر تغلب عليه وقاد القرامطة[٢].

واستطاع أبو طاهر أن يدخل البصرة عام (٣١١هـ/ ٩٢٤م)، وقتل خلقًا كثيرًا وطرح الناس أنفسهم في الماء، فغرق أكثرهم[٣]، والكوفة عام (٣١٣هـ/ ٩٢٦م) وفعل بالأهالي الأفاعيل وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك، وعاد إلى هجر[٤].

وفي العام (٣١٧هـ/ ٩٣٠م) دخل أبو طاهر القرمطي مكة المكرمة يوم التروية، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وقتلوهم في المسجد الحرام وفي البيت نفسه، وقلع الحجر الأسود ونفذه إلى هجر وقلع باب البيت، وأصعد رجلا ليقلع الميزاب فسقط ومات، وطرح القتلى في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام حيث قتلوا بغير كفن ولا غسل، ولا صُلي

---

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٧، صص٥٢٣ - ٥٣٢).
(٢) نفسه، (ج٨، صص٨٣ - ٨٤).
(٣) نفسه، (ج٨، صص١٤٣ - ١٤٤).
(٤) نفسه، (ج٨، صص١٥٥ - ١٥٦).

على أحد منهم، وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه، ونهب دور أهل مكة[(١)]. وفي سنة (٣٣٩هـ/ ٩٥١م) أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة، وكان بجكم قد بذل لهم في رده خمسين ألف دينار، فلم يجيبوه، وردوه الآن بغير شيء في ذي القعدة، فلما أرادوا رده حملوه إلى الكوفة، وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس، ثم حملوه إلى مكة، وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة[(٢)].

يقدم ابن عذاري تفسيرًا لهذا الحادث بقوله: «وذُكِر أن الحجر الأسود أرسله اللعين الجنّابي إلى عبيد الله بالمهدية، فلم يلبث إلا أيامًا وهلك.. فلما دفن طرحته الأرض، ثم دفن فطرحته الأرض ثلاثًا، فقيل لابنه أبي القاسم: إن هذا لأجل هذا الحجر، فاردده حيث كان، فأمر بإخراجه وردِه إلى موضعه، فعند ذلك استقر عبيد الله في قبره»[(٣)].

وبلغ من سطوة القرامطة أن ساحوا في أراضي شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام كما يريدون ففي سنة (٣٦٠هـ/ ٩٧١م) تمكنوا من دخول دمشق، ثم ساروا إلى الرملة فأخذوها أيضًا وتوجهوا نحو القاهرة [في زمن المعز الفاطمي] غير أنهم هُزموا على أبوابها ورجعوا إلى بلاد الشام.

وكان القرامطة قد استولوا على الكوفة فأُخرجوا منها وتوبعوا إلى القادسية حتى زال أثرهم من العراق وذلك سنة

---

(١) نفسه، (ج٨، صص٢٠٧ - ٢٠٨).
(٢) نفسه، (ج٨، ص٤٨٦).
(٣) ابن عذاري، م.س.، (ج١، صص٢٨٤ - ٢٨٥).

(٣٧٥هـ/ ٩٨٦م)[(١)].

٦- مرحلة السيطرة البويهية:

ظهر بنو بويه على مسرح الأحداث في أوائل القرن الرابع الهجري/ ١٠م، وأسسوا دولًا خارجة عن سلطة الخليفة العباسي في فارس والأهواز وكرمان والرَّيِّ وأصفهان وهمذان، وبسطوا هيمنة فعلية على العراق، فشاركوا الخلافة العباسية في حكمه، وعظم نفوذ هذه الأسرة.

وسكن أفراد هذه الأسرة الذين يعودون في أصولهم إلى الفرس، بلاد الدَّيْلَم فعُرفوا كأنهم منهم، وكانوا من الرعية العاديين، وأول من برز منهم أبو شجاع بويه، وكان من صيادي السمك في بحر الخزر، وكان له ثلاثة أولاد هم: علي وحسن وأحمد[(٢)].

وتمتد هذه المرحلة فيما بين (٣٣٤هـ/ ٩٤٦م - ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) أي مدة ثلاث عشرة ومائة سنة، وتعاقب في هذه المدة أربعة خلفاء من بني العباس هم: المطيع لله، والطائع لله، والقادر بالله، والقائم بأمر الله. وتمكّن علي بن بويه بفضل مقدرته العسكرية والإدارية وكرمه وحسن معاملته لأتباعه، من بناء جيش قوي انتزع به معظم بلاد فارس في خلال فترة قصيرة، واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه.

كانت الحالة في العراق مضطربة، كما كانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر عجزها في إقرار الأمور في العراق.

---

(١) ابن الأثير. م.س.، (ج٩، صص٤٢ - ٤٣).
(٢) ابن الأثير، م.س.، (ج٨، صص٢٦٤ ٢٦٧).

وشعر الناس بهذا الفراغ السياسي المهول، فتطلعوا إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم لتنتشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين النامية، آملين أن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حُرِموا منها أو أبعدوا عنها. وأخيرًا مال الخليفة لطلب المساعدة من البويهيين، فدعا أحمد بن بويه وطلب منه دخول بغداد، فدخلها في عام (٣٣٤هـ - ٩٤٥م) بعدما خرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي واحتفى به وخلع عليه، وعينه أميرا للأمراء ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه عليًا عماد الدولة، كما لقب أخاه حسن ركن الدولة. ومن ثم أضحت هذه الألقاب الفخمة التسمية المألوفة للأمراء البويهيين[1].

وهكذا أسس البويهيون في فارس والعراق والأهواز وكرمان والرَّيِّ وهمذان وأصفهان إمارات وراثية دامت حتى عام (٤٤٧هـ - ١٠٥٥م)، وقد أدى ذلك إلى إيجاد نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية، سيطر البويهيون أثناءها على مقاليد الأمور، لكن هذا الاستقرار كانت تشوبه بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيُّع الأسرة البويهية.

وعمل بنو بويه على إبقاء الخلافة العباسية على حالها ولم يلحقوها بالعبيديين. يقول ابن الأثير: «لقد بلغني أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه في إخراج الخلافة من

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٨، ص٤٥٠). والسيوطي، م.س.، (ص٣٤٤). وابن خلدون، م.س.، (ج٣، ص٣٥٢).

العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوي، أو لغيره من العلويين، فكلهم أشار عليه بذلك ما عدا بعض خواصه فإنه قال: ليس هذا برأي، فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من يعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه، فأعرض عن ذلك، وتسلم معز الدولة العراق بأسره، ولم يبق بيد الخليفة منه شيء ألبتة، إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم ببعض حاجته»[١].

٧- فتنة البساسيري وطلب الخليفة العباسي مساعدة طغرلبك:

في سنة (**٤٢٢هـ/ ١٠٣١م**) ولي الخلافة العباسيَّة عبد الله بن أحمد القادر عند موت أبيه، وكان ولي عهده في الحياة وهو الذي لقبه بالقائم بأمر الله[٢]، وكان بذلك الرابعَ والأخير من خلفاء عصر السيطرة البويهية في الحكم والدولة.

وكان البويهيُّون يمدُّون الجسور إلى العبيديين، وتجري بينهم المراسلات، الذين كانوا في تلك الأثناء قد مدوا نفوذهم إلى مصر وأجزاء من الشام، مع كبير طمعهم في الحصول على مزيد من المناطق[٣]. وكانوا في بعض الأحيان يتحالفون مع

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٨، صص٤٥٢ - ٤٥٣).
(٢) السيوطي، م.س.، (ص٣٦١).
(٣) هبة الله الشيرازي، سيرة المؤيد داعي الدعاة (ترجمة حياته بقلمه). تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، ط١، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٩م، (ص١١٥).

الصليبيّين للوقوف في وجه السلاجقة، طمعا منهم في أن يتركوا لهم الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام. وكان على سدّة الحكم العبيدي آنذاك المستنصرُ محمَّد بن عليّ[١].

ومع بروز نجم أحد قوّاد البويهيّين وهو أرسلان البساسيري التركي، الذي قدَّمه الخليفة القائم بأمر الله على جميع القواد وقلَّده الأمور، فتعاظم شأنُه وانتشر ذِكره وطار اسمُه وتهيَّبه الأمراء. ولم يكن الخليفة يقطع أمرًا دونَه، ولا يحلّ ولا يعقد إلّا عن رأيه. وشملت سيطرته الملك البويهي نفسه، المسمى الملك الرحيم[٢].

وفي سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٦م) تمت مراسلات بين البساسيريّ والمستنصر العبيديّ، يطلب منه الدعمَ بالمال والسلاح وأطلعه على عزمه إلغاء الخلافة العبّاسيَّة، يقول ابن الجوزي في المنتظم: «وكاتب صاحب مصر [يعني الملك العبيدي] يذكر له كونه في طاعته وأنه على إقامة الدعوة له بالعراق فأمده بالأموال وولاه الرحبة»[٣].

ويقول ابن الأثير: «وأطلق رئيس الرؤساء[٤] لسانه في

(١) عبد الرحمٰن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، ٥ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م. (ج١، ص. ٣٦٠ وج٢، صص٩ و١٢).

(٢) عبد الرحمٰن بن علي بن الجوزي. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٠ أجزاء، ط١، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ، (ج٨، ص١٦٣).

(٣) نفسه، (ج٨، ص١٦٤). وانظر: هبة الله الشيرازي. م.س.، (ص١٠٨).

(٤) رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر، وزير=

البساسيري وذمه، ونسبه إلى مكاتبة المستنصر، صاحب مصر، وأفسد الحال مع الخليفة إلى حد لا يرجى صلاحه، وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري، فأبعده، وكانت هذه الحالة من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرلبك العراق، وقبض الملك الرحيم»[١].

ولما سمع الملك الرحيم البويهي بقرب طغرلبك من بغداد، فارق البساسيري في الطريق لمراسلة وردت من القائم في معناه «إلى الملك الرحيم أن البساسيري خلع الطاعة، وكاتب الأعداء، يعني المصريين، وأن الخليفة له على الملك عهود، وله على الخليفة مثلها، فإن آثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد تولى الديوان تدبير أمره، فقال الملك الرحيم ومن معه: نحن لأوامر الديوان متبعون، وعنه[أي عن البساسيري] منفصلون»[٢].

وعلم الخليفة العباسي القائم بقوة السلاجقة النامية، خاصة وأنها كانت تدين بالمذهب السني، وتحترم الخلافة. فراسل

= القائم بأمر الله، كان أولًا قد سمع الحديث من أبي أحمد الفرضي وغيره، ثم صار أحد المعدلين، ثم استكتبه القائم بأمر الله واستوزره، ولقبه رئيس الرؤساء، شرف الوزراء، جمال الوزراء، كان متضلعًا بعلوم كثيرة مع سداد رأي، ووفور عقل، وقد مكث في الوزارة ثنتي عشرة سنة وشهرًا، ثم قتله البساسيري بعد ما شهره، وله من العمر ثنتان وخمسون سنة وخمسة أشهر. إسماعيل بن عمر الدمشقي المعروف بابن كثير، البداية و النهاية. ١٤ جزءا، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، (ج١٢، ص١٠٠).

(١) ابن الأثير، م.س.، م٩، (ص٦٠٨).

(٢) نفسه، (ج٩، ص٦٠٩).

طُغرُلبك يطلب منه المجيء إلى بغداد لحماية الخلافة وكسر شوكة البساسيريّ. وكذلك إنهاء سلطة البويهيين.

وقدم طغرلبك من الريّ ودخل بغداد، وخرج البساسيريّ بعسكره إلى مكان بين الرقّة وبغداد يسمَّى الرَّحْبة، وأمدَّه المستنصر بما أراد من مال وسلاح(١).

وفي هذه الأثناء حصل شغب في بغداد فظنّ بعض الناس أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرلبك، فارتج البلد من أقطاره، وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد، وأما عامة بغداد فلم يقنعوا بما عملوا، فحصل بذلك فوضى وهرج بسببه تم القبض على الملك البويهي وأرسل إلى قلعة على مقربة من الري، حيث ظل معتقلًا بها ثلاثة أعوام ثم توفي. وبقدوم طغرلبك وبخروج الملك البويهي من بغداد انتهى عصر البويهيين(٢).

وقدم طغرلبك في سنة سبع وأربعين [وأربعمائة] (١٠٥٦م)، فذهب البساسيري إلى الرحبة، وتلاحق به خلق من الأتراك، وكاتب صاحب مصر، فأمده بالأموال، وكاتب ينال(٣) أخا طغرلبك، وأطمعه بمنصب أخيه، فخرج ينال واشتغل به طغرلبك لزجره وردعه عما أرادوا منه. ثم قدم البساسيري بغداد في سنة خمسين [وأربعمائة] (١٠٥٩م) ومعه الرايات المصرية، ووقع القتال بينه وبين الخليفة، ودُعي لصاحب مصر

---

(١) هبة الله الشيرازي، م.س.، (ص١٠٨).
(٢) ابن الأثير، م.س.، (ج٩، صص٦٠٩ - ٦١٢).
(٣) المطبوع في تاريخ الخلفاء للسيوطي أن أخا طغرلبك اسمه «تبال» والصواب كما رأينا في مصادر أخرى مثل الكامل في التاريخ لابن الأثير أن اسمه «ينال».

المستنصر بجامع المنصور، ثم خطب له في كل الجوامع إلا جامع الخليفة، ودام القتال شهرًا. ثم قبض البساسيري على الخليفة في ذي الحجة، وسيره في حديثة عانة[(١)]، وحبسه بها، وأما طغرلبك فظفر بأخيه وقتله، ثم كاتب متولي حديثة عانة في رد الخليفة إلى داره مكرمًا، فحصل الخليفة في مقر عزه في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وخمسين [وأربعمائة] (١٠٦٠م)، ودخل بأبهة عظيمة والأمراء والحجاب بين يديه[(٢)].

يقول ابن الأثير في الكامل: «وصل طغرلبك إلى بغداد [أي بعد أن انتهى من أمر الخيانة التي فعلها أخوه إبراهيم ينال]، وكان قد أرسل من الطريق الإمام أبا بكر أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك[(٣)]، إلى قريش بن بدران يشكره على فعله بالخليفة، وحفظه على صيانته ابنة أخيه امرأة الخليفة، ويعرفه أنه قد أرسل أبا بكر بن فورك للقيام بخدمة الخليفة وإحضاره وإحضار أرسلان خاتون ابنة أخيه امرأة الخليفة. . .[ولما وصل إلى المكان الذي كان فيه الخليفة القائم] أوصل إليه ابن فورك رسالة طغرلبك، وهدايا كثيرة

(١) المطبوع في تاريخ السيوطي أن المكان الذي حُبس فيه الخليفة القائم «غابة» أو «غاية» والصواب كما ورد في مصادر أخرى «حديثة عانة».

(٢) السيوطي، م.س.، (ص٣٦١).

(٣) وهو غير الأستاذ أبي بكر محمد بن الحسن بن فورك المتكلم تلقى من أبي الحسن الباهلي تلميذ أبي الحسن الأشعري وقد توفي سنة (٤٠٦هـ/١١١٣م) مسموما، اغتاله بعض الكرامية المجسمة. أنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان. ٧ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، (ج٤، ص٢٧٢).

أرسلها معه»[1] وجهز طغرلبك جيشًا حارب البساسيري، وظفر به فقتل وحمل رأسه إلى بغداد.

ويرى المقريزي أن المعتدين الذين هاجموا دار الخلافة ونهبوه أرغموا الخليفة العباسي القائم قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد اعترف فيه بأنه لا حق لبني العباس، ولا له هو، في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء. يقول: «أما العمامة والرداء [أي عمامة ورداء الخليفة العباسي القائم] فبعثهما السلطان صلاح الدين يوسف لما استولى على القصر [أي قصر الملك العبيدي في مصر] إلى الخليفة [العباسي] المستضيء ببغداد مع الكتاب الذي كتبه على نفسه القائم وأشهد على نفسه العدول فيه أنه لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود [بني] فاطمة الزهراء»[2]. وهذا الخبر لم أرَه إلا عند المقريزي، والحكام العبيديون كانوا يدّعون أنهم من نسل فاطمة بنت النبي ﷺ لكسب قلوب المسلمين الذين يحبون أهل بيت النبي ﷺ، وكانوا يسمون أنفسهم «الفاطميين».

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٩، صص٦٤٦ - ٦٤٧). وانظر: السيوطي. م.س.، (ص٣٦١).

(٢) أحمد بن علي المقريزي. اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال محمد حلمي محمد أحمد، ٣ أجزاء، ط١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، لا ت.، (ج٢، ص٢٥٣).

وبشأن ينال أخي طغرلبك كان قد قيل إن المصريين كاتبوه والبساسيري قد استماله وأطمعه في السلطنة والبلاد، فلما عاد إلى همذان سار السلطان في أثره كما ذُكر آنفًا[١].

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٩، ص٦٤٠).

المبحث الثاني:

أهم الوقائع السياسية في المشرق خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ ١١ و١٢م

في القرن الخامس الهجري/ ١١م بدأت بشائر الخير تظهر لإعادة هيبة الخلافة العباسية. فقد تم القضاء على فلول القرامطة في الجزيرة العربية كما تم القضاء أيضًا على نفوذ البويهيين وسلطتهم سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م). وذلك بدخول أفواج جديدة من المقاتلين الأتراك، لكنهم في هذه المرة من السلاجقة الذين أسسوا ممالك لهم في المشرق الإسلامي على أنقاض الدولة الغزنوية، وهؤلاء يختلف وضعهم عن الأتراك الذين استقدمهم المعتصم وجلبهم عبيدًا ليعزز بهم الجيش العباسي. وحصلت بنشاطهم العسكري وقوتهم الفتية مجموعة من الانتصارات في بقاع واسعة من الأراضي في المشرق الإسلامي، فعدا عن سيطرتهم على أجزاء واسعة من أراضي ما وراء النهر، عملوا على تدمير الدفاعات التي كانت للبيزنطيين في آسيا الصغرى، واندفعوا يحتلون المواقع ويهددون الوجود البيزنطي نفسه.

ولكن هذا القرن حمل بلايا جديدة لأمة الإسلام، بظهور الصليبيين الذين بدأوا بهجماتهم على بلاد الشرق الإسلامي، وفي الغرب الإسلامي تم تحقيق بعض الانتصارات في الأندلس وصقلية وبعض الجزر في البحر المتوسط.

وكان احتلال بيت المقدس سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) هزة قوية

لمشاعر المسلمين من جهة، ورفعًا لمعنويات نصارى أوروبا في حروبهم ضد الإسلام من جهة أخرى.

وقد حدث هذا الهجوم بعد الهزائم المنكرة التي مُني بها النصارى في الشرق في معركة ملاذكرد سنة (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) على يد السلطان ألب أرسلان السلجوقي، رغم التفاوت في قوات الطرفين، وفي المغرب في معركة الزلاقة سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) على يد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين. وكان لهاتين الهزيمتين الأثر البالغ في وحدة الكلمة بين الكنيستين الشرقية والغربية، وجيَّشَت القوى بين نصارى أوروبة على مهاجمة ديار المسلمين باجتياح وحشي روّع الآمنين.

كان ولوج بوابة القرن الخامس الهجري/ ١١م، يحمل معه هذا البلاء الذي استمر قرنين من الزمان. لكنه في الوقت نفسه حمل معه صحوة تشهد لها صفحات التاريخ، إذ أنها وحدت الأمة على عقيدة واحدة، انتشر ضياؤها وصفاؤها شرقًا وغربًا. عنينا بذلك أن العقيدة الأشعرية حققت انتصارًا ساحقًا، عندما هزمت من يخالفها في المشرق الإسلامي ومغربه على حد سواء.

ففي الغرب الإسلامي، خرج العبيديون من المناطق التي أسسوا فيها دولتهم في تونس والمهدية والمنصورية، وتوجهوا بجيوشهم لاحتلال مصر، فملكوها في سنة (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م)، حتى قضى عليهم السلطان صلاح الدين سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧٢م).

وزيادة على الغزو الصليبي في بلاد المشرق، حصل ما يكدر عيش المسلمين في بلاد الأندلس، حيث استغل نصارى أوروبا ضعف دول الطوائف، والانقسامات التي حصلت فيما بينهم،

وحققوا انتصارات تسببت في اندحار المسلمين وتنازلهم عن عدد كبير من المدن والجهات.

١- انتعاش حركة الفتوحات في القرن الخامس الهجري/ ١١م:

خلال القرن الخامس الهجري/ ١١م، بدأت الفتوحات فيما يمكن اعتباره مرحلة التوسع الثانية على طرفي عالم الإسلام الشرقي والغربي، على يد الغزنويين الذين بدأوا التوسع في الهند على يد يمين الدولة محمود الغزنوي (٣٨٨هـ/ ٩٩٨م - ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، وفي النصف الأول من هذا القرن الخامس الهجري بدأ امتداد الإسلام على يد المرابطين في إفريقية المدارية والاستوائية، على الطرف الغربي الأقصى لعالم الإسلام على ساحل المحيط، فيما يعرف الآن ببلاد السنغال وما يليها جنوبًا وشرقًا[١]. أما في إفريقية المدارية والاستوائية فقد تولى نشر الإسلام بعد المرابطين دول إسلامية إفريقية أولها دولة مالي.

وأما قلب العالم الإسلامي، فقد بدأت فترة سكون وتمكين لنشر الإسلام، على أيدي دول عظيمة تولاها سلاطين ذوو همة وإيمان، أكبرهم سلاطين السلاجقة الذين أنشأوا دولتهم العظيمة في هضبة إيران وبلاد ما وراء النهر، ثم دخلوا بغداد وأضفوا حمايتهم على الخلافة العباسية بعد أن أزالوا دولة البويهيين التي أساءت إلى دولة الخلافة ولم يكن لها - على كثرة فروعها - فضل في تعميق الإسلام داخل العالم

(١) حسين مؤنس، م.س.، (ص٣٣).

الإسلامي، فقد دخل السلطان السلجوقي طغرل بك بغداد سنة (٤٥١هـ/ ١٠٦٠م) بعد انتصاره على البساسيري.

ومن ذلك الحين اعتدل ميزان الدولة الإسلامية في الداخل في المشرق، وإن كانت لم تلبث أن ابتليت بعد ذلك بالغارة الصليبية على بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي.

٢- مرحلة سيطرة السلاجقة:

كان ظهور الأتراك السلاجقة نقطة تحول في تاريخ الدولة الإسلامية، فقد كان العالم الإسلامي يعاني آنذاك من مشاكل داخلية وخارجية. لذا، لم يكن استنجاد الخليفة العباسي القائم بأمر الله بالسلاجقة لكي يأتوا إلى بغداد أمرًا مستبعدًا. فقد جرى الخلفاء العباسيون على هذه السياسة، فاستعانوا بالأتراك منذ عهد المعتصم، ثم راسلوا بني بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك، ثم كتبوا إلى طغرلبك السلجوقي ليخلصهم من تحكم البساسيري وأنصاره حينما أراد تحويل الدعوة إلى العبيديين في مصر، كل هذا أدى لأن يصبح الفتح التركي السلجوقي علاجًا عاجلًا لمواجهة كل هذه الأحوال.

وقد استطاع السلاجقة استعادة وحدة العالم الإسلامي السياسية، فإليهم يرجع الفضل في تجديد قوة الإسلام واعادة تشكيل وحدته السياسية، فدخلت تلك العشائر التركية السلجوقية القوية، الممتلئة حيوية ونشاطًا، التي لم تفسدها حياة المدن، دخلت في الدين الإسلامي بحماس واقبال شديدين، وسارعوا إلى إنقاذ الدولة في النزع الأخير.

تسميتهم بالسلاجقة ترجع لجدهم سلجوق بن تقاق. وتقاق معناه القوس الحديد، وكان شهمًا ذا رأي وتدبير، وكان مقدم الأتراك الغز، ومرجعهم إليه، لا يخالفون له قولًا، ولا يتعدون أمرًا. فاتفق يومًا من الأيام أن ملك الترك الذي يقال له «بيغو» جمع عساكره، وأراد المسير إلى بلاد الإسلام، فنهاه تقاق عن ذلك، وطال الخطاب بينهما فيه، فأغلظ له ملك الترك الكلام، فلطمه تقاق فشج رأسه، فأحاط به خدم ملك الترك، وأرادوا أخذه، فمانعهم وقاتلهم، واجتمع معه من أصحابه من منعه، فتفرقوا عنه، ثم صلح الأمر بينهما، وأقام تقاق عنده، وولد له سلجوق. وأما سلجوق فإنه لما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم، فقربه ملك الترك وقدمه، ولقبه سباشي، ومعناه قائد الجيش، وكانت امرأة الملك تخوّفه من سلجوق لما ترى من تقدمه، وطاعة الناس له والانقياد إليه، وأغرته بقتله وبالغت في ذلك.

وسمع سلجوق الخبر، فسار بجماعته كلهم ومن يطيعه من دار الحرب إلى ديار الإسلام، وسعد بالإيمان ومجاورة المسلمين، وازداد حاله علوًا وإمرة وطاعة، وأقام بنواحي جند، وأدام غزو كفار الترك، وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين في تلك الديار، فطرد سلجوق عمالَه منها، وصفت للمسلمين.

وكان لسلجوق من الأولاد: أرسلان، وميكائيل، وموسى. وتوفي سلجوق بجند، وكان عمره مائة سنة وسبع سنين، ودفن هناك، وبقي أولاده، فغزا ميكائيل بعض بلاد الكفار الأتراك، فقاتل وباشر القتال بنفسه، فاستشهد في سبيل الله، وخلف من الأولاد: بيغو، وطغرلبك محمدًا، وجغري بك داود، فأطاعهم

عشائرهم، ووقفوا عند أمرهم ونهيهم[١]. ثم توسعوا في بلاد ما وراء النهر على حساب جيرانهم الغزنويين. على أن التطور المهم في حياة السلاجقة في تلك الفترة، هو اعتناقهم الإسلام على المذهب السني، تحت تأثير العناصر التركية الأخرى من السامانيين والخانيين والغزنويين، ويسر لهم ذلك فرصة التقرب من حكام المسلمين.

ثم دخلوا آسيا الصغرى، وتخطوا الحدود التقليدية بين دولة الإسلام ودولة الروم البيزنطيين، وأصبحت هذه المنطقة جبهة في مجالهم العسكري، للقيام بالهجمات المتتالية على البيزنطيين، وقد بدأ ذلك في حكم سلطانهم طغرل بك، فخربوا معاقل الدولة البيزنطية في شرق آسيا الصغرى، وكذلك دمروا مدن أرضروم وقيسرية وعمورية وقونية.

وبلغ من قوة طغرلبك في أسية الصغرى أن أسر السلاجقة في إحدى المعارك ملك الأبخاز، فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة شيخ الإسلام أبي عبد الله بن مروان يسأله أن يسعى في فدائه، فأرسل في المعنى إلى السلطان طغرلبك، فأطلقه بغير فداء، فعظم ذلك عنده وعند ملك الروم، وأرسل عوضه من الهدايا شيئًا كثيرًا، وعمروا مسجد القسطنطينية، وأقاموا فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك، فعظم شأنه، وتمكن ملكه وثبت[٢]. ويقول ابن الوردي في تاريخه: «أرسل ملك الروم إلى طغرلبك هدية وطلب المعاهدة، فأجابه وعمر مسجد القسطنطينية وأقام

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٩، صص٤٧٣ - ٤٧٤).
(٢) نفسه، (ج٩، صص٥٥٦ - ٥٥٧).

فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك ودان له الناس»[١].

٣- أهمية معركة ملاذكرد:

في سنة (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) انتصر السلطان السلجوقي ألب أرسلان على الدولة البيزنطية في معركة ملاذكرد، وانفتح باب آسيا الوسطى أمام العشائر التركية السلجوقية، ومن كان يرافقها من العشائر التركمانية[٢].

أصيب الامبراطور رومانوس الرابع امبراطور الدولة البيزنطية (٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م - ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م) بكارثة حربية عند اصطدامه بالسلاجقة تحت قيادة ألب أرسلان في موقعة «مانزكرت» أو «ملاذكرد» في شرق آسية الصغرى شمالي بحيرة فان. وفي تلك الموقعة تحطم جيش الامبراطور، ووقع رومانوس الرابع نفسه أسيرًا في قبضة السلاجقة الذين لم يطلقوا سراحه إلا بعد شروط قاسية[٣].

كان لمنطقة آسيا الصغرى دورٌ هامٌ في إطار الدولة البيزنطية سواء من النواحي العسكرية أو الاقتصادية أو الحضارية، لذلك حرصت الإمبراطورية البيزنطية على عدم التفريط فيها، وكذلك ألحَّ المسلمون على الاستحواذ عليها، لما يشكله ذلك من

---

(١) زين الدين عمر بن مظفر الشهير بابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، جزءان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، (ج١، ص٣٤٠).

(٢) حسين مؤنس، م.س.، (ص٣٣).

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور. أوروبا العصور الوسطى، جزءان، الجزء الأول (التاريخ السياسي)، ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م، (ج١، ص٧٢١). والسيوطي، م.س.، (ص٣٦٤). وانظر ابن الأثير، م.س.، (ج١٠، صص ٦٣ - ٦٤).

ضربة قاصمة للدولة المناوئة لهم، وامتداد جغرافي وسياسي هام، وحلقة هامة من حلقات الصراع بين القوتين العظميين في تلك الفترة من فترات التاريخ التي تعارف المؤرخون على تسميتها بالعصور الوسطى.

ومع أن أسرة كومنين (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م- ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) استطاعت في بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أن تزحزح بمساعدة الصليبيين بعض الجماعات التركية وتستعيد منهم مدن الثغور، وبخاصة طرسوس والمصيصة وعين زربة وأدنة ومرعش وملطية وآمد وخلاط وملاذكرد وقالقيلا - فإن الترك السلاجقة تمكنوا بعد ذلك من العودة إلى التوغل في آسيا الصغرى، ثم توغلوا فيها سنة (٦٤٠هـ/ ١٢٤٣م) وأنشأوا الدولة التركية السلجوقية، التي أصبحت تسمى بدولة سلاجقة الروم، نسبة إلى أنها تسكن بلاد الروم. ويعتبر ذلك حادثًا فاصلًا في توسع الإسلام. فإنه كان البداية الحقيقية لاستيلاء الأتراك على آسيا الصغرى والقضاء على الدولة البيزنطية، لأن الأتراك العثمانيين وهم كذلك فرع من الأتراك الغزية، لم يلبثوا أن دخلوا آسيا الصغرى، لينتهي نشاطهم هناك إلى القضاء على الدولة البيزنطية قضاء مبرمًا سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م)، عندما افتتح السلطان محمد الثاني (الذي شهر باسم السلطان محمد الفاتح) القسطنطينية، وحولها إلى مدينة إسلامية اسمها إستانبول أو إسلامبول، ومعناها مدينة الإسلام[١].

---

(١) حسين مؤنس، م.س.، (ص٣٣).

٤- إسهام ألب أرسلان في نشر العقيدة الأشعرية:

يذكر السيوطي أنه تولى السلطنة بعد طغرلبك ابن أخيه عضد الدولة ألب أرسلان صاحب خراسان وبعث إليه القائم بالخلع والتقليد، ثم ينقل كلاما عن الذهبي فقال: «قال الذهبي: وهو أول من ذُكر بالسلطان على منابر بغداد، وبلغ ما لم ما يبلغه أحد من الملوك، وافتتح بلادًا كثيرة من بلاد النصارى، واستوزر نظام الملك فأبطل ما كان عليه الوزير قبله عميد الملك من سب الأشعرية، وانتصر للشافعية، وأكرم إمام الحرمين وأبا القاسم القشيري وبنى النظامية، قيل: وهي أول مدرسة بنيت للفقهاء»[(١)]. . ثم يتابع السيوطي فيورد أنه «في سنة خمس وستين وأربعمائة (١٠٧٣م)، قتل السلطان ألب أرسلان وقام في الملك بعده ولده ملكشاه ولقب بجلال الدولة، وردّ تدبير الملك إلى نظام الملك ولقبه الأتابك وهو أول من لقبه ومعناه الأمير الوالد»[(٢)].

وفي سنة (٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م) ضم ملكشاه دمشق إلى ملكه، وعين أخاه تتش على بلاد الشام وجعل الحكم وراثيًا في أسرته. ويُعدّ ملكشاه آخر سلاطين السلاجقة العظام، وكانت وفاته سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، إيذانًا بتفكك دولة السلاجقة. فقد خلف من الأولاد أربعة هم: بركياروق ومحمود ومحمد وسنجر، تقسمت دولته فيما بينهم، فتنافسوا ومن بعدهم أولادهم على السيطرة على الخليفة العباسي لينال بذلك لقب سلطان. إلى أن حصل اقتتال بين السلطان مسعود بن محمد

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، (ص٣٦٣).
(٢) نفسه، (ص٣٦٤).

والخليفة العباسي المسترشد، فأسر الخليفة وسجن في أصبهان. ثم قتله بعض الباطنية غيلة سنة (**٥٢٩هـ/ ١١٣٤م**)[١].

٥- بداية سيطرة الزنكيين:

ولعل أبرز مظهر لانحلال دولة السلاجقة، إضافة إلى التفكك والتناصر الأسري، هو استقلال عدد من كبار قادة السلاجقة، ممن اصطلح على تسميتهم بالأتابكة بولاياتهم، والأتابكة هي جمع لكلمة «أتابك» التركية المؤلفة من مقطعين: «أتا» بمعنى أب و«بك» بمعنى السيد الذي يربي أولاد الملوك. ثم أصبح لقبًا تشريفيًا يمنح لكبار القادة بمعنى قائد الجيوش ونائب السلطنة. وقد أطلقت على الدول التي أسسوها الأتابكيات وهي كثيرة عديدة. وأهم هذه الأتابكيات أتابكية الموصل، التي أسسها عماد الدين زنكي. وعن طريق آل زنكي ظهر الأيوبيون. وكان لهؤلاء وأولئك أدوارهم على مسرح الحوادث السياسية في الشرق الأدنى الإسلامي[٢].

٥- (١) الدولة النورية:

كان قسيم الدولة آق سنقر الحاجب، جدّ نور الدين محمود ابن زنكى مملوكًا للسلطان العادل عضد الدولة ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق، فرُبّيَ مع ولده السلطان العادل جلال الدولة ملكشاه، واستمر في صحبته إلى حين كبره، وإفضاء السلطنة إليه، فجعله من أعيان دولته، وأكابر أمرائه،

---

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج١١، صص١٩ - ٢٧).

(٢) أبو شامة المقدسي، م.س.، من مقدمة محقق الكتاب إبراهيم شمس الدين (ج١، صص٢٢ ٢٣).

وأخص أوليائه، واعتمد عليه في أموره كلها، وعلت مرتبته ومنزلته إلى أن لقّب: «قسيم الدولة»[(١)].

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العَادِل نور الدّين أبو القَاسِم محمود بن عماد الدّين أتابك، وَهُو أبو سعيد زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر التركي، ويلقب زنكي أَيْضا بلقب وَالِده قسيم الدولة. فلمَّا انْقضى أَجله قام ابنه نور الدّين مقَامه وذلك سنة إِحْدَى وَأَربعين وخمسمائة (١١٤٦م)، ثمَّ قصد نور الدّين حلب فملكها وَخرج غازيا، فَافْتتحَ حصونًا كَثِيرَة، وحاصر دمشق مرَّتَيْنِ وَفتحهَا فِي الثَّالِثَة فضبط أمورها وحصن سورها، وَبنى بهَا المدَارِس والمساجد. واستنقذ من العَدو ثغر بانياس والمنيطرة ووقف رَحمَه الله تَعَالَى وقوفًا على المرضى ومعلمي الخط والقُرآن وساكني الحرمَيْن وأقطع أُمَرَاء الْعَرَب لِئَلَّا يتَعَرَّضُوا للحجاج، ثمَّ فتح حارم وَأخذ أَكثر قرى أنطاكية ثمَّ فتح الديار المصرية وَكَانَ العَدو[(٢)] قد اشرف على أَخذهَا، ثمَّ أظهر بهَا السّنة وانقمعت الْبِدْعَة[(٣)].

وَقَالَ ابن الأَثِير: «قد طالعت سِيَر الملوك المتَقَدّمين، فَلم أر فِيهَا بعد الخلَفَاء الرَّاشِدين وَعمر بن عبد العَزِيز أحسن سيرة، وَلَا أَكثر تحريا منه للعدل.. فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه،

---

(١) جمال الدين محمَّد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. ٥ أجزاء، ط١، دار الكتب والوثائق الأميرية، القاهرة، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م، (ج١، ص١١).

(٢) يقصد الصليبيين الذين كانوا يتوقون لاحتلال مصر من أيدي العبيديين، فبادر إلى السيطرة عليها.

(٣) أبو شامة المقدسي، م.س.، (ج١، صص٩٦ - ٩٧).

فإنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف في الذي يخصه إلا من ملك كان له.. وكان يصلي كثيرًا بالليل، وله فيه أوراد حسنة.. وكان عارفًا بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، وسمع الحديث، وأَسْمَعَه طلبًا للأجر»(١).

«وبنى بدمشق أيضًا دار الحديث، ووقف عليه وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفًا كثيرة، وهو أول من بنى دارًا للحديث فيما علمنا. وبنى أيضًا في كثير من بلاده مكاتب(٢) للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة؛ وبنى أيضًا مساجد كبيرة ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن»(٣). ويذكر ابن الأثير: «بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها.. وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى الجامع النوري بالموصل، وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق، وبنى الخانكاهات للصوفية في جميع البلاد، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة.. وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم»(٤).

لقد أوتي الملك العادل نور الدين محمود رحمه الله من الفهم في أمور جهاد الصليبيين، ما جعله في حركة من الغزو وتتبع الأعداء مستمرة لا تتوقف، حتى استولى على الحصون والقلاع التي في داخل بلاد الشام مما يدل على براعته في الحرب، تمهيدًا لقلعهم من الشريط الساحلي.

---

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج١١، صص٤٠٣ - ٤٠٤).
(٢) أي مدارس.
(٣) أبو شامة المقدسي، م.س.، (ج١، ص١٠٧).
(٤) ابن الأثير، م.س.، (ج١١، ص٤٠٤).

وكذلك، المتتبع لما حصل بينه وبين دولة العبيديين في مصر، يدرك حرصه أن لا يصل إليها الصليبيون الأوروبيون، لأن مَنْ مَلَكَ مصرَ هانت عليه السيطرة على بلاد الشام.

كانت حالة الضعف التي وصلت إليها دولة العبيديين، والصراع بين اثنين من الوزراء المتنافسين على السلطة وهما: شاور وضرغام، سببًا لعلاقة مباشرة، استعمل فيها نور الدين حكمةً وتبصرًا في الظروف الحرجة، بالإضافة إلى حسن طاعة قادته العسكريين الشجعان، وكان مؤدى ذلك نصرًا.

وبالعودة إلى المصادر التاريخية المختلفة، مثل الكامل في التاريخ لابن الأثير، وكتاب الروضتين لأبي شامة المقدسي، ومفرج الكروب في أخبار بني أيوب، نصل إلى القصة الكاملة التي جعلت نور الدين يتدرج في السيطرة على مصر وإنهاء حكم العبيديين نهائيًا، بعد أن استمر زهاء مائتين وسبعين سنة، بين تملكهم بقاعًا واسعة في بلاد المغرب ثم سيطرتهم على مصر حتى اضمحلال ملكهم فيها.

٥- (٢) إنهاء حكم العبيديين في مصر:

في الوقت الذي كان نفوذ نور الدين يتمدد في بلاد الشام مهددًا مواقع الصليبيين، بعد سقوط مملكة الرها بيد عماد الدين زنكي سنة (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م)[١]، وقيام نور الدين بتوحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين، واسترداد الكثير من المواقع التي احتلوها، كانت دولة العبيديين في مصر تتآكل من داخلها، وتظهر بوادر الضعف فيها. ففي سنة (٥٥٨هـ/ ١١٦٣م)، صار

(١) نفسه، (ج١١، ص٩٨).

شاور وزيرًا للعاضد العبيدي، وكان ينازعه الضرغام، الذي جمع جموعًا كثيرة وظهر أمره، وانهزم شاور منه إلى الشام[١]. . ملتجئًا إلى نور الدين ومستجيرًا به، فأكرم مثواه، وطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه. فأرسل نور الدين جيشًا قائده أسد الدين يعاونه ابن أخيه صلاح الدين وذلك في سنة (٥٥٩هـ/ ١١٦٤م)، فنزل على القاهرة وقُتل ضرغام وأُعيد شاور إلى الوزارة وتمكن فيها. وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، فغدر به شاور وعاد عمّا كان قرّره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد أيضا، فطلب ما كان قد استقر بينهم، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوّفهم من نور الدين إنْ مَلَكَ مصر، ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد. وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن تمَّ ملكه لها، فسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا في تلك الديار المصرية. . وما ردهم إلا سقوط حارم بأيدي نور الدين ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم وعادوا لحماية مواقعهم، بعد صلح مع أسد الدين ليتركوا البلاد إلى المصريين، وعاد أسد الدين إلى الشام[٢].

وفي سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٧م)، عزم نور الدين على العود إلى مصر، فأمرَ أسدَ الدين أن يسير إليها، فلما بلغ شاور ذلك أرسل إلى الفرنج يستنجدهم، فأتوه طمعًا في ملكها، وخوفًا أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم مقام معه ومع نور الدين.

---

(١) نفسه، (ج١١، صص٢٩٠ - ٢٩١).
(٢) نفسه، (ج١١، صص٢٩٨ - ٣٠٠).

وحصلت الحرب بين الجمعين وكانت النصرة لجيش أسد الدين، وقوامه مائتي فارس، على المصريين والفرنج. فتقدم أسد الدين بعد هذا النصر وأخذ الاسكندرية، واستناب بها صلاح الدين، إلى أن عاد الفرنج والعبيديون للتجمع من جديد وحصل صلح آخر وعاد أسد الدين إلى دمشق[١].

ثم تمكن الصليبيون في البلاد المصرية، وجعلوا في القاهرة شحنة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وتسلموا أبوابها، وحكموا على المسلمين حكمًا جائرًا. فلما رأوا ذلك وأن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام يستدعونه ليملكها، فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذوو الرأي منهم وأشاروا إليه بقصدها وتملكها. فنزلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرا ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وسبوا.. فخاف أهل القاهرة أن يفعلوا بهم ما فعلوا بأهل بلبيس، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه. وأمر شاور بإحراق مدينة مصر، وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، وأن يُنهب البلد، فانتقلوا وبقوا على الطرق. وأرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يستغيث به، ويعرّفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال: هذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهم من الفرنج، فشرع في تسيير الجيوش.. ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليهم، وأشار إليهم شاور بالصلح على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية، فقالوا نأخذ المال فنتقوى به، ونعاود البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين. ولكن شاور لم يستطع جمع هذا المال، وهم في خلال هذا يراسلون نور الدين بما الناس فيه،

(١) نفسه، (ج١١، صص٣٢٤ - ٣٢٧).

وبذلوا له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين مقيمًا عندهم في عسكر، وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضًا خارجًا عن الثلث الذي لهم. . ثم إن أسد الدين لما قارب مصر رحل الفرنج بخفي حنين خائبين مما أملوا. وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك، وأمر بضرب البشائر في البلاد، وبث رسله في الآفاق مبشرين بذلك، فإنه كان فتحًا جديدًا لمصر وحفظًا لسائر بلاد الشام[1].

ويذكر ابن الأثير بعد ذلك، خبر مقتل شاور بطلب من الملك العبيدي العاضد، وتوزير أسد الدين شيركوه في حفل مهيب وأغدق عليه الهدايا الثمينة. وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، وتوفي رحمه الله في نفس عام الفتح هذا، سنة (٥٦٤هـ/ ١١٦٩م)[2].

ويروي ابن الأثير قصة عودة أسد الدين للمرة الثالثة إلى مصر، وكان كارها لذلك، وحصل ذلك أيضًا مع صلاح الدين، الذي لم يكن يرغب أن يعود، لما رأى من غدر شاور وتعاونه مع الصليبيين، يقول: «حكى لي عنه [أي عن صلاح الدين] بعض أصدقائنا ممن كان قريبًا إليه، قال: لما وردت كتب العاضد على نور الدين يستغيث به من الفرنج، ويطلب إرسال العساكر، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه ليحضر، وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير؛ ففعلت وخرجنا من حلب، فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادمًا في هذا

(١) نفسه، (ج١١، صص٣٣٤ - ٣٣٩).
(٢) نفسه، (ج١١، صص٣٣٠ - ٣٤١).

المعنى، فأمره نور الدين بالمسير[١]، فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمي إليَّ فقال لي: تجهز يا يوسف، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية ما لا أنساه أبدًا. فقال لنور الدين: لا بد من مسيره معي فتأمر به، فأمرني نور الدين، وأنا أستقيل، وانقضى المجلس. وتجهز أسد الدين، ولم يبق غير المسير؛ قال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك؛ فشكوت إليه الضائقة وعدم البرك، فأعطاني ما تجهزت به فكأنما أساق إلى الموت، فسرت معه ومَلَكَها، ثم توفي فملكَّني الله ما لم اكن أطمع في بعضه»[٢].

مكن صلاح الدين سلطته في مصر، وأزال حكم العبيديين، وأَخذ فِي نصْرَة السّنة وإشاعة الْحق.. ثمَّ تجردت همته إِلى الفرنج وغزوهم وَكانَ من أمره مَعَهم مَا ضَاقَتْ بِهِ التواريخ.. ثمَّ فِي سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م) افْتتح الْيمن وَقبض على المتغلب عَلَيْهَا عبد النَّبِي بن مهدي. ثمَّ فِي سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م) سَار من مصر إِلَى دمشق بعد وَفَاة نور الدّين، وأخرج الصبي[٣] من الملك، وَصَارَ هو سلطان مصر والشَّام واليمن والحجاز. وقام بذلك لما علم أن الفرنج قد تزايد طمعهم في دمشق بموت نور الدين، فرأى صلاح الدين من الحزم جمع المسلمين على سلطان واحد يقيم الملة وينصر الشريعة، وإنه ذلك الواحد

---

(١) ويوجد زيادة عند السبكي في الطبقات: «وقال له إِن تَأخّرت عَن مصر سرت أَنا بنفسي فَإِنَّهَا إِن ملكها الفرنج لا يبقى مَعَهم بالشّام مقام». تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، ص٢٢٥).

(٢) ابن الأثير، م. س.، (ج١١، صص٣٤٢ - ٣٤٣).

(٣) ولد نور الدين وكان أقام نفسه أتابكا عليه لكونه صغيرا.

الذي تعقد عليه الخناصر، وأن الإسلام محتاج إليه[١].

واستمر صلاح الدين في جهاده الصليبيين، وفي دعم النهضة العلمية وإنعاش التعليم الديني، بتأسيس المدارس في سائر البلاد التي صارت تحت حكمه، وكان قد بدأ بهذه الخطة نور الدين زنكي في مدن بلاد الشام حلب ودمشق وغيرهما، وهي الخطة نفسها التي كان قد باشر بها نظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان ثم ولده ملكشاه. وعماد التعليم في هذه الخطة تعليم العقيدة الأشعرية. يروي السبكي في الطبقات أن فخر الدين بن عساكر[٢] كان يقرئ «العقيدة المرشدة» في المدرسة الصلاحية في بيت المقدس، وذكر كلاما للحافظ صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي يمدح هذه العقيدة[٣].

وخاض صلاح الدين عشرات المعارك قبل أن يصل إلى المعركة الفاصلة التي ستلحق الخيبة بنفوس المحتلين، الذين أصبحوا ينتظرون الهزيمة تلو الهزيمة؛ إنها معركة حطين، المعركة الفاصلة التي وقعت سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) بين الناصرة وطبرية انتصر فيها المسلمون، ووضع فيها الصليبيون أنفسهم في وضع غير مريح إستراتيجيًا، في داخل طوق من قوات صلاح الدين، أسفرت عن تحرير مملكة القدس وتحرير معظم

---

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، ص٢١٩).

(٢) هو عبد الرحمٰن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الملقب بفخر الدين والمعروف بابن عساكر (المتوفى سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) وهو ابن أخي الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر صاحب «تاريخ دمشق» و«تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري».

(٣) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، صص٣٤٠ - ٣٤١).

الأراضي التي احتلها الصليبيون[١].

٦- اهتمام صلاح الدين بالعقيدة الأشعرية وتعليمها:

من اطلع على ترجمة السلطان صلاح الدين عرف أنه كان محبًا للعلم والعلماء، نشأ على ذلك وعلم أولاده الاعتقاد السليم، ففي الطبقات للسبكي: «سمع الحديث من الحافظ أبي طاهر السلفي وأبي طاهر بن عوف والشيخ قطب الدين النيسابوري وعبد الله بن بري النحوي وجماعة، روى عنه يونس بن محمد الفارقي والعماد الكاتب وغيرهما. وكان فقيهًا يقال إنه كان يحفظ القرآن والتنبيه في الفقه[٢] والحماسة في الشعر»[٣].

ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس[٤]، فبدأ صلاح الدين ببناء المدارس وإجراء الأوقاف عليها، لتعليم أصول العقيدة الإسلامية والفقه على المذاهب الأربعة، فأسس المدارس ونشرها في النواحي[٥].

---

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج١١، صص٥٣٤ - ٥٣٥).

(٢) كتاب التنبيه في الفقه الشافعي لإبراهيم بن علي بن يوسف المعروف بأبي إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م).

(٣) كتاب الحماسة في الشعر لأبي تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، (ت ٢٣١هـ/ ٨٤٥م).

(٤) ابن خلكان، م.س.، (ج٧، ص٢٠٦).

(٥) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (جزءان، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، (ج٢، صص١٩٩ - ٢١٠).

وبلغ من اهتمام صلاح الدين بتعليم العقيدة الأشعرية أن أمر المؤذنين في الأسحار قبل صلاة الفجر بقراءة العقيدة المرشدة على المآذن. وفي ذلك يورد المقريزي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م): «فلما ولي السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر وولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدباني الماراني الشافعي، كان من رأيه ورأي السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري في الأصول، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده.. وتقدم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا في وقت التسبيح على المآذن بالليل بذكر العقيدة التي تعرف بالمرشدة، فواظب المؤذنون على ذكرها في كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا»(١).

وقال علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٨م) ما نصه: «فلما وُلي صلاح الدين يوسف بن أيوب وحمل الناس على اعتقاد مذهب الأشعري والخروج عما كان يعتقد الفواطم [يعني العبيديين] أمر المؤذنين أن يعلنوا وقت التسبيح بذكر العقيدة المرشدة وقد وقفت عليها فإذا هي ثلاث ورقات ولم أقف على اسم مؤلفها فواظبوا على ذكرها في كل ليلة»(٢).

وقال محمد بن علان الصديقي الشافعي (ت١٠٥٧هـ/

(١) أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م، (ج٤، ص٩٠).

(٢) علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، السيرة الحلبية إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. ٣ أجزاء، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، (ج٢، ص١٤٤). ودار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ، (ج٢، ص٣١٤).

١٦٤٧م) في كتابه «الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية» ما نصه: «لما ولي صلاح الدين بن أيوب، وحمل الناس على اعتقاد مذهب الأشعري، أمر المؤذنين أن يعلنوا وقت التسبيح بذكر العقيدة الأشعرية التي تعرف بالمرشدة فواظبوا على ذكرها كل ليلة»(١).

٧- العقيدة الصلاحية:

وكانَ أمرَ بتعليمِ كتابٍ ألفهُ عالم من عُلماء ذلِك العصر، وهو محمد بن هبة الله بن مكي الحموي الإمام تاج الدين، وكان فقيها فرضيًا نحويًا متكلمًا أشعري العقيدة، إمامًا من أئمة المسلمين إليه مرجع أهل الديار المصرية في فتاويهم. وله نظم كثير منه أرجوزة سماها «حدائق الفصول وجواهر الأصول» صنفها للسلطان صلاح الدين. وهي حسنة جدًا نافعة عذبة النظم وفي خطبتها يقول:

فَـــهـــذِهِ قَـــوَاعِـــدُ الـــعَـــقَـــائِـــدِ
ذَكَـرْتُ فِـيـهـا مَـعْـظَـمَ الـمَـقـاصِـدِ

ومنها

جَـمَـعْـتُـهـا لِـلْـمَـلِـكِ الأمـيـنِ
الـنَّـاصِـرِ الـغَـازِي صَـلاحِ الـديـنِ
عَـزيـزِ مِـصْـرَ قَـيْـصَـرِ الـشَّـامِ وَمَـنْ
مَـلَّـكَـهُ الـلـهُ الـحِـجَـازَ وَالْـيَـمَـنْ

(١) محمد علي بن محمد علان البكري الصديقي، الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية. ٦ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، (ج٢، ص٧٧).

ذِي الـعَـدْلِ والـجـودِ مَـعًـا وَالـبَـاسِ
يُـوسُـفَ مُـحْـيِـي دَوْلَـةَ الـعَـبَّـاسِ(١)

فأُعجب بها السُلطان، واشتهرت بينَ عُلماء أهل السنة باسم «العقيدة الصلاحية»، لأنهُ قرَّرَ تدريسَ هذهِ العقيدة في المدارِس للصِّغار والكِبار. وهي أرجوزة تحوي أصول عقائد أهل السنة والجماعة. سنعرض بعض الأبيات منها لبيان أشعريتها.

فيقول في تنزيه الله تعالى عن المكان والجهة:

وَصَـانِـعُ الـعَـالَـمِ لا يَـحْـوِيْـهِ
قُـطْـرٌ تَـعَـالَـى الـلـهُ عَـنْ تَـشْـبِـيـهِ
قَـدْ كَـانَ مَـوْجُـودًا وَلا مَـكَـانَـا
وَحُـكْـمُـهُ الآنَ عَـلَـى مَـا كَـانَ
سُـبْـحَـانَـهُ جَـلَّ عَـنِ الـمَـكَـانِ
وَعَـزَّ عَـنْ تَـغَـيُّـرِ الـزَّمَـانِ
فَـقَـدْ غَـلا وَزَادَ فـي الـغُـلُـوّ
مَـنْ خَـصَّـهُ بِـجِـهَـةِ الـعُـلُـوّ
وحَـصَـرَ الـصَّـانِـعَ فـي الـسَّـمَـاءِ
مُـبْـدِعَـهـا والـعَـرْشَ فَـوْقَ الـمـاءِ
وَأَثْـبَـتُـوا لِـذَاتِـهِ الـتَّـحَـيُّـزَا
قَـدْ ضَـلَّ ذُو الـتَّـشْـبِـيْـهِ فِـيـمـا جَـوَّزَا

معنى ذلِك أن خالقَ العالم لا يحويهِ مكان لأنهُ مُنزهٌ عن

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، ص١٥).

الشبيه، فكما كانَ موجودًا قبلَ المكانِ بلا مكان، لا يزالُ بعدَ خلقِ المكان موجودًا بلا مكانٍ ولا جهة. فهو تعالى مُنزَّهٌ عن أنْ يكونَ في مكان، ومنزَّهٌ عنْ أنْ يجريَ عليهِ الزمان. وأنَّ من الغلو أي مُجاوزة الحد أن يصفَ المرءُ اللهَ بأنهُ في جهة العلو، لأن الجهة مكانٌ لا يوصف بها إلا منْ كانَ حجمًا واللهُ تعالى منزَّه عن الجسمية فلا يوصف بأنه في جهة من الجهات.

ويقول في تنزيه كلام الله عن الحرف والصوت:

وقُـلْ لِـمَـنْ قَـدْ كَـيَّـفَ الـكَـلامَـا

بِـالـحَـرْفِ وَالـصَّـوتِ مَـعًـا سَـلَامَـا[(١)]

معناه: من قالَ إن اللهَ مُتكلمٌ بالحرفِ والصوت انبذْ كلامَه، لأنَّ كلامَ اللهِ تعالى صِفتُه أزليةٌ أبديةٌ، والحرفُ والصوتُ حادثان ويدلَّان على تَتَابُع الحروفِ وتَعَاقُبِها، وهذا مستحيلٌ في حقِّ اللهِ تعالى، لأنَّه جَلَّ وعَزَّ ليسَ محلًّا للحوادث.

---

(١) انظر الأرجوزة: لمحمد بن هبة الله المكي، منتخب حدائق الفصول وجواهر الأصول في علم الكلام على أصول أبي الحسن الأشعري. ط٢، شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

المبحث الثالث:

في نشأة الفرق الإسلامية:

بعد أن امتد الإسلام على رقعة واسعة من الأرض بلغت من الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسي وبلاد الأندلس غربًا، خضع للدولة الإسلامية شعوب عديدة من قوميات ولغات متعددة، فمنهم من أسلم وحسن إسلامه، ومنهم من حابى المسلمين وبقي على معتقده نفاقًا، فدسّ على مجتمع المسلمين من الأباطيل التي تخالف عقيدة المسلمين وتكذب شريعة سيد المرسلين ﷺ. ولم يقتصر الأمر على آحاد الناس بل تجمع أصحاب هذه الآراء والأفكار في تجمعات، بحسب أحوال البلاد التي كانوا فيها، فنشأ عن ذلك فرق، تتحزب كل فرقة منها لأفكارها وتناضل من أجلها. وذلك ما درج علماء المسلمين على تسميته بالفرق وهو لفظ مأخوذ من حديث رسول الله ﷺ.

فقد روى أبو داود من حديث معاوية أن الرسول ﷺ قال: «**وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة**» الحديث[1]. وهم جمهور الأمة المحمدية وهذا ما تم الاصطلاح عليه بأهل السنة والجماعة ودرج استعماله على هذه الأغلبية، وهم الفرقة الناجية الذين

(١) سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بأبي داود، سنن أبي داود، جزءان، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، رقم الحديث ٤٥٩٦، (ج٢، ص٦٠٨).

يتبعون ما كان عليه الرسول والصحابة والتابعون. ومعنى أهل السنة الذين هم يتبعون شريعة الرسول أي ما جاء به من العقيدة والأحكام ومعنى الجماعة الجمهور الغالب. فخرج بذلك الشذاذ وهم الفرق أصحاب البدع الضالة.

وقد ثبت أن الرسول عليه السلام أخبر أن جمهور أمته لا يضلون، أي أن غالب الأمة لا يضلون، أي لا يخرجون عن عقيدة أهل الإسلام الصحيحة التي قررها رسول الله ﷺ، وذلك من خصائص هذه الأمة، ويدل على ذلك ما رواه الترمذي «**إن الله لا يجمع أمتي أو قال أمة محمد عليه الصلاة والسلام على ضلالة**» الحديث[١] وعند ابن ماجه زيادة «**فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم**» الحديث[٢].

إن التعريف ببعض هذه الفرق على اختلاف توجهاتها، ضروريٌ لفهم الموضوع الذي نحن بصدده، وقد ترتب عن ظهور الفرق تَحَوُّلُ بعضها إلى حركات سياسية، كان لها صولات وجولات، سيطروا من خلالها على بقاع واسعة من الأراضي والبقاع التي كانت تحت سيطرة دار الخلافة.

كثير من العلماء صنفوا في نشأة فرق المخالفين أصحاب البدع التي تخالف الشرع الذي أُنزِل على نبي الله محمد ﷺ، منهم أبو منصور عبد القاهر البغدادي التميمي في «الفرق بين الفرق»، وأبو المظفر الإسفراييني في «التبصير في الدين»،

---

(١) محمد بن عيسى المعروف بأبي عيسى الترمذي، سنن الترمذي ٥ أجزاء، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، رقم الحديث ٢١٧٢، (ج٤، ص٤٦٦).

(٢) محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه، سنن ابن ماجه، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، رقم الحديث ٣٩٥٠، (ص٥٩٦).

وفخر الدين الرازي في «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»، والشهرستاني في «الملل والنحل». وذكروا في كتبهم أصناف هذه الفرق، التي أخبر عنها النبي ﷺ.

بين علماء الإسلام التمييز بين الإيمان والكفر، وبين الطاعة والمعصية، وضبطوا قواعد فقهية في هذه الأمور حتى يسهل معرفة الفرق فيما بينها. وكانت غاية الذين صنفوا في ظهور الفرق من الأشاعرة أن يميزوا بين الحق والباطل، فقال أبو المظفر في «التبصير في الدين»: «وَجَب على الْمَرْء المحصل أَن يُمَيّز عقيدته عَن عقائدهم الْفَاسِدَة، وَدينه عَن أديانهم الضَّالة، وَقد ظهر فِي بِلَاد الْإِسْلَام أَقوام من أهل الْبدع، يخدعون الْعَوام وَيلبسون عليهم الأَدْيَان، وينتسبون إِلَى فريقي أهل السّنة وَالجمَاعَة أَصْحَاب الحَدِيث والرأي، ويستظهرون بصدور لَا يعرف حَالهم من صُدُور أهل الْإِسْلَام ليتقوى بهم على خداع أهل الْغرَّة من الْمُسلمين.. فَأَرَدْت أَن أجمع كتابًا فارقًا بَين الفَرِيقَينِ، جَامعًا بَين وصف الْحق وخاصيته وَالإِشَارَة إِلَى حججه، وَوصف الْبَاطِل وحد شبهه، لِيَزْدَادَ المطلع عَلَيْهِ استيقانًا فِي دينه، وتحقيقًا فِي يقينه، فَلَا ينفذ عَلَيْهِ تلبيس المبطلين، وَلَا تَدْلِيس الْمُخَالفين للدّين»(١).

وقد اشتركت مجموعات من هذه الفرق في ضلالة واحدة مثلا، مع تنوع ما ذهب إليه من نشر هذه البدعة. مثلا ضلالة التجسيم، أي أن يعتقد بعض الناس أن الله جسم. والجسم

---

(١) طاهر بن محمد المشهور بأبي المظفر الإسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين. ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، (صص١٦ - ١٧).

معروف أنه مركب من أجزاء، وفي تاريخ الفرق من اعتقد ذلك واجتهد في نشر هذه المقالة، ليست فرقة واحدة فالهاشمية والبيسانية والكرامية نماذج منها، وكذلك القدرية الذين نفوا القدر فهؤلاء ليسوا فرقة واحدة، بل هم نحو عشرين فرقة يجمعهم نفي القدر، مع تنوع مقالاتهم المخالفة للدين. فلذلك عمدنا إلى إعطاء نبذة شاملة مستقاة من الكتب المصنفة في ذلك.

وقد وضع علماء أصول الدين قواعد، بناء على ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، لتمييز أصحاب البدع المنحرفة عن الصراط المستقيم وبيان الفرقة الناجية.

يقول ابن جزي الكلبي الأندلسي في كتابه «القوانين الفقهية: «أما المرتد فهو المكلف الذي يرجع عن الإسلام طوعًا إما بالتصريح بالكفر وإما بلفظ يقتضيه أو بفعل يتضمنه. أو قال بالحلول، أو التناسخ، أو اعتقد أن الله غير حي، أو غير عليم، أو نفى عنه صفة من صفاته، أو قال صنع العالم غيره، أو قال هو متولد عن شيء، أو ادعى مجالسة الله حقيقة، أو العروج إليه [يعني إذا نسب الجسمية والمكان إلى الله تعالى]، أو قال بقدم العالم، أو شك في ذلك كله. أو قال بنبوة أحد بعد سيدنا محمد ﷺ، أو جوز الكذب على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. أو جحد حرفًا فأكثر من القرآن، أو زاده أو غيَّره، أو قال ليس بمعجز. أو قال الثواب والعقاب معنويان، أو قال الأئمة أفضل من الأنبياء»(١).

---

(١) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، القوانين الفقهية. تحقيق: عبد الله المنشاوي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، (ص٢٩٣).

وقد قام الشيخ عبد القاهر البغدادي وأبو المظفر الإسفراييني كلٌ بأسلوبه، بعرض عام مجمل لهذه الفرق، جمع بين الفرق المتشابهة في بعض الحيثيات.

وبالنظر إلى كثرة هذه الفرق وتشعبها سأقتصر في هذا المبحث على الأشهَر منها عبر التركيز على الأفكار الأساسة التي استندَت إليها، وماكان لها من دور مؤثر سياسيًا ودعويًا واجتماعيًا. وهي أربعة أصناف من هذه الفرق: القدرية (المعتزلة)، والمشبهة، والباطنية، والخوارج. بحكم أن كل الفرق لها علاقة بموضوع الأشعرية، من حيث أن الأشعرية تذب عن الفرقة الناجية بالدليل العقلي والحجة الشرعية.

لكن بتفرعات هذه الفرق، سيتم التركيز على تبيان هذه الأربعة التي تمثل النزاع الأغلب بين أهل السنة والجماعة وأهل البدع، كما صنفهم العلماء الذين كتبوا في الفرق. وأن صنفين من هذه الفرق الأربعة هما الباطنية والخوارج، أسسوا دولًا استباحت دماء المسلمين، وأوقعت نزاعات كبيرة وزرعت كيانات مستقلة داخل دولة الخلافة، لعدم اعترافهم بالخليفة الذي تمت له البيعة.

أما القدرية (أو المعتزلة) والمشبهة فكان دورهما يقتصر على التشويش، واستغلال السلطة الحاكمة بسبب القرب منها والالتصاق بها، خصوصا القدرية المعتزلة، وكان لهم سلطة كبيرة. أما المجسمة فقد اعتمدوا على التشويش على العامة ببث معتقداتهم، وفي بعض الأحيان القرب من موقع السلطان للإيقاع بالأشاعرة، كما حصل مع ابن فورك والشيرازي والقشيري وغيرهم.

١- المعتزلة:

ظهرت فرقة المعتزلة كتابع للقدرية القدماء في بعض أفكارهم، وهم الذين حذر منهم رسول الله ﷺ، لنفيهم القدر عن الله تعالى، فمنهم من اعتقد أن العبد يخلق فعله، ومنهم من اعتقد أن الله تعالى لم يخلق الشر، إضافة لأمور أخرى. فشبههم النبي عليه الصلاة والسلام بالمجوس، وقد وردت في السنن أحاديث عديدة، ثابتة عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين، وكلهم اعتبروهم خارجين عن الملة في هذا الاعتقاد. وقد ذكر البيهقي بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم**» الحديث[(١)].

ويروي أبو المظفر الاسفراييني خبر ظهور القدرية القدماء إلى أن تحول اسمهم إلى المعتزلة، فقال: «وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية، وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي وجعد بن درهم. وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة كعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن أبي أوفى وجابر وأنس وأبي هريرة وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم، وكانوا يوصون إلى أخلافهم بأن لا يسلموا عليهم، ولا يعودوهم إن مرضوا ولا يصلوا عليهم إذا ماتوا. ثم ظهر بعدهم في زمان الحسن البصري (ت١١٠هـ/ ٧٢٨م) بالبصرة، خلاف واصل ابن عطاء الغزال في القدر، وفي القول بمنزلة بين

(١) أحمد بن الحسين بن علي البيهقي،السنن الكبرى، ١٠ أجزاء، ط١، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٤٤هـ، (ج١٠، ص٢٠٣).

المنزلتين، ووافقه عمرو بن عبيد فيما أحدثه من البدعة، فطردهم الحسن البصري من مجلسه فاعتزلوه بأتباعهم جانبًا من المسجد، فسموا معتزلة لإعتزالهم مجالس المسلمين، وقولهم بمنزلة بين المنزلتين وزعمهم أن الفاسق الملّي لا مؤمن ولا كافر، وأن الفساق من أهل الملة خرجوا من الإيمان ولم يبلغوا الكفر وأنهم مع الكفار في النار خالدين مخلدين لا يجوز لله تعالى أن يغفر لهم وأنه لو غفر لهم لخرج من الحكمة، ولما أظهروا هذه المقالة هجرهم المسلمون وخذلوهم كما كان قد أوصى إليهم أسلافهم من الصحابة»[١].

وذكر عبد القاهر البغدادي أن المعتزلة يفترقون إلى عشرين فرقة كل فرقة منها تكفر سائرها، ذكر كثيرًا من الأمور التي تجمعها كلها في بدعتها فيقول:

منها نفيها كلها عن الله عز وجل صفاته الازلية وقولها بأنه ليس لله عز وجل علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا صفة أزلية، وزادوا على هذا بقولهم إن الله تعالى لم يكن له في الازل اسم ولا صفة.

ومنها قولهم باستحالة رؤية الله عز وجل بالأبصار، وزعموا أنه لا يرى نفسه ولا يراه غيره، واختلفوا فيه هل هو راءٍ لغيره أم لا، فأجازه قوم منهم وأباه قوم آخرون.

ومنها اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجل، وحدوث أمره ونهيه وخبره، وكلهم يزعمون أن كلام الله عز وجل حادث، وأكثرهم اليوم يسمون كلامه مخلوقًا.

---

(١) أبو المظفر الاسفراييني، م.س.، (صص٢١ - ٢٢).

ومنها قولهم جميعًا بأن الله تعالى غير خالق لأكساب الناس، ولا لشيء من أعمال الحيوانات وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم وأنه ليس لله عز وجل فى أكسابهم ولا فى أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير، ولأجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية.

ومنها قولهم أن كل ما لم يأمر الله تعالى به او نهى عنه من أعمال العباد لم يشأ الله شيئًا منها.

ومنها اتفاقهم على دعواهم فى الفاسق من أمة الاسلام بالمنزلة بين المنزلتين، وهى أنه فاسق لا مؤمن ولا كافر، ولأجل هذا سماهم المسلمون معتزلة لاعتزالهم قول الأمة بأسرها[(١)].

وقد سببت فرقة المعتزلة لأهل السنة والجماعة من الأذى والضرر، ما أدى إلى سجن العلماء وتعذيبهم بل وإلى قتل بعضهم.

٢- المشبهة:

سمّوا مشبهة لأنهم شبَّهوا الله تعالى بمخلوقاته بأن نسبوا إليه عز وجل الجسمية والتحيز في المكان والحركة والانتقال مما يخطر في أوهامهم، فخالفوا عقيدة المسلمين، ويسمون أيضًا مجسمة.

---

(١) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لا ت.، (صص١١٤ - ١١٥). وانظر: أبا المظفر الإسفراييني. م.س.، (صص٦٣ - ٦٥). ومحمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م، (صص٣٨ - ٣٩).

وهم صنفان:

- صنف شبهوا ذات البارى بذات غيره.
- وصنف آخرون شبهوا صفاته بصفات غيره.

وكل صنف من هذين الصنفين مفترقون على أصناف شتى.

فالمشبهة الذين ضلوا فى تشبيه ذاته بغيره أصناف مختلفة وأول ظهور التشبيه صادر عن أصناف من الروافض الغلاة:

* فمنهم السبئية الذين سمّوا عليًا الهًا وشبهوه بذات الاله، ولما أحرق قومًا منهم قالوا له: الآن علمنا أنك إله لأن النار لا يعذب بها الا الله.
* ومنهم البيانية اتباع بيان بن سمعان الذي زعم أن معبوده إنسان من نور على صورة الإنسان في أعضائه وأنه يفنى كله إلا وجهه.
* ومنهم المغيرية أتباع المغيرة بن سعيد العجلي الذى زعم أن معبوده ذو أعضاء وأن أعضاءه على صور حروف الهجاء.
* ومنهم المنصورية أتباع أبى منصور العجلي الذي شبه نفسه بربه، وزعم أنه صعد إلى السماء، وزعم أيضًا أن الله مسح يده على رأسه وقال له يا نبي بلغ عني.
* ومنهم الخطابية الذين قالوا بإلهية الأئمة وبإلهية أبى الخطاب الأسدي.
* ومنهم الذين قالوا بإلهية عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر.

* ومنهم الحلولية الذين قالوا بحلول الله في أشخاص الأئمة وعبدوا الأئمة لأجل ذلك. ومنهم الحلولية الحلمانية المنسوبة إلى أبي حلمان الدمشقى الذي زعم أن الإله يحل في كل صورة حسنة، وكان يسجد لكل صورة حسنة.

* ومنهم المقنعية المبيضة بما وراء نهر جيحون فى دعواهم أن المقنع كان إلهًا وأنه مصوَّر فى كل زمان بصورة مخصوصة.

* ومنهم العذافرة الذين قالوا بإلهية ابن أبى العذافر المقتول ببغداد.

وهذه الأصناف الذين ذكرناهم فى هذا الفصل كلهم خارجون عن دين الإسلام وإن انتسبوا فى الظاهر إليه(١). فهؤلاء كلهم مشبهة ذاته بالذوات.

فأما المشبهة لصفاته بصفات المخلوقين فأصناف:

* منهم الذين شبهوا إرادة الله تعالى بإرادة خلقه، وهذا قول المعتزلة البصرية الذين زعموا أن الله تعالى يريد مراده بإرادة حادثة، وزعموا أن إرادته من جنس إرادتنا، ثم ناقضوا هذه الدعوى بأن قالوا يجوز حدوث إرادة الله عز وجل لا فى محل، ولا يصح حدوث إرادتنا الا فى محل وهذا ينقض قولهم إن إرادته من جنس إرادتنا، لأن الشيئين إذا كانا متماثلين ومن جنس واحد جاز على كل واحد

---

(١) عبد القاهر، م.س.، (صص٢٢٥ - ٢٢٧). وانظر: أبو المظفر الإسفراييني، م.س.، (صص١١٩ - ١٢١). والفخر الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، (صص٦٣ - ٦٤).

منهما ما يجوز على الآخر، واستحال فى كل واحد منهما ما يستحيل على الآخر.

* وزادت الكرامية على المعتزلة البصرية فى تشبيه إرادة الله تعالى بإرادات عباده، وزعموا أن إرادته من جنس إرادتنا وأنها حادثة فيه كما تحدث إرادتنا فينا، وزعموا لأجل ذلك أن الله تعالى محل للحوادث، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

* ومنهم الذين شبهوا كلام الله عز وجل بكلام خلقه، فزعموا أن كلام الله تعالى أصوات وحروف من جنس الأصوات والحروف المنسوبة إلى العباد وقالوا بحدوث كلامه.

* وشاركت الكرامية المعتزلة فى دعواها حدوث قول الله عز وجل، مع فرقها بين القول والكلام فى دعواها أن قول الله سبحانه من جنس أصوات العباد وحروفهم، وأن كلامه قدرته على إحداث القول. وزادت على المعتزلة قولها بحدوث قول الله عز وجل فى ذاته، بناء على أصلهم فى جواز كون الإله محلًا للحوادث.

* ومنهم الذين قالوا من الروافض بأن الله تعالى لا يعلم الشيء حتى يكون، فاوجبوا حدوث علمه كما يجب حدوث علم العالِم منا[1].

وأكبر فرق المشبهة الكرامية، فهي ثلاث فرق، لا يكفّر بعضها بعضًا وإنْ أَكْفَرَها سائر الفرق، فلهذا عددناها فرقة

(١) عبد القاهر البغدادي، م.س.، (صص٢٢٨ - ٢٣٠).

واحدة، وزعيمها المعروف محمد بن كرّام كان مطرودًا من سجستان الى غرجستان. وضلالات أتباعه اليوم متنوعة أنواعًا كثيرة[١].

وقد انتقل تأثير المشبهة المجسمة من عصر إلى عصر، يعملون جاهدين للتأثير على عقيدة العوام، ووجَدَت حضنًا دافئًا عند بعض الحنابلة، الذين لوثوا المذهب الحنبلي كما قال أحد أساطينهم «ابن عقيل» إنهم دنسوا المذهب ولا يكفي مياه دجلة لتطهيره، وما تركوا فرصة لإيذاء أهل السنة إلا فعلوها[٢].

وتجدر الإشارة إلى أن نمو فرقة المشبهة استمر بتسميات مختلفة، حتى وصل إلى رأس من رؤوس التنظير عندهم وهو «أحمد بن تيمية الحراني» (٦٦١هـ/ ١٢٦٣م - ٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) فجمع مقالاتهم البدعية وبثها بين العوام. وقد نقل ابن حجر الهيتمي المسائل التي خالف فيها ابن تيمية إجماع المسلمين ما نصه: «[يقول ابن تيمية] إن ربنا محل الحوادث تعالى الله عن ذلك وتقدس، وأنه مركّب تفتقر ذاته افتقار الكل إلى الجزء تعالى الله عن ذلك وتقدس، وأن القرآن مُحْدَث في ذات الله تعالى الله عن ذلك وتقدس، وأن العالم قديم بالنوع.. وقوله بالجسمية والجهة والانتقال، وانه بقدر العرش لا أصغر ولا

---

(١) نفسه، (صص٢١٥ - ٢٢٥).

(٢) انظر: عبد الرحمٰن بن الجوزي، دفع شبهة التشبيه. تحقيق وتعليق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١٠م، (ص٦). قال: «ورأيت من أصحابنا [أي الحنابلة] من تكلم في الأصول [يعني أصول الاعتقاد] بما لا يصلح.. فصنفوا كتبا شانوا بها المذهب.. فحملوا الصفات على مقتضى الحس».

أكبر، تعالى الله عن هذا الافتراء الشنيع القبيح والكفر البراح الصريح وخذل متبعيه وشتت شمل معتقديه»(١). وقد استتيب مرات وهو ينقض مواثيقه وعهوده في كل مرة، حتى حُبس بفتوى من القضاة الأربعة، الذين أحدهم شافعي والآخر مالكي والآخر حنفي والآخر حنبلي، وحكموا عليه بأنه ضال يجب التحذير منه(٢). ويقول معاصره تقي الدين السبكي (٦٨٣هـ - ١٢٨٥م/ ٧٥٦هـ - ١٣٥٥م): «وهذا الرجل كنت رددت عليه في حياته في إنكاره السفر لزيارة المصطفى ﷺ، وفي إنكاره وقوع الطلاق إذا حلف به. ثم ظهر لي من حاله ما يقتضي أنه ليس ممن يعتمد عليه في نقل ينفرد به لمسارعته إلى النقل لفهمه، كما في هذه المسألة ولا في بحث ينشئه لخلطه المقصود بغيره، وخروجه عن الحد جدا، وهو كان مكثرًا من الحفظ، ولم يتهذب بشيخ، ولم يَرْتَضْ في العلوم، بل يأخذها بذهنه مع جسارته واتساع خيال وشغب كثير، ثم بلغني من حاله ما يقتضي الاعتراض عن النظر في كلامه جملة. وكان الناس في حياته ابتلوا بالكلام معه للرد عليه، وحُبس بإجماع المسلمين وولاة الأمور على ذلك ثم مات. [ويتابع التقي السبكي] ولم يكن لنا غرض في ذكره بعد موته، لأن تلك أمة قد خلت، ولكن له أتباع ينعقون ولا يعون، ونحن نتبرم بالكلام معهم ومع أمثالهم، ولكن للناس ضرورات إلى

---

(١) أحمد ابن حجر الهيتمي، الفتاوى الحديثية، ط٢، دار المعرفة، بيروت، لا ت.، (ص١١٦).

(٢) عبد الله الهرري، المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية، ط١١، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م، (ص٢٣).

الجواب في بعض المسائل كهذه المسألة، فإن بعض الحنابلة تبعوه فيما قاله»[١].

وهكذا، استمرت تعاليم ابن تيمية وفتنته، إلى أن جددها في القرن الثامن عشر الميلادي «محمد بن عبد الوهاب» (١١١٥هـ/ ١٧٠٣م - ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م) الذي تنتسب إليه مجسمة العصر، بل وكان مدرسة أحيت الانحراف القديم وأرسى منهج التطرف والغلو، الذي عاث فسادًا في كثير من الدول، وشوهوا سمعة الإسلام والمسلمين في كل الأقطار، ووصموا أنفسهم بصفة «السلفية» إمعانًا في التحريف وهروبًا من تسميتهم «بالوهابية».

٣- الباطنية:

الباطنية إحدى فرق الروافض التي تنقسم نحو عشرين فرقة كما أخبر العلماء الذين صنفوا في الفرق التي انتسبت للإسلام، وعدا عن بعض الفرق (الإمامية) التي كان لها دور في الاستئثار بالسلطة السياسية في بغداد نفسها، وامتدت إلى بلاد فارس وخراسان (بني بويه)، يهمنا أن نسلط الضوء على نوعين آخرين من الفرق، وهي التي عُرفت بوصفها «غلاة الروافض»، فمجموعة منها كانت معروفة بأنها سبقت غيرها في تشبيه الله بخلقه. ومجموعة عُرفت «بالباطنية» واندس فيها أصحاب بدع أرادت وخططت وقصدت تخريب الدين، وكان لها دور سياسي أيضًا في السيطرة على رقاع واسعة من أرض الخلافة، مثل «القرامطة» و«الإسماعيلين أو العبيديين أو كما أطلق عليهم

(١) علي بن عبد الكافي السبكي المعروف بتقي الدين، فتاوى السبكي، جزءان، دار المعرفة، بيروت، لا ت.، (ج٢، ص٢١٠).

البعض اسم الفاطميين». وسنذكر كل مجموعة بما يتعلق بها في الأحوال السياسية التي طرأت على الأمة بسبب تحركاتها.

أما غلاتهم فقد زعموا أن الله تبارك اسمه قد حل في علي رضي الله عنه، وبعضهم اعتقد أن جبريل غلط فأنزل الوحي بالنبوة على محمد ﷺ بدلا من علي وغير ذلك من أمور[١].

ومن غلاة الروافض السبئية، الذين قالوا بإلهية علي كرم الله وجهه، حتى أحرق قومًا منهم، فازدادوا بعده عتوًا في ضلالتهم، وقالوا: الآن علمنا على الحقيقة أنه الإله[٢].

وقد ظهرت دعوة الباطنية في ايام المأمون، من حمدان قرمط ومن عبد الله بن ميمون القداح، وليست الباطنية من فرق ملة الإسلام، بل هي من فرق المجوس[٣].

وقد أسس دعوة الباطنية جماعة منهم ميمون بن ديصان المعروف بالقداح. ثم ظهر فى دعوته رجل يقال له حمدان قِرْمِط واليه تنسب القرامطة. ثم ظهر بعده فى الدعوة الى البدعة أبو سعيد الجنَّابي الذي تغلب على ناحية البحرين. ثم لما تمادت الايام بهم ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين بن حمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان القداح فغير اسم نفسه ونسبه وقال لأتباعه أنا عبيد الله بن الحسن بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ثم ظهرت فتنته بالمغرب وأولاده

(١) الفخر الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، (صص٥٢ - ٦٣).
(٢) أبو المظفر الاسفراييني، م.س.، (ص١١٩).
(٣) نفسه، (ص٢٢).

اليوم مستولون على أعمال مصر(١).

ثم إن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، ولم يجسروا على إظهاره خوفًا من سيوف المسلمين. فوضع الأغمار منهم أسسًا مَنْ قَبِلها منهم صار فى الباطن الى تفضيل أديان المجوس، وتأوّلوا آيات القرآن وسنن النبى عليه السلام على موافقة أسسهم، وعلى وجوه تؤدي الى رفع الشريعة أو الى مثل أحكام المجوس، والذى يدل على أن هذا مرادهم بتأويل الشريعة أنهم قد أباحوا لأتباعهم نكاح البنات والأخوات، وأباحوا شرب الخمر وجميع اللذات. ويؤكد ذلك أن الغلام الذى ظهر منهم بالبحرين والأحساء بعد سليمان بن الحسن القِرْمِطِى سنّ لأتباعه اللواط، وأوجب قتل الغلام الذى يمتنع على من يريد الفجور به، وأمر بقطع يد من أطفأ نارًا بيده وبقطع لسان من أطفأها بنفخِهِ، وهذا الغلام هو المعروف بابن أبى زكريا الطامى، وكان ظهوره فى سنة تسعَ عشرةَ وثلاثمائة هجرية (٩٣١م)(٢).

وبالجملة فإن دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها، لميلها الى استباحة كل ما يميل اليه الطبع(٣).

---

(١) نفسه، (صص٢٨٢ - ٢٨٣). وقد ساق أبو منصور البغدادي الأدلة لبحث دين الباطنية في صحائف عدة من كتابه الفرق بين الفرق، يمكن الرجوع إليها.

(٢) عبد القاهر البغدادي، م.س.، (صص٢٨٤ - ٢٨٦).

(٣) البغدادي، م. س.، (ص٢٩٤). وانظر: الفخر الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، (صص٧٦ - ٧٧).

٤- الخوارج:

وهي أول فرقة مخالفة لأهل السنة والجماعة، ظهرت في فترة خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه من بعض أفراد جيشه الذين كانوا معه في صفين، عند وقوع الفتنة بسبب خروج معاوية ابن أبي سفيان عليه، ثم معاوية طلب التحاكم إلى القرآن بإشارة من عمرو بن العاص. فخرجوا على عليّ بن أبي طالب لقبوله بالتحكيم وكفّروه، قالوا «إنِ الحُكمُ إلّا لله»، فقال عليّ: «كلمةُ حَقّ أُرِيْدَ بها باطِل»[١]. وعسكروا في حروراء فسموا بالحرورية، فبعث إليهم سيدنا علي عبدَ الله بن عباس وغيره فخاصمهم وحاجهم فرجع منهم قوم كثير وثبت قوم على رأيهم.

ثم خرجوا إلى النهروان وأمّروا عليهم رجلين منهم. أحدهما: عبد الله بن وهب الراسي، والثاني حرقوص بن زهير البجلي وكان يلقب بذي الثدية. فقصدهم علي رضي الله عنه في أربعة آلاف رجل، فوقف عليهم بنفسه وجادلهم فقطعهم بالحجج الدامغة، فلما سمعت الخوارج هذه الحجج القاطعة استأمن ثمانية آلاف منهم، وثبت على قتاله أربعة آلاف منهم. فقال إلى الذين استأمنوا إليه منهم: امتازوا اليوم مني جانبًا، وقاتل بمن كان معه وقال لأصحابه لما أراد أن يبتدئ القتال: لا يُقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة واشتغلوا بالقتال فلم يقتل يومئذ من أصحاب علي أكثر من تسعة أنفس، ثم حمل عليهم والتحم القتال حتى لم يبق من جملة الخوارج إلا تسعة. فوقع اثنان منهم إلى سجستان واثنان إلى اليمن واثنان إلى

---

(١) ابن كثير، م.س.، (ج٧، ص٣٢٣).

عمان واثنان إلى الجزيرة وواحد إلى ناحية الابار[(١)]، وخوارج هذه النواحي من أتباع هذه التسعة.

وأمر علي رضي الله عنه أصحابه بطلب ذي الثدية فوجدوه قد هرب واستخفى في موضع، فظفروا به وتفحصوا عنه فوجدوا له ثديًا كثدي النساء، فقال علي رضي الله عنه صدق الله وصدق رسوله وأمر بقتله فقتل، وقد كان مر على النبي ذو الثدية وهو يقسم غنائم بدر، فقال للنبي ﷺ: اعدل يا محمد فقال له عليه الصلاة والسلام: خِبتَ وخسرتَ إذن من يعدل. ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» الحديث[(٢)].

---

(١) في نسخة أخرى: «الأنبار «في الطبعة الأولى لدار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (ص٢١٩).

(٢) أبو المظفر الاسفراييني، مصدر سابق. (صص٤٦ - ٤٩). ونص الحديث في صحيح مسلم بسنده إلى أبي سعيد الخدري قال: «بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما، أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، قال رسول الله ﷺ: ويلك من يعدل إن لم أعدل قد خبتَ وخسرتَ إن لم أعدل؛ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول ائذن لي فيه أضرب عنقه، قال رسول الله ﷺ: دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية يُنظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى نضيه فلا يوجد فيه شيء (وهو القدح) ثم يُنظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، يخرجون على حين فرقة من الناس. قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم وأنا معه،=

والخوارج عشرون فرقة، وكلهم متفقون على أمرين لا مزيد عليهما في الكفر والبدعة:

- **أحدهما**: أنهم يزعمون أن عليًا وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين وكل من رضي بالحَكَمين كفروا كلهم.
- **والثاني**: أنهم يزعمون أن كل من أذنب ذنبًا من أمة محمد ﷺ فهو كافر، ويكون في النار خالدًا مخلدًا، ومما يجمع جميعهم أيضًا تجويزهم الخروج على الإمام الجائر[(١)].

ويوجد في عصرنا الراهن من أخذ بتعاليمهم في تكفير الحكام الذين يحكمون بالقانون الوضعي، ولو بحكم واحد فيه مخالفة للشرع لكنه لا يستوجب التكفير. يقول سيد قطب (ت١٩٦٦م) منظّر الحزب المسمّى حزب الإخوان المسلمين من المعاصرين: «لقد ارتدت البشرية بجملتها بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات لا إله إلا الله»[(٢)]. وهذا يشابه ما قالت به فرقة من الخوارج اسمها

= فأمر بذلك الرجل فالتُمِس فوُجِد فأُتِي به حتى نظرتُ إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعت». انظر: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح الإمام مسلم. ٨ أجزاء، ط١، دار المنهاج جدة، ودار طوق النجاة بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٣م، رقم الحديث: (٢٥٠٠)، (ج٣، صص١١٢ ١١٣). وانظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١٣ جزءا، دار المعرفة، بيروت، لا ت.، (ج١٢، صص٢٩٧ - ٢٩٩).

(١) الاسفراييني، م.س.، (ص٤٥). وانظر: عبد القاهر البغدادي، م.س.، (صص٧٢ - ٧٣). والفخر الرازي، اعتقادات فرق المسلمين، (ص٤٦).

(٢) سيد قطب، كتاب مسمى في ظلال القرآن، ط١، ٦ مجلدات، دار الشروق، القاهرة، ١٩٧٢م، م٢، (ج٧، ص١٠٥٧).

البيهسية الذين قالوا: «متى ما كفر الإمام كفر رعيته أيضا»[١]. ولذلك لم يكن غريبا أن يظهر تطرفهم وإرهابهم في البلاد، فروّعوا الآمنين واستباحوا دماءهم عملًا بهذه الأحكام التي ليست من الدين بشيء.

---

(١) أبو المظفر الإسفراييني، م.س.، (ص٦٠).

المبحث الرابع:

في علم الكلام

هذه الأفكار والتوجهات المخالفة للدين الإسلامي التي ظهرت وانتشرت في كثير من الأماكن لتشوش عقائد الناس، لم تُترك دون أن ينبري لها علماء الإسلام بالحجج والمناظرات، وبالأدلة والبراهين فسمي هذا الحجاج علم الكلام، وقد بدأ ظهوره في عصر السلف وكان بين مؤيد ومعارض.

وقام بهذه المحاججات ابتداءً، أقوام من أهل البدع المخالفة للترويج لعقائدهم من المعتزلة والرافضة والخوارج والمشبهة، فوُصِف للوهلة الأولى بصفة الذم من علماء الفقه والحديث. وقد بيَّن البيهقي أن النهيَ عن الخوض في مسائل الكلام، فإنما هو لأن السلف رأوا أنه لا يُحتاج إليه لتبيين صحة الدين في أصله، إذ كان رسول الله ﷺ إنما بُعث مؤيَّدًا بالحجج، فكانت مشاهدتها للذين شاهدوها، وبلاغها المستفيض لمن بلغه كافيًا في إثبات التوحيد والنبوة معا عن غيرها، ولم يَأمَنوا إن توسع الناس في علم الكلام، أن يكون فيهم من لا يكمُلُ عقلُه، ويضعف رأيه فيرتبك في بعض ضلالة الضالين، وشُبَه الملحدين، ولا يستطيع منها مخرجًا كالرجل الضعيف غير الماهر بالسباحة إذا وقع في ماء غامر قوي، لم يأمن أن يغرق فيه، ولا يقدر على التخلص منه. ولم ينهوا عن علم الكلام لأن عينه مذموم، أو غير مفيد، وكيف يكون العلم الذي يتوصل به إلى معرفة الله عز وجل، وعلم صفاته، ومعرفة

رسله، والفرق بين النبي الصادق، وبين المتنبئ الكاذب عليه مذمومًا أو مرغوبًا عنه؟ ولكنهم لإشفاقهم على الضعفاء أن لا يبلغوا ما يريدون منه فيضلوا، نَهَوْا عن الاشتغال به. والسلف من أهل السنة والجماعة، كانوا يكتفون بمعجزات الرسول صلوات الله عليه على الوجه الذي بيّنّا، وإنما يشتغلُ في زمانهم بعلم الكلام أهلُ الأهواء، فكانوا ينهون عن الاشتغال بكلام أهل الأهواء، ثم إن أهل الأهواء كانوا يدّعون على أهل السنة أن مذاهبهم في الأصول تخالف المعقول، فقيض الله تعالى جماعة منهم للاشتغال بالنظر، والاستدلال حتى تبحروا فيه، وبينوا بالدلائل النيرة، والحجج الباهرة أن مذاهب أهل السنة توافق المعقول، كما هي موافقة لظاهر الكتاب والسنة(١).

ومما يُروى عن الشافعي أنه قال: «لأن يُبتلى المرء بكل ما نَهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير له من أن يُبتلى بالكلام». فالشافعي رحمه الله إنما عنى بمقاله كلام حفص الفرد القدري وأمثاله(٢).

ويذكر ابن عساكر أن مراد الشافعي رحمه الله بهذا كلام حفصٍ وأمثاله من أهل البدع، وهذا مراده بكل ما حُكِيَ عنه في ذمّ الكلام وذم أهله، غير أن بعض الرواة أطلقه، وبعضهم قيده، وفي تقييد من قيده دليل على مراده. وينقل ابن عساكر عن البيهقي قوله: «دخل حفص الفرد على الشافعي فقال [أي

---

(١) أبو بكر البيهقي، شعب الإيمان. م.س.، (صص١٨١ - ١٨٢).

(٢) أبو بكر البيهقي، مناقب الشافعي، جزءان، ط١، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، (ج١، ص٣٣٧).

الشافعي]: لأن يلقى اللهَ العبدُ بذنوبٍ مثل جبال تهامة خير له من أن يلقاه بإعتقادِ حرفٍ مما عليه هذا الرجل وأصحابه. ثم يقول ابن عساكر: وكان يقول بخلق القرآن. فهذه الروايات تدل على مراده [أي الشافعي] بما أُطلق عنه فيما تقدم وفيما لم يذكر ههنا، وكيف يكون كلام أهل السنة والجماعة مذمومًا عنده وقد تكلم فيه وناظر من ناظره»(١). وحفص الفرد كان على عقيدة الاعتزال، وكانوا يسمونه حفصًا المنفرد أي الشاذ.

ويؤكد ابن عساكر أن الإمام الشافعي رحمه الله كان يُتقن علم الكلام الذي كان يستعمله ويمارسه للدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة، فلذلك سُمي علم الكلام أيضًا علم التوحيد، الذي يدل على معرفة الله تعالى على ما يليق بتنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، وعلى معرفة رسوله على ما يجب له من صفات الكمال البشري ﷺ. يقول ابن عساكر: «وقرأت في كتاب أبي نعيم الأصبهاني، أن الشافعي كلم يومًا بعض الفقهاء، فدقق عليه وحقق وطالب وضيق، [فقيل] له: يا أبا عبد الله هذا لأهل الكلام لا لأهل الحلال والحرام، فقال: أحكمنا ذلك قبل هذا»(٢). ويعني هذا أنه أتقن علم التوحيد أي بعبارة أخرى علم الكلام أولًا قبل اتقان العلوم الفقهية.

١- موضوع علم الكلام:

وموضوع علم الكلام هو النظر، أي الاستدلال بخلق الله

(١) علي بن الحسن بن عساكر، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري. ط١، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤٤٠م - ٢٠١٨م، (ص٦١٢). وانظر: البيهقي. مناقب الشافعي، (ج١، ص٤٥٤).
(٢) نفسه، (ص٦١٣).

تعالى لإثبات وجوده وصفاته الكمالية وبالنصوص الشرعية المستخرَج منها البراهين، وهو على قانون الإسلام لا على أصول الفلاسفة، لأن الفلاسفة لهم كلام في ذلك يعرف عندهم بالإلهيات(١).

ويبين الفخر الرازي أن علم الكلام أشرف العلوم وجعل ذلك عنوانا لبداية الفصل الأول من كتابه «الإشارة في علم الكلام» فيقول: «والذي يدل عليه وجوه عدة أولها: هو أن شرف العلم بشرف المعلوم، فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف، ومعلوم علم الكلام هو ذات الباري وصفاته وما يجب له ويستحيل عليه»(٢).

وبهذا التعريف يكون الفخر الرازي قد جعل علم الكلام هو نفسه علم التوحيد أو علم أصول الدين، وذكر المحدث الهرري: «وليعلم بأن العلم بالله تعالى وصفاته أجل العلوم وأعلاها وأوجبها وأولاها، ويسمى علم الأصول وعلم التوحيد وعلم العقيدة»(٣).

ويؤكد على تسميته بعلم الكلام أيضًا بقوله: «ويسمى هذا العلم أيضًا مع أدلته العقلية والنقلية من الكتاب والسنة علم الكلام، والسبب في تسميته بهذا الاسم، كثرة المخالفين فيه

---

(١) عبد الله الهرري، الدليل القويم على الصراط المستقيم. ط٣، شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م. (ص١٦).
(٢) محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين، الإشارة في علم الكلام. ط١، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٩، (صص٢٩ - ٣٠).
(٣) عبد الله الهرري، م.س.، (ص١٥).

من المنتسبين إلى الإسلام، وطول الكلام فيه من أهل السنة لتقرير الحق، وقيل لأن أشهر الخلافات في مسألة كلام الله تعالى أنه قديم (وهو الحق) أو حادث (وهو الباطل))»[١].

ويورد محمد عمر كامل: «لقد نشأ علم الكلام بعد أن دخلت مذاهب غريبة على الديار التي فتحها المسلمون، وكان فيها من أهل الديانات القديمة كاليهود والنصارى والمجوس، وكانت في رؤوسهم أفكارهم الدينية التي استولت على مشاعرهم، فأثاروا بين المسلمين ما يثار في دياناتهم من مشاكل في الجبر والاختيار وصفات الله والقدر وغيرها من المسائل. فقيض الله الإمام أبا الحسن الأشعري، لتدعيم العقيدة الإسلامية الصافية الثابتة بالكتاب والسنة بأسلوبهم فهدَّ الاعتزال انتصارًا لأهل السنة ولم يخالف المنقول»[٢].

١- (١) بعض السلف اشتغل بعلم الكلام:

ومن السلف من اشتغل بعلم الكلام، وقد بينتُ آنفًا ما ذكره ابن عساكر عن الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ/ ٨٢٠م) فقال في مكان آخر: «فإن قالوا إن الاشتغال بعلم الكلام بدعة ومخالفة لطريقة السلف، قيل لا يختص بهذا السؤال الأشعري دون غيره من متكلمي أهل القبلة، ثم الاسترواح إلى مثل هذا الكلام صفة الحشوية الذين لا تحصيل لهم. وكيف يظن بسلف الأمة أنهم لم يسلكوا سبيل النظر وأنهم اتصفوا بالتقليد حاش لله أن

(١) نفسه، (ص١٦).

(٢) محمد عمر كامل، كفى تفريقا للأمة باسم السلفية. مناقشة علمية لكتاب الدكتور سفر الحوالي «نقد منهج الأشاعرة في العقيدة». ط١، دار المصطفى للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، (صص١٥ ١٦).

يكون ذلك وصفهم، ولقد كان السلف من الصحابة مستقلين بما عرفوا من الحق، وسمعوا من الرسول صلوات الله عليه من أوصاف المعبود، وتأملوه من الأدلة المنصوبة في القرآن وأخبار الرسول عليه السلام في مسائل التوحيد، وكذلك التابعون وأتباع التابعين لقرب عهدهم من الرسول عليه السلام. فلما ظهر أهل الأهواء وكثر أهل البدع من الخوارج والجهمية والمعتزلة والقدرية وأوردوا الشبه، انتدب أئمة أهل السنة لمخالفتهم، والإيصاء للمسلمين بمباينة طريقتهم، فلما أشفقوا على القلوب أن يخامرها شبههم، شرعوا في الرد عليهم وكشف شبههم وأجابوهم عن أسئلتهم، وحاموا عن دين الله بايضاح الحجج، ولما قال الله تعالى ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[1] تأدبوا بآدابه سبحانه، ولم يقولوا في مسائل التوحيد إلا بما نبههم الله سبحانه عليه في محكم التنزيل»[2].

وقد صنف أبو الحسن الأشعري رحمه الله، كتابه الذي سماه «استحسان الخوض في علم الكلام»، احتج فيه على من عاب علم الكلام في محاججة أهل البدع، بنصب الأدلة النقلية من القرآن الكريم والأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه، فبعد أن بيَّن جملةَ ما احتجوا بهِ فى تركِ النظرِ فى الأصولِ قال رضي الله عنه: «الجوابُ عنهُ من ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُها: قلبُ السؤالِ عليهم، بأن يقالَ: النبيُّ ﷺ لم يَقُلْ إنهُ مَنْ بحثَ عن ذلكَ وتكلمَ فيهِ فاجعلوهُ مبتدعًا ضالًّا، فقد

---

(١) سورة النحل، آية (١٢٥).

(٢) ابن عساكر، م.س.، (صص٦٣١ - ٦٣٢).

لزمكم أن تكونوا مبتدعةً ضلالًا إذ قد تكلمتم فِى شَىْءٍ لم يتكلمْ فيه النبىُّ ﷺ وضلَّلْتُمْ مَنْ لم يُضَلِّلْهُ النبىُّ ﷺ.

والجوابُ الثانِى: أن يقال لَهُمْ: إنَّ النَّبِىَّ ﷺ لم يجهل شيئًا مِمَّا ذكرتموه مِنْ الكلام فِى الجسم والعرض والحركة والسكون والجُزْءِ والطفرة، وإن لم يتكلمْ فِى كلِّ واحد من ذلك مُعَيَّنًا، وكذلك الفقهاءُ والعلماءُ مِن الصحابةِ؛ غيرَ أنَّ هذهِ الأشياءَ التِى ذكرتموها مُعَيَّنَةً أصولُهَا موجودةٌ فِى القرآنِ والسُّنَّةِ جملةً غيرَ مفصَّلةٍ.

والجوابُ الثالثُ: أنَّ هذه المسائلَ التِى سألوا عنها، قد عَلِمها رسول الله ﷺ ولم يجهل منها شيئًا مفصَّلًا، غير أنها لم تحدث فى أيامه مُعَيَّنَةً فيتكلمَ فيها أو لا يتكلمَ فيها، وإنْ كانتْ أُصُولُهَا موجودةً فِى القرءانِ والسُّنَّةِ، وما حَدَثَ مِنْ شَىْءٍ فيما لهُ تَعَلُّقٌ بالدِّينِ من جهةِ الشّريعةِ فقد تَكَلَّمُوا فيهِ وبحثوا عنهُ وناظروا فيهِ وجادلوا وحاجُّوا كمسائلِ العَولِ والجَدَّاتِ من الفرائضِ وغيرِ ذلكَ منَ الأحكامِ»[١].

ويصف ابن عساكر الجاحدين لعلم الكلام، بعبارات توافق ما قاله الأشعري في رسالة الاستحسان فقال: «وفي الجملة: لا يجحد علم الكلام إلا أحد رجلين:

- جاهل ركن إلى التقليد، وشق عليه سلوك طرق أهل

---

(١) سمير القاضي، إيضاح المرام من رسالة الأشعري الإمام شرح لرسالة استحسان الخوض في علم الكلام للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. ط١، شركة دار المشاريع، بيروت لبنان، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م، (صص٦٥ و٧٢).

التحصيل، وخلا عن طرق أهل النظر، والناس أعداء ما جهلوا، فلما انتهى عن التحقق بهذا العلم نهى الناس لِيُضِلَّ كما ضَلَّ.

- أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة، فينطوي على بدع خفية، يُلبِّس على الناس عوار مذهبه، ويعمّي عليهم فضائح عقيدته، ويعلم أن أهل التحصيل من أهل النظر يهتكون الستر عن بدعهم، ويظهرون للناس قبح مقالاتهم»[١].

١- (٢) المتكلمون من السلف:

فضلا عن الإمام الشافعي، كان الإمام أبو حنيفة من أوائل المتكلمين من السلف. يقول البياضي: «في التبصرة البغدادية: إن أول متكلمي أهل السنة من الفقهاء أبو حنيفة، ألف فيه الفقه الأكبر، والرسالة في نصرة أهل السنة. وقد ناظر فرق الخوارج والرافضة والقدرية والدهرية وكان دعاتهم بالبصرة، فسافر إليها نيفًا وعشرين مرة، وقصمهم بالأدلة الباهرة. وبلغ في الكلام إلى أن كان المشار إليه بين الأنام.. وعن الإمام الصيمري أن الإمام [أبا حنيفة] كان متكلم هذه الأمة في زمانه، وفقيههم في الحلال والحرام. أخذ العلم عن سبعة من الصحابة وثلاثة وتسعين من التابعين»[٢].

---

(١) ابن عساكر، م.س.، (صص٦٣٢ - ٦٣٣).

(٢) أحمد بن الحسين البياضي، إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان في أصول الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، (ص٩). وانظر: محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ١٠ أجزاء، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، (ج٢، ص١٤).

فلا يخفى أن أبا حنيفة الذي كان من أهل السلف على رأس المائة الأولى (٨٠هـ - ٧٠٠م/ ١٥٠هـ - ٧٦٨م) قال في استعمال الكلام لرد المبطلين: «قد ابتُلينا بمن يطعن علينا ويستحل الدماء منا، فلا يسعنا أن لا نعلم من المخطئ منا والمصيب، وأن لا نذب عن أنفسنا وحرمنا، فمثل أصحاب النبي ﷺ كقوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يتكلفون السلاح، ونحن قد ابتلينا بمن يطعن علينا ويستحل الدماء منا»[١].

وفي شرحه لعبارة الإمام أبي حنيفة «فلا يتكلفون السلاح»، يقول البياضي: «(فلا يتكلفون) ولا يظهرون الكلفة والمشقة في تعاطيهم، (السلاح) لدفع من لم يقاتلهم، فقد أشار إلى وجه عدم دخولهم في المحاجة بالتوغل والمشقة بعدم الاحتياج، حيث لم يستمر في زمنهم البدع والأهواء، ولم يقدر أصحابها على التمادي في الاستطالة واستحلال الدماء، وإلى منع تركهم البحث فيها أصلا، بل تركوا التوغل والتكلف. فإنه لما ظهر في أواسط عصرهم أوائل أهل الأهواء، كالخوارج مثلًا كشف فقهاء الصحابة عن شبههم بالحجج الساطعة، وبيَّنوا العقائد الحقة بالبراهين القاطعة»[٢].

وقام بشرح كتاب «العالم والمتعلم» أيضًا ابو بكر بن فورك (ت٤٠٦هـ/ ١٠١٦م) وهو تلميذ أبي الحسن الباهلي الذي كان تلميذ أبي الحسن الأشعري، فقال بلزوم النظر والاستدلال

---

(١) النعمان بن ثابت المعروف بأبي حنيفة، العالم والمتعلم. مطبعة الأنوار مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٦٨هـ، (ص٩).

(٢) البياضي، م.س.، (صص١٨ - ٢٠).

لصحة الاعتقاد ومواجهة أهل البدع بالدليل والحجة إلى أن خلص إلى القول: «فإنه إذا لم يميز بين الحق والباطل، لم يأمن الهلاك في الذهاب إلى الباطل واعتقاده وقبوله، وإذا بحث ونظر وكشف وتبين له طريق الهدى، فتمسك به واتضح له وجه الردى فاجتنبه. وهكذا ذكر العالم في جوابه فقال: أراك قد أبصرت بعض عيوبهم والحجة عليهم، فصدَّقَه ونصحَه وأرشدَه وأمدَّه بالثبات على ما هو عليه، من الإقامة على البحث والتميز، وكراهة الرضى بالجهل والتقليد»[١].

ويذكر ابن عساكر في «التبيين»: وقد بلغني عن حاتم بن عنوان الأصم، وكان من أفاضل الزهاد وأهل العلم أنه قال: «الكلام أصل الدين، والفقه فرعه، والعمل ثمره. فمن اكتفى بالكلام دون الفقه والعمل تزندق، ومن اكتفى بالعمل دون الكلام والفقه ابتدع، ومن اكتفى بالفقه دون الكلام والعمل تفسق، ومن تفنن في الأبواب كلها تخلص»[٢].

وعُلم أن عددًا من أهل السلف تكلم وأقام الحجة على المخالفين كما حصل مع علي رضي الله عنه في حجاجه مع الخوارج، وقد روى الحافظ أبو نعيم أن عليًا رضي الله عنه حاجج اليهود المشبهة، عندما جاؤا إلى بيت الإمارة بالكوفة، فقال لهم: «معشر اليهود اسمعوا مني ولا تبالوا أن لا تسألوا أحدًا غيري، إن ربي عز وجل هو الأول لم يبدُ ممّا، ولا

(١) محمد بن الحسن المشهور بأبي بكر بن فورك، شرح العالم والمتعلم (لأبي حنيفة النعمان بن ثابت). ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م، (صص٨٤ - ٨٥).

(٢) ابن عساكر، م.س.، (ص٦٠٣).

ممازجٌ معما، ولا حالٌّ وهما، ولا شبحٌ يُتقصّى، ولا محجوبٌ فيُحوى، ولا كان بعد أن لم يكن فيقال حادث، بل جل أن يُكَيَّفَ الْمُكيِّف للأشياء كيف كان، بل لم يزل ولا يزول لاختلاف الأزمان، ولا لتقلب شأن بعد شأن»(١).

يقول تقي الدين السبكي: «والمتكلمون طلبوه [أي علم الكلام] بالعقل والنقل معا وافترقوا ثلاث فرق: إحداها غلب عليها جانب العقل وهم المعتزلة، والثانية غلب عليها جانب النقل وهم الحشوية، والثالثة ما غلب عليها أحدهما بل بقي الأمران مرعيين عندها على حد سواء وهم الأشعرية.. وتحت عنوان الأشعرية أعدل الفرق يقول التقي السبكي: والفرقة الأشعرية هم المتوسطون في ذلك وهم الغالبون من الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة وسائر الناس»(٢).

---

(١) أحمد بن عبد الله المعروف بأبي نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ أجزاء، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (ج١، صص٧٢ ٧٣).

(٢) علي بن عبد الكافي السبكي الملقب بتقي الدين، السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل، المكتبة المتخصصة للرد على الوهابية (من تراث الكوثري)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة لا ت.، (ص٢٣).

المبحث الخامس:

ظهور أبي الحسن الأشعري

كان المجتمع الإسلامي في القرون الأولى على العقيدة التي كان عليها النبي ﷺ، وهي العقيدة التي علمها للصحابة، والصحابة علموها للتابعين، وهؤلاء علموها لمن تبعهم.

وقد مر معنا كيف ظهرت الفرق وانتشرت في جسم الأمة، وأثر ذلك في شتى النواحي السياسية والعقدية، وحصل لغط كبير هبَّ لإصلاحه علماء الأمة من أهل الحديث والمجتهدين من الفقهاء، فقد برزوا يصونون العلوم الشرعية المستخرجة من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ الثابتة. فبرز أصناف مختلفة من العلوم الشرعية مثل مصطلح الحديث وأصول الفقه وغيرها من العلوم. وهكذا انتشرت وتفرعت هذه العلوم التي كانت سببًا في صيانة هذه الأمة.

وقد ألف المهتمون بحديث النبي ﷺ الكتب الكثيرة، التي عليها مدار تفسير العلوم الشرعية المستنبطة من كتاب الله تعالى. وقد شاع التدوين في النصف الأول من القرن الهجري الثاني، مع ضم الأبواب بعضها إلى بعض في كتاب واحد، على ما فعله الإمام مالك في الموطأ، والبخاري ومسلم في صحيحيهما، وأصحاب السنن في كتبهم. فبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والكراريس، أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب مثل: باب الإيمان، باب العلم، باب الطهارة، باب الطلاق، باب التوحيد، باب السنة، وهكذا.

ولضبط أسانيد الحديث النبوي، ظهر علم الجرح والتعديل، الذي كان نتيجة حتمية لجهود النقاد، ودراستهم أحوال الرجال من حيث قبول أخبارهم أو عدم قبولها، فطبقوا القوانين على كل راو لمعرفة حاله وسموِّه ونزاهته[(١)]. فكان للمحدثين الفضل الكبير فدوّنوا ما سمعوه بالسند فرارًا عن الرمي باتباع الأهواء، ودربوا الأمة على التثبت في توثيق عرى الارتباط، وما صنفوه كان بعد القرآن دعائم الإسلام التي قامت عليها صروحه[(٢)].

وقد شهر عن الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب المعتبرة من أهل السنة والجماعة قولهم «إذا صح الحديث فهو مذهبي»، ورَدَ هذا القول عن الشافعي، وعن أبي حنيفة[(٣)]، ويقول صاحب كتاب «المستخرج على المستدرك للحاكم»: «وأما الإمام مالك رحمه الله فقال: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه. وقد اشتهر عند المتأخرين قول الإمام مالك: ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ، وقد صحح هذا القول عنه ابن عبد الهادي في إرشاد السالك. وأورده السبكي في الفتاوى من قول ابن عباس متعجبًا من حسنه ثم قال: وأخذ هذه الكلمة من ابن عباس مجاهد وأخذها منهما مالك واشتهرت عنه، ثم

(١) محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، (صص٢٨٠ - ٢٨١).

(٢) محمد جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ط١، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، (صص٨٣ - ٨٤).

(٣) عبد الرحيم بن الحسين العراقي، المستخرج على المستدرك للحاكم. مكتبة السنة، القاهرة، ١٤١٠هـ، (ص١٥).

أخذها عنهم الإمام أحمد بعد ذلك»[١].

وأبو الحسن الأشعري كان إمامًا من أئمة أهل الحديث، نستدل على ذلك مما ذكره أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، في كتاب استفتاء وقّع عليه جمع من العلماء في نصرة الأشعري سنة (٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م)، فقال: «اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري كان إمامًا من أئمة أصحاب الحديث، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث. تكلم فى أصول الديانات على طريقة أهل السنة، وردّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة. وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين من الملة سيفًا مسلولًا، ومن طعن فيه أو قدح أو لعنه أو سبّه فقد بسط لسان السوء فى جميع أهل السنة»[٢]. وهذا الكلام يدل على منزلة الأشعري بين أهل الحديث.

ولد أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل بن أبي بشر[٣] سنة (٢٦٠هـ/ ٨٧٤م) كما في طبقات الشافعية للسبكي وقيل سنة (٢٧٠هـ/ ٨٨٣م)، وكان ذلك في أيام ضعف الدولة العباسية في

(١) عبد الرحيم بن الحسين العراقي، م.س.، (صص١٥ - ١٦).
(٢) ابن عساكر، م.س.، (ص٢٥٧). وانظر: تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية، (ج٢، ص٢٦٩).
(٣) ويصل نسبه إلى صاحب رسول الله ﷺ أبي موسى الأشعري فهو علي بن إسماعيل بن أبي بشر واسمه إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة ابن صاحب رسول الله ﷺ أبي موسى عبد الله بن قيس. تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية. (ج٢، ص٢٥١). واحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد. ١٤ جزءا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (ج١١، ص٣٤٦).

عصرها الثاني، وفي الوقت الذي كان القرامطة في أوج قوتهم، يفسدون في أرض الخلافة ذبحا وتقتيلا، وفي الوقت الذي كان المعتزلة ينشرون فكرهم مستقوين بالسلطة الحاكمة. وتوفي رحمه الله ببغداد بعد سنة عشرين وقبل سنة ثلاثين وثلاثمائة، قالها الخطيب البغدادي، وفي «الطبقات» للسبكي: «والصحيح بين العشرين والثلاثين بعد الثلاثمائة، والأقرب أنها سنة (**٣٢٤هـ/ ٩٣٦م**)، وهو ما صححه ابن عساكر وذكره أبو بكر بن فورك، ويقال سنة نيف وثلاثين»[(١)]. أي في الوقت الذي يقارب بدء السيطرة البويهية على دولة الخلافة العباسية.

وهو بصري سكن بغداد إلى أن توفي بها، وكان يجلس أيام الجمعات في حلقة أبي إسحاق المروزي الفقيه من جامع المنصور. كان أبو الحسن يأكل من غلة ضيعة وقفها جده بلال ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري على عقبه، وكانت نفقته في كل سنة سبعة عشر درهما[(٢)].

وفي بشرى النبي ﷺ بظهور الأشعري، يقول ابن عساكر بسنده إلى عياض الأشعري: «قال: لما نزلت ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[(٣)] قال رسول الله ﷺ: «**هم قوم هذا، وضرب بيده على ظهر أبي موسى الأشعري**»[(٤)]. وقال الطبري في تفسيره:

---

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية. (ج**٢**، ص**٢٥٥**). وانظر: الخطيب البغدادي، م.س.، (ج**١١**، ص**٣٤٦**).

(٢) الخطيب البغدادي، م.س.، (ج**١١**، ص**٣٤٦**).

(٣) سورة المائدة، آية (**٥٤**).

(٤) ابن عساكر، م.س.، (ص**١٥٠**). وانظر: الخطيب البغدادي، م.س.، (ج**٢**، ص**٣٩**). أما نص الحديث فقد رواه ابن أبي شيبة في مسنده بهذا النص:=

«عن عياض الأشعري قال لما نزلت هذه الآية: أومأ رسول الله ﷺ إلى أبي موسى بشيء كان معه، فقال: هم قومُ هذا»[(١)]. وكان الأشعري قد أخذ عن أبي علي الجبائي وتبعه في الاعتزال. الذي أقام عليه أربعين سنة، حتى صار للمعتزلة إمامًا[(٢)].

وقد ذكر أبو القاسم حجاج بن محمد الطرابلسي من أهل طرابلس المغرب، قال سألت أبا بكر اسماعيل بن أبي محمد ابن إسحق الأزدي القيرواني المعروف بإبن عزرة رحمه الله، عن أبي الحسن الأشعري رحمه الله فقلت له: قيل لي عنه إنه كان معتزليًا وإنه لما رجع عن ذلك أبقى للمعتزلة نكتًا لم ينقضها[(٣)]، فقال لي: الأشعري شيخنا وإمامنا ومن عليه معولنا، قام على مذاهب المعتزلة أربعين سنة وكان لهم إمامًا، ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوما، فبعد ذلك خرج إلى الجامع فصعد المنبر وقال: معاشر الناس إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة، لأني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق؛ فاستهديت

= «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عِيَاضٍ الأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ لأَبِي مُوسَى: هُمْ قَوْمُ هَذَا يَعْنِي فِي قَوْلِهِ تعالى فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه» الحديث، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مسند بن أبي شيبة. ط١، دار الوطن، الرياض، ١٤٢٧هـ، رقم الحديث ٦٦٥، (ص٤١٥).

(١) محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن. ٢٤جزءا، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، (ج١٠، ص٤١٤).

(٢) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٢، ص٢٥٢).

(٣) أي بعض المسائل.

الله تبارك وتعالى، فهداني إلى إعتقاد ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس. فمنها كتاب «اللمع» وكتاب أظهر فيه عوار المعتزلة سماه بكتاب «كشف الأسرار وهتك الأستار» وغيرهما. فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة، أخذوا بما فيها وانتحلوه واعتقدوا تقدمه واتخذوه إمامًا حتى نسب مذهبهم إليه(١).

فنُسب من تعلق اليوم بمذهب أهل السنة وتفقه في معرفة أصول الدين من سائر المذاهب إلى الأشعري، لكثرة تواليفه وكثرة قراءة الناس لها؛ ولم يكن هو أول متكلم بلسان أهل السنة، إنما جرى على سَنَن غيره، وعلى نصرة مذهب معروف، فزاد حجة وبيانًا، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهبًا انفرد به، ألا ترى أن مذهب أهل المدينة ينسب إلى مالك بن أنس رضي الله عنه، ومن كان على مذهب أهل المدينة يقال له: مالكي، ومالك رضي الله عنه إنما جرى على سَنَن من كان قبله، وكان كثير الاتِّباع لهم، إلا أنه زاد المذهب بيانًا وبسطًا وحجة وشرحًا، وألف كتابه «الموطأ»، وما أُخذ عنه من الأسمعة والفتاوى، فنُسب المذهب إليه لكثرة بسطه له وكلامه فيه؛ فكذلك أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه، لا فرق، وليس له في المذهب أكثر من بسطه وشرحه، وتواليفه في نصرته فتعلق به أهل السنة من المالكية والشافعية وبعض الحنفية(٢)، فأهل

(١) ابن عساكر، م.س.، (ص١٣٧).
(٢) لأن أغلب الحنفية اتبعوا أبا منصور الماتريدي، وهو الإمام الثاني في أصول=

السنة بالمشرق والمغرب بلسانه يتكلمون وبحجته يحتجون[(١)].

كان الأشعري امتدادًا لسلف الأمة في الاعتقاد، فقد سدد في رجوعه عن الاعتزال الوجهة التي كان عليها هؤلاء السلف الذين كان يمثلهم مجموعة من علماء أهل السنة والجماعة مثل عبد الرحمٰن الأوزاعي ومالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان بن ثابت ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل الذين عُرِفوا بمواجهة المنحرفين وأهل البدع.

وكانت محنة المعتزلة شديدة بسبب قربهم من الخلفاء، في موضوع خلق القرآن. ينقل ابن عساكر عن الكلاعي المآيرقي الفقيه في المحنة التي تعرض لها أحمد بن حنبل رحمه الله (ت٢٤١م/ ٨٥٦م)، فيقول: «أعظم ما كانت المحنة - يعني بالمعتزلة - زمن المأمون والمعتصم، فتورَّع من مجادلتهم أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فموَّهوا بذلك على الملوك، وقالوا لهم: إنهم - يعنون أهل السنة - يفرُّون من المناظرة، لما يعلمون من ضعفهم عن نصرة الباطل، وإنهم لا حجة بأيديهم، وشنَّعوا بذلك عليهم، حتى امتُحن في زمانهم أحمد ابن حنبل وغيره، فأخذ الناس حينئذ بالقول بخلق القرآن، حتى

= الدين لأهل السنة، ولهذا الأمر أهل السنة والجماعة أشعرية ماتريدية. ولا يختلف الأشعرية عن الماتريدية إلا اختلافا لفظيا في بعض المسائل التي لا توجب تفسيقا ولا تكفيرا. أما الحنابلة غير الذين وقعوا في حبائل التجسيم فيسمي تاج الدين السبكي وغيره من اتبع منهم الأشعري في الاعتقاد: فضائل الحنابلة. انظر: تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم. ط١،المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، (ص٦٤).

(١) ابن عساكر، م.س.، (ص٢٦٢).

ما كانت تقبل شهادةُ شاهد، ولا يُستقصى قاض، ولا يُفتي مفتٍ لا يقول بخلق القرآن»[١].

وكان في ذلك الوقت من المتكلمين جماعة: كعبد العزيز المكي، والحارث المحاسبي، وعبد الله بن كُلاّب، وجماعة غيرهم. وكانوا أولي زهد وتقشُّف لم يرَ واحدٌ منهم أن يطأ لأهل البدع بساطًا، ولا أن يداخلوهم، فكانوا يردُّون عليهم، ويؤلفون الكتب في إدحاض حججهم، إلى أن نشأ بعدهم وعاصر بعضهم بالبصرة أيام إسماعيل القاضي ببغداد أبو الحسن علي ابن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري، فصنَّف في هذا العلم لأهل السنة التصانيف، وألَّف لهم التواليف، حتى أدحض حجج المعتزلة وكسر شوكتهم. فكان يقصدهم بنفسه يناظرهم، فكُلِّمَ في ذلك وقيل له: كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم بنفسك وقد أمرتَ بهجرهم؟ فقال: هم أولو رئاسة، معهم الوالي والقاضي، ولرئاستهم لا ينزلون إليَّ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إليَّ ولا أسير أنا إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أنَّ لأهل السنة ناصرًا بالحجة؟[٢].

قال السيوطي: «وفي هذه السنة (٢٣١هـ/ ٨٤٦م)، قُتل أحمد ابن نصر الخزاعي، وكان من أهل الحديث قائمًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أحضره الخليفة العباسي الواثق من بغداد إلى سامراء مقيدًا، وسأله عن القرآن، فقال: ليس بمخلوق، وعن الرؤية في القيامة، فقال: كذا جاءت الرواية، وروى له الحديث، فقتله الحاكم بإشارة من فقهاء المعتزلة..

(١) ابن عساكر، م.س.، (ص٢٦١).

(٢) نفسه، (صص٢٦١ - ٢٦٢).

قال الخطيب [البغدادي]: كان أحمد بن دؤاد[(١)] قد استولى على الواثق، وحمله على التشدد في المحنة، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن، ويقال: إنه [أي الواثق] رجع عنه قبل موته»[(٢)].

وفي هذه الفترة الدقيقة والحرجة من التاريخ الإسلامي في المشرق، كان تحول أبي الحسن الأشعري إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

١- مواجهة الأشعري للمعتزلة وتتبعه لفلولهم:

كان الأشعري يتتبع المعتزلة لمناظرتهم وقمع بدعتهم، نقلًا عن الإمام أبي سهل محمد بن سليمان الصعلوكي رحمه الله يذكر ابن عساكر: «حضرنا مع الشيخ أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه مجلس علويٍّ في البصرة، فناظر المعتزلة خذلهم الله تعالى، حتى أتى على الكل فهزمهم، كلما انقطع واحد أخذ الآخر، حتى انقطعوا عن آخرهم؛ فعدنا في المجلس الثاني، فما عاد أحد، فقال بين يدي العلوي: يا غلام، اكتب على الباب فرّوا»[(٣)].

ومن قوة الأشعري في الحجاج لهدم مذهب المعتزلة، يذكر ابن عساكر نقلًا عن أبي بكر ابن الصيرفي: «كانت المعتزلة قد رفعوا رؤسهم، حتى أظهر الله تعالى الأشعري، فحجزهم في أقماع السمسم. ثم قال ابن عساكر: إسناد هذه الحكاية مضيء

---

(١) من قضاة المعتزلة.
(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، (صص٢٩٦ - ٢٩٧).
(٣) ابن عساكر، م.س.، (ص٢١٨).

كالشمس، ورواتها لا يخالج في عدالتهم شك في النفس، وقائلها أبو بكر إمام كبير، ومحله عند أهل العلم محل خطير»[١].

٢- صفته في إنكار المنكر:

إنكار المنكر وإظهار العقيدة الحقة، كانت الصفة التي تحلى بها الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه عند ظهور البدع ووقوع الفتن، فعلَّم الناس معاني دينهم، وأوضح الحجج لتقوية يقينهم، وأمرهم بالمعروف فيما يجب اعتقاده من تنزيه الله تعالى عن مشابهة مخلوقاته، وبين لهم ما يجوز اطلاقه عليه عز وجل من أسمائه الحسنى وصفاته، ونهاهم عن المنكر من تشبيه صفات المحدثين وذواتهم بأوصافه أو ذاته، فكانت طاعته فيما أمر به من التوحيد مقربة للمقتدي به إلى مرضاته، لأنه كان في عصره أعلم الخلق بما يجوز أن يطلق في وصف الحق، فأظهر في مصنفاته ما كان عنده من علمه، فهدى الله به من وفقه من خلقه لفهمه[٢].

٣- أخبار الرؤيا التي كانت سببًا في رجوعه عن الاعتزال:

وفي أخبار رجوعه عن الاعتزال، تذكر الروايات التي نقلها الثقات عن الثقات، أن أبا الحسن الأشعري قد رأى النبي ﷺ في منامه ثلاث مرات، يرشده إلى ما ينبغي فعله لنصرة عقيدته، وفي الأخبار التي وردت أن النبي ﷺ سأله عن رؤية الله تعالى

---

(١) نفس المصدر والصحيفة؛ وانظر: الخطيب البغدادي، م.س.، (ج١١، ص٣٤٦). وتاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٢، ص٢٥٣).
(٢) ابن عساكر، م.س.، (ص٢٧٧).

في الآخرة، هل كتبها من الحديث فكان جوابه بأنه كتبها فسأله ﷺ فما الذي يمنعك من القول به؟ قال: أدلةُ العقول منعتني، فقال له: وما قامت أدلةُ العقولِ عندك على أنَّ الله تعالى يُرى في الآخرة؟ فقال: بلى يارسول الله، فإنَّما هي شُبَهٌ، فأرشده النبي ﷺ أن يتأمَّلها وينظرَ فيها نظرًا مستوفًى، فليست بشُبَهٍ، بل هي أدلةٌ، وغاب عني ﷺ.

فلما انتبه، فزع فزعًا شديدًا، وأخذ يتأمل ما قاله ﷺ، فوجد الأمرَ كما قال، فقويَتْ أدلةُ الإثباتِ في قلبه، وضعفَتْ أدلةُ النفيِ. ثم في العشر الثاني من رمضان، رآه ﷺ قد أقبلَ، فقال: يا أبا الحسن، أيَّ شيء عملتَ فيما قلتُ لك؟ فقلتُ: يارسول الله، الأمرُ كما قلتَ صلى الله عليك، والقوَّة في جَنَبَةِ الإثبات، فقال له: تأمَّلْ سائرَ المسائل وتذكَّر فيها، فانتبه. وقام بجمع جميعَ ما كان بين يديه من الكتب الكلاميَّات وضَبَّرها ورفعها، واشتغلَ بكتب الحديث وتفسير القرآن والعلوم الشرعية، ومع هذا فقد كان يتفكرُ في سائر المسائل، لأمره ﷺ إيَّاه بذلك.

فلما دخل في العشر الثالث، رآه ﷺ ليلة القدر، فقال له وهو كالحَرْدانِ[1] ما عملتَ فيما قلتُ لك؟ فقال: يا رسول الله، أنا مُتفكِّرٌ فيما قلتَ، ولا أدعُ التفكُّرَ والبحثَ عليها، إلا أني قد رفعت الكلام كلَّهُ وأعرضتُ عنه، واشتغلتُ بعلوم الشريعة، فقال له مغضبًا: ومَنِ الذي أمرَكَ بذلك؟ صنِّفْ

---

(١) حرد حردًا مثل غضب غضبًا وزنًا ومعنى. أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير (معجم عربي عربي). مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠١، (ص٤٩).

وأنصرْ هذه الطريقةَ التي أمرتُكَ بها، فإنَّها ديني، وهو الحقُّ الذي جئتُ به، وانتبه بعد ذلك. فأخذ في التصانيف والنُّصرة، وأظهر المذهب. فهذا سبب رجوعه عن مذهب المعتزلة، إلى مذهب أهل السنة والجماعة رحمة الله عليه ورضوانه[١].

٤- بعض تلاميذ أبي الحسن الذين استفادوا منه:

ومن تخرج به ممن اختلف إليه واستفاد منه، المعروف بأبي الحسن الباهلي، وكان إماميًا في الأول رئيسًا مقدمًا، فانتقل عن مذهبهم بمناظرة جرت له مع الشيخ أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، ألزمه فيها الحجة، حتى بان له الخطأ فيما كان عليه من مذاهب الإمامية، فتركها واختلف إليه، ونشر علمه بالبصرة، واستفاد منه الخلق الكثيرون[٢].

كما تخرج به أيضًا مجموعة من العلماء، الذين كانوا يمثلون الطبقة الأولى، ويصفهم ابن عساكر بأنهم «أصحابه الذين أخذوا عنه، ومن أدركه ممن قال بقوله أو تعلم منه»[٣]. ويلقبه[٤] تاج الدين السبكي بالعبد الصالح، شيخ الأستاذ أبي إسحق الإسفراييني، والأستاذ أبي بكر بن فورك[٥].

ومن الطبقة الأولى أيضًا أبو عبد الله بن مجاهد البصري رحمه الله، وهو من أهل البصرة، سكن بغداد، وعليه درس

---

(١) ابن عساكر، م.س.، (صص١٤٠ - ١٤٢).
(٢) نفسه، (ص٢٧٨).
(٣) نفسه، (ص٢٤٣).
(٤) يعني بذلك أبا الحسن الباهلي.
(٥) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٢، ص٢٦٦).

القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني الكلام[١].

ومن تلاميذ ابن مجاهد أيضا، أحد العلماء الذين شهروا بالكلام من أهل العراق أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد المؤمن، الذي سكن آخرًا القيروان؛ وصحب أبا محمد بن أبي زيد [القيرواني] وغيره من أئمتها، وناظرهم، وذاكروه، وأثنوا عليه وأخذوا عنه[٢].

ثم سرد ابن عساكر في «التبيين» أسماء العديد من العلماء مجموعين في خمس طبقات، وقال: «ومن لم أذكر منهم أكثر ممن ذكرتُ، والمقصود إظهار فضله [أي أبي الحسن الأشعري] بفضل أصحابه.. ولولا خوفي من الإملال للإسهاب، وإيثاري الاختصار لهذا الكتاب، لتتبَّعت ذكر جميع الأصحاب»[٣].

ويذكر تاج الدين السبكي في الطبقات أن ابن عساكر ترك ذكر أقوام كان ينبغي أن يشمر عن ساعد الاجتهاد في ذكرهم تشميرًا. لكنه استوعب الأولى أو كاد، ثم صار السبكي يذكر ما فات ذكره في بقية الطبقات. ويهمنا أن نذكر من أولئك الذين استدركهم السبكي، من كان من أهل الغرب الإسلامي، مما يدعم بحثنا في انتشار الأشعرية في هذه البلاد، فقال: «ومن الثانية: أبو الفضل الممسي المالكي المقتول ظلمًا[٤]،

(١) ابن عساكر، م.س.، (ص٣٤٥).
(٢) عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك،جزءان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، (ج٢، صص١٢٣ - ١٢٤).
(٣) ابن عساكر، م.س.، (ص٥٩٥).
(٤) وهو أبو الفضل العباس بن عيسى الممسي المالكي العابد أخذ عن موسى=

وأبو القاسم بن عبد المؤمن المكي المالكي تلميذ ابن مجاهد، وأبو محمد بن أبي زيد. ومن الثالثة من المالكية: أبو عمران الفاسي. ومن الرابعة: أبو إسحاق التونسي المالكي. ومن الخامسة: أبو الوليد الباجي، وأبو الحسن القابسي، والقاضي عياض بن محمد اليحصبي»[(١)].

٥- مصنفات أبي الحسن الأشعري:

يذكر ابن عساكر في التبيين ما نقله ابن فورك نحو ثمانين من أسماء الكتب التي صنفها أبو الحسن الأشعري، فيها ردود على معتقدات المعتزلة القائلين بخلق أفعال العباد وإنكار رؤية الله تعالى في الآخرة ونفي صفات الله سبحانه، وكذلك الرد على الفلاسفة والدهرية القائلين بقدم العالم، والرد على المجسمة وأهل التشبيه.. ثم ينقل ابن عساكر عن أبي العباس أحمد بن محمد المعروف بقاضي العسكر، وكان من كبراء أصحاب أبي حنيفة أنه وجد كتبًا كثيرة في علم التوحيد لأبي الحسن الأشعري وهي قريبة من مائتي كتاب، وبعضهم عدّها ثلاثمائة[(٢)].

وقد بيَّن أبو الحسن الأشعري عقيدته، وهي عقيدة الوسطية والاعتدال، بين الإفراط والتفريط، فضمنها كتبه المصنفة. فذكر

= القطان القيرواني وغيره وكان مناظرا صاحب حجة، قتل في ثورة أبي يزيد ضد العبيديين في المهدية سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤١م. وانظر: الذهبي، م.س.، (ج١٥، صص٣٧٢ - ٣٧٣).

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٢، ص٢٦٨).

(٢) ابن عساكر، م.س.، (صص٢٧٩ - ٢٩٢).

ابن عساكر ما قاله إمام الحرمين عبد الملك الجويني في هذه العقيدة الوسطية كلامًا حسنًا، منه قوله: «كتب إليَّ الشيخ أبو القاسم نصرُ بن نصرٍ الواعظُ، يخبرني عن القاضي أبي المعالي ابن عبد الملك[١] وذكر أبا الحسن الأشعري، فقال: نضَّرَ اللهُ وجهه، وقدس روحه، فإنه نظر في كتب المعتزلة والجهمية والرافضة، وإنهم عطَّلوا وأبطلوا. فقالوا: لا علم لله، ولا قدرة ولا سمع ولا بصر ولا حياة ولا بقاء ولا إرادة[٢]. وقالت الحشوية والمجسمة والمكيِّفة المحدِّدة: أن لله علمًا كالعلوم، وقدرة كالقدر، وسمعًا كالأسماع، وبصرًا كالأبصار[٣]. فسلك رضي الله عنه طريقة بينهما فقال: إن لله سبحانه وتعالى علمًا لا كالعلوم، وقدرةً لا كالقدر، وسمعًا لا كالأسماع، وبصرًا لا كالأبصار[٤].

وكذلك قال جهم بن صفوان: العبد لا يقدر على إحداث شيء، ولا على كسب شيء، وقالت المعتزلة: هو قادر على الإحداث والكسب معًا، فسلك رضي الله عنه طريقة بينهما فقال: العبد لا يقدر على الإحداث، ويقدر على الكسب،

(١) أبو المعالي الجويني، الملقب بـ«إمام الحرمين»، (ت ٤٧٨هـ/ ١١٨٥م). فقيه وأحد أبرز علماء الدين السنة عامة والأشاعرة خاصة.
(٢) المعتزلة وأشباههم نفوا أن يكون الله تعالى موصوفا بصفات.
(٣) المجسمة يشبهون الله بخلقه ويعتقدون أنه محل للحوادث وأن علمه كعلم الإنسان حادث.
(٤) اعتقاد أهل السنة والجماعة أن الله تعالى ذات أزلي موصوف بصفات أزلية، فعن صفة السمع قالوا: يسمع بسمعه القديم الذي هو صفته قائمة بذاته أي ثابتة له أزلية أبدية ليس كسمع البشر فسمعه تعالى بغير آلة والبشر سمعهم حادث يسمعون بآلة.

ونفى قدرة الإحداث، وأثبت قدرة الكسب(١).

وكذلك قالت الحشويَّة المشبِّهة: إن الله سبحانه وتعالى يُرى مكيفًا محدودًا كسائر المرئيات، وقالت المعتزلة والجهمية والنجارية: إنه سبحانه لا يُرى بحال من الأحوال، فسلك رضي الله عنه طريقة بينهما فقال: يُرى من غير حُلول ولا حُدود ولا تكييف(٢).

وكذلك قالت النجارية: إن الباري سبحانه بكل مكان من غير حلول ولا جهة، وقالت الحشوية والمجسمة: إنه سبحانه حالٌّ في العرش، وأن العرش مكانٌ له، وهو جالس عليه، فسلك طريقة بينهما فقال: كان ولا مكان، فخلق العرش والكرسي، فلم يحتج إلى مكان، وهو بعد خلق المكان كما كان قبل خلقه(٣).

---

(١) قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [سورة البقرة، آية ٢٨٦]. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي من الخير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ أي من الشر. فالكسب هو توجيه العبد قصده وإرادته نحو الفعل الاختياري الذي يخلقه الله عند ذلك. وقال تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ﴾ [سورة الأنفال، آية ١٧]. فأثبت الله تعالى الخلق لنفسه وتمدح بذلك، لأنه شيء يختص به وأثبت الكسب للعبد. وهذا هو المذهب الحق مذهب أهل السنة والجماعة.

(٢) وهذا خاص للمؤمنين أي أنه تعالى لا يكون في جهة ولا مكان، إنما هم في مكانهم في الجنة يرونه بأعين رؤوسهم، رؤية لا يكون عليهم فيها اشتباه، لا يشكون هل الذي رأوه هو الله أو غيره، قال الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة القيامة، آية ٢٢ - ٢٣].

(٣) لأن الله تعالى وصف نفسه بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ [سورة الشورى، آية ١١]. والمتحيز في المكان يكون حجما والحجم له أمثال لا تحصى، قال أبو حنيفة في كتابه الفقه الأبسط: «كان الله ولا مكان، كان قبل أن يخلق=

وقالت المعتزلة: كلام الله مخلوق مخترع مبتدع، وقالت الحشوية المجسمة: الحروفُ المقطَّعة والأجسامُ التي تُكتب عليها والألوانُ التي تُكتب بها وما بين الدَّفَّتين كلها قديمةٌ أزلية، فسلك رضي الله عنه طريقة بينهما فقال: القرآنُ كلام الله، قديمٌ غير مغيَّر ولا مخلوقٍ ولا حادثٍ ولا مبتدَع، فأما الحروف المقطَّعة والأجسام والألوان والأصوات والمحدودات وكل ما في العالم من المكيَّفات مخلوقٌ مبتدَعٌ مخترَعٌ[(١)].

إلى غير ذلك من أصول يكثر تعدادُها وتذكارُها، وهذه الطرق التي سلكها لم يسلكها شهوة وإرادة، ولم يحدثها بدعة واستحسانًا، ولكنه أثبتها ببراهين عقلية مخبورة، وأدلة شرعية مسبورة، وأعلام هادية إلى الحق، وحجج داعية إلى الصواب والصدق، هي الطرقُ إلى الله سبحانه وتعالى، والسبيل إلى النجاة والفوز، من تمسك بها فاز ونجا، ومن حاد عنها ضل وغوى»[(٢)].

= الخلق، كان ولم يكن أين ولا خلق ولا شيء وهو خالق كل شيء. وقال علي: كان الله ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان. وقال النبي ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه: «**كان الله ولم يكن شيء غيره**» الحديث، محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، ٩ أجزاء، ط٢، دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٢٩هـ، رقم الحديث: ١١٩١، (ج٤، صص١٠٥ - ١٠٦).

(١) اعتقاد أهل السنة أن الله تعالى موصوف بصفة الكلام، وهي صفة أزلية أبدية قائمة بذاته، وكلامه ليس حرفا ولا صوتا ولا لغة عربية أو غيرها. قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: «ونحن نتكلم بالآلات والحروف والله تعالى يتكلم بلا آلة ولا حروف والحروف مخلوقة وكلام الله تعالى غير مخلوق». النعمان بن ثابت أبو حنيفة، الفقه الأكبر (مع شرحه ممزوجا بالمتن للملا علي القاري)، صورة عن طبعة ١٣٢٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، (ص٢٩، وص١٦٧).

(٢) ابن عساكر، م.س.، (صص٣٠٥ - ٣٠٩).

٦- المناوئون للعقيدة الأشعرية والأشاعرة:

كان المناوئون للأشعرية في كل عصر كمن يذر الرماد في العيون حتى لا تنكشف الحقائق، وكمن يزرع الألغام في الطريق المؤدي إلى الصواب، ولقد جرى الوقوف في وجه العقيدة السليمة، منذ زمن ما قبل ظهور أبي الحسن الأشعري، ففي مسألة خلق القرآن ورؤية الله تعالى في الآخرة، والتي قام بها المعتزلة الذين كانوا مقربين من بعض الخلفاء العباسيين، حصل أذى مختلف الأشكال، نال عدة من العلماء الأفاضل: سجنًا وضربًا وتعذيبًا وقتلًا، منهم: الإمام المجتهد أحمد بن حنبل الذي عُذّب في زمن المعتصم، وأحمد بن نصر الخزاعي الذي قُتل في زمن الواثق العباسي، وغيرهما. ومؤامرة الكندري وزير طغرل بك على الأشاعرة حتى حُبس قسمٌ منهم.

ثم استمر هذا الأذى تشويشًا على العامة وتحريفًا لكتب أهل السنة، إلى أن تلبّس بذلك مجسمة الحنابلة في بغداد وخراسان، حتى وصلوا به إلى عصر أحمد بن تيمية في القرن الثامن الهجري/ ١٤م، الذي وضع لهذه الفرقة المجسمة، قواعد يرجعون إليها؛ وألفوا المصنفات العديدة.

وفي غير موضوع المحنة التي تعرض لها بعض العلماء زمن قوة المعتزلة، وتجييش بعض الأراذل والسفلة من العوام للتعرض إلى بعض العلماء وعامة أهل السنة بالضرب والتخويف كما فعل مجسمة الحنابلة في بغداد، حصل التحريف والتزييف في بعض كتب أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه بغرض التشكيك في عقيدته.

فقد زعموا أن أبا الحسن الأشعري تراجع عن العقيدة التي

أسس لها ووضع قواعدها، وردوه إلى معتقدهم الفاسد وصاروا يترحمون عليه ويقولون عنه إنه تاب توبتين، تاب أولًا من عقيدة المعتزلة إلى عقيدة ابن كلاب، وتاب ثانيًا من عقيدة ابن كلاب والتزم عقيدة «السلف». وعندما يذكرون كلمة «السلف» هنا يقصدون عقيدتهم في تجسيم الله تعالى وتشبيهه بخلقه، وهذا التزييف أكثر ما ظهر في كتاب «الإبانة» للأشعري، حيث ظهر الكتاب نفسه مناقضا لذاته ولبقية كتب الأشعري.

ويرد ذلك أمور: أهمها ما بينه تلاميذه في تعليمهم لتلاميذهم، وهؤلاء منهم أبو بكر بن فورك الذي أخذ كتب أبي الحسن واستخرج منها القواعد التي جعلها أبو الحسن الأشعري أساس عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو تلميذ أبي الحسن الباهلي الذي كان تلميذًا لأبي الحسن الأشعري فجمع هذه القواعد بكتاب سمّاه «مجرد مقالات الأشعري».

ثم هذا التغير الذي يزعمون أنه حصل للأشعري قبل موته، لِمَ لمْ يلحق المنتسبين إلى منهج أبي الحسن الأشعري الذين أظهروا صلابة وقوة في الدفاع عن العقيدة بأسلوب الأشعري نفسه وقواعده وطريقته في الكلام، حتى صار من برع في ذلك يسمى «لسان الأمة» كما وقع لأبي بكر الباقلاني.

والنسخ الموجُودَة اليوم بأَيدي النّاس من كتاب «الإبانة» غَير مَوثُوق بها لأنّه يُوجَد فيها كَلام لا يُعرَف عندَ خَواصّ الأشاعرَة ولا عندَ عَوامهم. وقد نشر أحد الباحثين كتابًا بعنوان «كفى تفريقا للأمة باسم السلفية»[١]، وباحث آخر ألف أيضًا كتابًا

(١) محمد عمر كامل، كفى تفريقا للأمة باسم السلفية. مناقشة علمية لكتاب=

بعنوان «كشف الخفا لما دسَّ الوهابيةُ في كتب العلما»[١].

وقد تتبعنا الأمر أثناء البحث عن عقائد علماء المغرب مثل «ابن أبي زيد القيرواني» و«أبي عمرو الداني الأندلسي» وغيرهما، حاول هؤلاء المناوئون جاهدين إظهار أنهم على عقيدتهم من التشبيه والتجسيم.

فابن أبي زيد القيرواني على الرغم من الأسلوب الذي صاغ به متن العقيدة في «الرسالة» أرادوا أن يلبسوه أفكارهم لكلمة اعتبرها العلماء تحتمل التأويل، ثم «أبو عمرو الداني»[٢] (ت٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) أي قبل إتمام المرابطين سيطرتهم على البلاد. ولعل المراد من البحث عنه وتلبيسه عقيدة التجسيم حتى يستمروا في ترويج صورة أن عقيدة علماء المالكية كانت عقيدتهم التي يسمونها عقيدة السلف، فقد قام بتحقيق هذا الكتاب شخص بدأ أول سطرين من مقدمته بهذه الكلمات: «وبعد.. فقد دفع إليَّ الأخ.... صاحب أشهر مكتبة سلفية هي: دار البصيرة.. كتاب[٣] «الرسالة الوافية» لمؤلفه الشيخ الصالح الورع إمام المقرئين المعروف بأبي عمرو الداني رحمه الله.. لتحقيقه والتعليق عليه بما تيسر»[٤].

= الدكتور سفر الحوالي «نقد منهج الأشاعرة في العقيدة». ط١، دار المصطفى للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

(١) علي مقدادي الحاتمي، كشف الخفا عن عبث الوهابية بكتب العلما. ط١، دار النور المبين للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٩م.

(٢) انظر ترجمته في: محمد بن عمر مخلوف، شجرة النور الزكية، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠، (ج١، صص١٧٠ - ١٧١).

(٣) هكذا في الكتاب.

(٤) حلمي بن محمد بن إسماعيل الرشيدي، محقق كتاب الرسالة الوافية لمذهب=

والإمام أبو عمرو الداني رحمه الله في الآية الكريمة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[(١)]، يشرحها تفسير السلف المنزهون كما علمهم مالك بطريقة التفويض التي استعملها الأشاعرة أيضًا فقال: «واستواؤه جل جلاله علوه بغير كيفية، ولا تحديد ولا مجاورة ولا مماسة، قال مالك رحمه الله للذي سأله عن الاستواء: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة»[(٢)]. والغريب في الأمر أن هذا المحقق كان يعقب في الهامش بهذه العبارات: «وإن كانت العبارات التي استعملها المؤلف لم ترِد على ألسِنة السلف، [وعن قول الداني: ولا تحديد ولا مجاورة ولا مماسة، علق المحقق في الهامش على كلام الداني:] وهو ليس من مذهب السلف، بل مذهب السلف.. الإثبات المفصل»[(٣)]، لأن عقيدتهم التجسيم (باسم السلف) يثبتون الحد والمجاورة والمماسة. إذن لأي شيء يحقق كتاب عالم مالكي منزِّه؟!.

ونُسب إلى أبي الحسن الأشعري كتاب عنوانه «شجرة اليقين ونخلة نور سيد المرسلين وبيان حال الخلائق يوم الدين»، وهو كتاب مليء بالأساطير والترهات، فيبرئ الأستاذ يوسف أحنانة أبا الحسن الأشعري بقوله: «إن كتابًا مثل هذا بهذه المضامين

= أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات للإمام المقرئ أبي عمرو الداني، دار البصيرة، القاهرة، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م، (ص٥).

(١) سورة طه، آية (٥).

(٢) عثمان بن سعيد الأموي القرطبي المعروف بأبي عمرو الداني، الرسالة الوافية لمذهب أهل السنة في الاعتقادات وأصول الديانات، دار البصيرة، القاهرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، (ص٢٠).

(٣) نفسه، هامش المحقق، (ص٢٠).

لم يرد ذكره في أي ثبت من الأثبات التي تؤرخ لكتب الأشعري، ولم يُشر إليه أحد من قريب أو من بعيد، علاوة على أن طريقة عرضه للمضامين، وكذا أسلوب العرض، لا يرقى إلى مستوى عالم من طينة الشيخ أبي الحسن الأشعري»[١].

ويؤكد يوسف أحنانة براءة الأشعري من كل ما نسب إليه مما يخالف مذهبه بقوله: «ثم إن هذا الكتاب الذي أوردناه مثلا [شجرة اليقين]، لا شك أن له أمثالا وأشباها منحولة إلى الأشعري، ومن ذلك كتاب «الإبانة» الذي نُسب إلى الأشعري.. هدفها جميعا هو تكريس الوهم، وتلبيس الحقيقة، والتدليس على الشيخ وعلى سيرته المعرفية»[٢].

وكذلك، كتاب «الإبانة» الذي ألفه الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله تعالى ليس هو الكتاب المتداول بين أيدي الناس اليوم من المطبوع، فما ألفه أبو الحسن الأشعري كان موافقًا لمعتقد أهل السنة والجماعة، فقد جاء في مقدمة كتاب «تبيين كذب المفتري» تعليق للإمام الكوثري حيث قال «والنسخة المطبوعة في الهند من الإبانة نسخة مصحَّفة محرفة

(١) يوسف أحنانة، الإمام أبو الحسن الأشعري إمام أهل السنة والجماعة(نحو وسطية إسلامية جامعة)،ضمن كتاب أعمال الملتقى العالمي الخامس لرابطة خريجي الأزهر الشريف، ٢٤ - ٢٧ جمادى الأولى ١٤٣١هـ - ٨ - ١١ مايو ٢٠١٠م، نشر مركز الأزهر للتأليف والترجمة والنشر، تصدير شيخ الأهر الشريف أحمد الطيب، ط١، دار القدس العربي، القاهرة، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٤م، (ج١، ص٢٥٤).
(٢) نفسه، (ج١، ص٢٥٥).

تلاعبت بها الأيدي الأثيمة، فيجب إعادة طبعها من أصل موثوق»[١]. ومما يؤكد أن الكتاب دخله تحريف وتزوير أن الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى قد نقل في كتاب «تبيين كذب المفتري» فصلين من الإبانة، فيهما عقيدة أشعرية صافية في التنزيه[٢].

ثم يخلص أحنانة في تبرئة الأشعري في آخر مقاله: «إن ما طال شخصية أبي الحسن الأشعري من التشويه والتزوير والأوهام لم ينل منه شيئًا، ولن ينال منه أي شيء. فقد بقي هذا المذهب على مر العديد من القرون صامدًا مستمرًا في المسير، يتطور ويتقدم، فلم يزد هذا التزوير وذاك التشويه هذا الرجل ومذهبه إلا نجاحًا، ولم يُثن أتباعه عن المزيد من التعلق به والتمسك بمذهبه»[٣].

ويعتبر أحنانة أن التوظيف الأيديولوجي بعرض أمور تخالف الحقيقة، يقوم بدور الهدم لكنه مع الأشاعرة لم ينل نجاحًا، رغم معاول الهدم التي استعملت «في تخريب صورة الأشعري، وتقديم صورة قاتمة عنه على امتداد القرون والعصور، إلى يومنا هذا، ومع ذلك ظلت صورة الأشعري كالصخرة، تواجه قرون الوعول، التي سرعان ما تهنُ أمام قوة هذه الصخرة. وهذا يؤكد لنا من جديد أن العقيدة الأشعرية والإمام الأشعري يشكل ما ينفع الناس. وأما الأوهام والتلبيسات والتدليسات

(١) ابن عساكر، م.س.، هامش رقم (٣) من مقدمة المحقق، (ص١١٩).
(٢) نفسه، (صص٣٠٩ - ٣٢٨).
(٣) يوسف أحنانة، م.س.، (ج١، ص٢٥٥).

زبد زائل ذاهب لا محالة. فقد قال عز من قائل: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١)(٢).

(١) سورة الرعد، آية (١٧).
(٢) يوسف أحنانة، م.س.، (ج١، ص٢٥٥).

الفصل الثاني

إرهاصات ظهور الأشعرية في الغرب الإسلامي

تمهيد

المبحث الأول: بداية الحركة العلمية في الغرب الإسلامي

المبحث الثاني: ارتباط العقيدة الأشعرية بمذهب مالك بن أنس

المبحث الثالث: الأشاعرة الأوائل في الغرب الإسلامي

تمهيد:

يرى بعض الباحثين أن تأمين فتوحات الشام إنما يستدعي السيطرة على المناطق المجاورة له من الشمال والشمال الشرقي أرمينية، والجنوب الغربي مصر، والمناطق الغربية جزر البحر المتوسط الشرقية، ثم إن تأمين فتوحات مصر استدعى فتح إفريقية، وهذا بدوره تطلب فتح المغرب الأدنى، ثم المغرب الأقصى، ثم عبور المضيق إلى شبه الجزيرة الإيبيرية إسبانيا. وبهذا أصبح المسلمون في مواجهة القوى غير الإسلامية الأوروبية في الغرب، بالقدر نفسه الذي واجهوا به الدولة البيزنطية في الشرق. فعلى هدي الظروف الجغرافية - إذن - كانت تسير الفتوحات الأموية برًا من أجل رفع راية الإسلام[١].

*** الفتوحات في غرب العالم الإسلامي:**

في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتحت مصر على يد عمرو بن العاص في سنة عشرين (٦٤١م)، وفتحت الإسكندرية سنة خمس وعشرين (٦٤٦م).

وفي خلافة عثمان بن عفان ولى أخاه من الرضاعة عبد الله ابن سعد بن أبي سرح، فاستأذنه لفتح إفريقية، فأمره على جيش فيه نفر من أبناء الصحابة، منهم عبد الله بن الزبير وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس وغيرهم لذلك

---

(١) أبو عُبيَّة. م.س.، (صص٢٧ - ٢٨).

سمي بجيش العبادلة. فانتصر المسلمون على الملك جرجير انتصارًا حاسمًا في موقعة سبيطلة وذلك في سنة (٢٨هـ/ ٦٤٩م)(١).

وكان لا بد أن تؤثر أحداث الفتنة التي مُنيت بها الأمة في الخلاف الذي حصل بين عليّ ومعاوية، والتي استمرت خمس سنوات (٣٥هـ - ٦٥٦م/ ٤٠هـ - ٦٦١م) في حركة الفتوح في إفريقية وغيرها.

وما إن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان سنة (٤١هـ - ٦٦٢م) حتى عادت الفتوح في المشرق والمغرب على السواء، فقرر فصل ولاية إفريقية عن ولاية مصر. وجعلها ولاية تابعة للخلافة مباشرة، وعين معاوية بن حُدَيج السكوني واليا عليها، وأمره بالمسير إليها ومواصلة الفتوح، وزوده بجيش من عشرة آلاف مقاتل، من بينهم عدد كبير من أصحاب النبي ﷺ.

وهذه الحملة كانت إحدى المقدمات التي سبقت الفتح المنجز، الذي ستبدأ أولى حلقاته على يد عقبة بن نافع الفهري، الذي عرف السبيل لتثبيت أقدام المسلمين في بلاد المغرب. وكان قد عينه معاوية بن أبي سفيان على قيادة الجند في إفريقية سنة (٥٠هـ/ ٦٦٨م). ويتفق المؤرخون على أن بداية ولاية عقبة بن نافع الفهري تمثل مرحلة جديدة من مراحل الفتح الإسلامي في بلاد المغرب(٢).

إن الحملات التي سبقت هذا التاريخ، كانت بمثابة حملات

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٣، صص ٨٨ - ٩١)، وانظر: حسين مؤنس، م.س.، ص١٣٤).
(٢) أبو عُبيَّة. م.س.، (صص٥٩ - ٦٢).

استطلاعية لهذه البلاد وللساكنين فيها، ويمكن القول إنه لم يكن هناك قواعد ثابتة، يرتكز عليها الفتح في إفريقية والمغرب، قبل تأسيس مدينة القيروان، التي استغرق بناؤها من سنة (٥٠هـ/ ٦٧٠م) إلى سنة (٥٥هـ/ ٦٧٥م). وليس من شك في أن بناء المدن الإسلامية في الأمصار المفتوحة مثل البصرة والكوفة في العراق، والفسطاط في مصر، ... إلخ. قد كان له دوره الحاسم، ليس في تثبيت أقدام المسلمين في هذه المناطق، وإنما أيضًا في نشر الإسلام والعروبة، وإخراج أهل هذه المناطق إلى عصر جديد في رحاب الأمة الإسلامية[١].

يقول ابن عذاري عن بناء القيروان: «ثم قال [عقبة:] إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزًا للإسلام إلى آخر الدهر. ووافق من كان معه على رأيه، بأن تكون بعيدة عن البحر حتى لا يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها، وإذا كان بينها وبين البحر ما يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون، فاتفق الناس على ذلك»[٢].

ويذكر النويري: «لما أراد عقبة بن نافع بناء مدينة القيروان وأجابه المسلمون إلى ذلك، أتى بهم إلى موضعها، وكان عقبة مستجاب الدعوة، فدعا الله عز وجل وجعل أصحابه يؤمّنون على دعائه. وكان في عسكره ثمانية عشر رجلًا من أصحاب رسول الله

---

(١) نفسه، (ص٤٢ و٤٤).

(٢) ابن عذاري، م.س.، (ج١، ص١٩). وانظر: ابن الأثير، م.س.، (ج٣، ص٦٣).

ﷺ وأقبل يدعو الله ويقول: اللهم املأها علمًا وفقهًا، واعمرها بالمطيعين والعابدين، وامنعها من جبابرة الأرض. ثم اختط دار الإمارة والمسجد الأعظم. فكملت في سنة خمس وخمسين (٦٧٥م). وسكنها الناس وعظم قدرها»[1]. فكانت حاضرة المغرب الإسلامي كله في عصر الخلافة الأموية.

بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان آل الحكم إلى ولده يزيد. وفي سنة (٦٢هـ/ ٦٨٢م) ولى الخليفة الأموي الجديد على بلاد إفريقية والمغرب كله عقبة بن نافع الفهري، وهي ولايته الثانية على إفريقية. فرحل عقبة من الشام ومعه خمسة وعشرون رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فدار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعو لها ويقول: يا رب املأها عابدين واملأها بالمطيعين لك واجعلها عزًا لدينك وذلًا على من كفر بك. ثم عزم رضي الله عنه على الغزو في سبيل الله وترك بها جندًا من المسلمين، ودعا أولاده فقال لهم: «إني قد بعت نفسي من الله عز وجل وعزمت على من كفر به حتى أُقتل فيه[2] وألحق به. ولست أدري أترونني بعد يومي هذا أم لا، لأن أملي الموت في سبيل الله، وأوصاهم بما أَحَب. ثم قال: عليكم سلام الله. اللهم تقبل نفسي في رضاك». ثم مضى بعسكره.. وهو يستفتح البلدان، ويغزو في سبيل الله. ثم قرر عقبة أن يقصد طنجة.. وكان بها يليان يملك منها إلى ساحل المجاز بسبتة، وكان من

(١) أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، ٣٣ جزءا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤ م، (ج٢٤، صص١٢ - ١٣). وانظر: ابن عذاري، م.س.، (ج١، ص٢٠).
(٢) يعني في سبيل الله.

أشراف ملوك الروم وأعاظمهم. . وسأل منه المسالمة وأن ينزل على حكمه فقبل منه. وبعد طنجة غزا البربر بالسوس الأعلى وهي بلاد تامسا بلاد المصامدة فهزمهم ثم السوس الأقصى حيث اجتمع من البربر أمم لا تحصى فهزمهم[1]. ورأى عقبة البحر المحيط، فقال: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدًا في سبيلك[2].

بيد أن تلك الغزوة الكبرى انتهت باستشهاد عقبة في طريق عودته إلى القيروان سنة (٦٣هـ/ ٦٨٣م). حيث طوقه البربر عند منطقة أوراس بزعامة كسيلة، الذي أخبره الروم بمسير عقبة وقلة جنده بعدما أوعز لبعضهم أن يرجع لأهله، وكان كسيلة مع عسكر عقبة ثم ارتد بعد أن أسلم وخرج على طاعته[3].

ولما ولي عبد الملك بن مروان خلافة بني أمية استشار أصحابه فيمن يكون قائدا على الجيش لاستنقاذ إفريقية، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي، فوجه عبد الملك إليه ليستنقذ من بالقيروان من المسلمين. وفي سنة (٦٩هـ/ ٦٨٩م) أقبل زهير بن قيس البلوي في عسكر عظيم إلى إفريقية، فنجح في إلحاق الهزيمة بالبربر وقتل زعيمهم كسيلة، ودخل القيروان ونظم أمورها، فأغار الروم على برقة بمراكب فدارت بينه وبينهم معركة استشهد فيها زهير[4]. ولما سمع عبد الملك بن

(١) ابن عذاري، م.س.، (صص٢٣ - ٢٦).
(٢) ابن الأثير. م.س.، (ج٤، ص١٠٦).
(٣) ابن عذاري، م.س.، (ص٢٩). وابن الأثير، م.س.، (ج٤، صص١٠٧ - ١٠٨).
(٤) ابن الأثير، م.س.، (ج٤، صص١٠٨ - ١١٠).

مروان بقتل زهير عظم عليه وعلى المسلمين وأهمَّهم ذلك، ثم جهز جيشا كثيرا واستعمل على إفريقية حسان بن النعمان الغساني، وسيرهم إليها في سنة (٧٤هـ/ ٦٩٤م)، فلم يدخل إفريقية قطّ جيش مثله[١].

ولما نزل حسان بن النعمان القيروان سأل أهل إفريقية عن أعظم الملوك بها قدرًا؟ فقالوا صاحب قرطاجنة، فسار حسان وقاتلهم وهزمهم وهرب من فيها من الروم بالمراكب. ثم سأل أهل القيروان عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية، فدلوه على امرأة بجبال أوراس يقال لها الكاهنة يطيعها البربر. فخاض معارك كبيرة، إلى أن تم له النصر الساحق على قوات الكاهنة بجيش عدته أربعون ألف مقاتل، ثم أمعن في مطاردتها والتضييق عليها، بعد أن سحق جيشها وأباده، وقُتلت الكاهنة نفسها في إحدى المعارك. واستطاع حسان بحكمته وقيادته الحكيمة أن يستجلب أعدادًا كبيرة من البربر إلى الإسلام، الذين صاروا يقاتلون في صفوف المسلمين وذلك في سنة (٨٢هـ/ ٧٠٢م)؛ وفي هذه السنة استقامت بلاد إفريقية لحسان ابن النعمان، فدوَّن الدواوين وصالح على الخراج وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[٢].

وقد بذل حسان جهودًا كبيرة في نشر الإسلام، وفي بعث الفقهاء في أنحاء المغرب لتعليم البربر قواعد الدين واللغة العربية، فأقبل البربر على الإسلام حتى أصبح معظم جيش حسان منهم.

---

(١) نفسه، (ج٤، ص٣٦٩).

(٢) ابن عذاري، م.س.، (صص٣١ - ٣٨).

*** استكمال فتح المغرب الأقصى:**

وفي سنة (٨٦هـ/ ٧٠٥م) توفي عبد الملك بن مروان وخلفه ولده الوليد، الذي استعمل موسى بن نُصَير على إفريقية، فخرج غازيًا إلى طنجة يريد من بقي من البربر. فتبعهم حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد، فاستأمن البربر إليه وأطاعوه، واستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد وجعل معه جيشًا كثيفًا جلهم من البربر، وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض، وعاد إلى إفريقية[١].

*** فتح الأندلس:**

غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الأندلس في اثني عشر ألفًا، فلقي ملك الأندلس بجميع من معه واقتتلوا قتالًا شديدًا، فقتل الملك، وفتحها سنة (٩٢هـ/ ٧١١م). ويذكر ابن الأثير أن طارقًا رأى رؤية استبشر فيها بالنصر فقال: «ولما ركب طارق البحر غلبته عينه، فرأى النبي ﷺ ومعه المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، فقال له النبي ﷺ: يا طارق تقدم لشأنك. وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد، فنظر طارق فرأى النبي ﷺ، وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه، فاستيقظ من نومه مستبشرًا، وبشر أصحابه، وقويت نفسه، ولم يشك في الظفر»[٢]. وتنقل طارق من نصر إلى نصر ففتح قرطبة وطليطلة.

وفي سنة (٩٣هـ/ ٧١٢م) دخل موسى بن نصير الأندلس في

---

(١) ابن الأثير، م.س.، (ج٤، ص٥٤٠).
(٢) نفسه، (ج٤، ص٥٦٢).

جمع كثير، وكان قد بلغه ما صنع طارق فحسده، فلما عبر إلى الأندلس ونزل الجزيرة الخضراء قيل له: تسلك طريق طارق، فأبى، فقال له الأدلاء: نحن ندلك على طريق أشرف من طريقه ومدائن لم تفتح بعد[١]، وأوغل في بلاد الفرنج، فافتتح عدة من المدن. ثم انصرف موسى من الأندلس إلى إفريقية بما أفاء الله عليه فأجاز الأموال من الذهب والفضة والجواهر في المراكب إلى طنجة ثم حملها على العجلات[٢]. واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى، فلما عبر البحر إلى سبته استخلف عليها وعلى طنجة وما والاهما ابنه عبد الملك، واستخلف على إفريقية وأعمالها ابنه الكبير عبد الله، وسار إلى الشام، وحمل الأموال التي غنمت من الأندلس[٣].

(١) نفسه، (ج٤، ص٥٦٤).
(٢) ابن عذاري، م.س.، (صص٤١ - ٤٣).
(٣) ابن الأثير، م. س.، (ج٤، صص٥٦٢ - ٥٦٦).

المبحث الأول:

بداية الحركة العلمية في الغرب الإسلامي

لما كان هدف الفتح الإسلامي لأي بلد من البلدان هو نشر الدين الحنيف، كان يقوم بهذه المهمة الصحابة الفاتحون فيعلمون القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ وأمور العبادات، وكانت همتهم في التعليم منطلقًا لحركة علمية عظيمة، عمت أرجاء الغرب الإسلامي كله بنشر الإسلام وبداية شيوع اللغة العربية بين أبناء البلاد المفتوحة، من خلال من كان يرافق هذه الحملات من علماء الصحابة والتابعين من القراء والحفاظ وأهل الحديث.

يتحدث حسن حسني عبد الوهاب عن أن علم الشريعة أول ما ظهر في إفريقية وخاصة في القيروان، على يد الصحابة والتابعين الوافدين على المغرب إبان الفتوح، وعن هؤلاء كان تسلسل السند، فتلقاه منهم ناشئة العرب المولدون، وأبناء الأفارقة والبربر ممن دخلوا في الإسلام، فما يكاد هذا النشء يحفظ القرآن، حتى يروي عن أولئك الفاتحين ومن إليهم سنة رسول الله ﷺ(١).

١- البعثات الدينية:

فكان هؤلاء الصحابة والتابعون معلمين للأجيال الحلال

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب، الإمام المازري، دار الكتب الشرقية، تونس، ١٩٥٥، (ص١٠).

والحرام، لا سيما في معسكرات الجهاد التي كانت يومئذ أشبه بمدارس متنقلة. وكان فيهم من ينتدب رسميًا من دار الخلافة، مما يمكن تسميته ببعثات الإقراء والتعليم المنظم[(١)]. ثم مع مرور الزمن كثرت الوسائل وتنوعت بحسب المكان والزمان والرجال الذين يقومون بهذه المهمة.

ونضرب لذلك مثلا ببعثة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، الذي أرفق إحدى الغزوات بعشرة من التابعين الذين نزلوا بإفريقية لتعليم الناس، وما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهر علماء معروفون بنبوغهم وعلو شأنهم. فكانت هذه البعثة أكثر البعثات أثرًا، وقد وجه على رأسها قارئًا جليلًا هو إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر[(٢)]. الذي ذكره ابن خلدون في تاريخه، إذ كان بين العرب الذين تركهم موسى بن نصير في طنجة، وأمرهم أن يعلموا البربر القرآن والفقه، ثم أسلم بقية البربر على يده سنة (١٠١هـ/ ٧١٩م)[(٣)]؛ يروي عن عبد الله بن عمر، وفُضالة بن عبيد، وروى عنه الأوزاعي بالشرق، وعبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم وغيره بالقيروان، مات بالقيروان سنة (١٣٣هـ/ ٧٥٠م)[(٤)].

---

(١) عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع عند المغاربة من رواية أبي سعيد ورش مقوماتها البنائية ومدارسها الأدائية إلى نهاية القرن العاشر الهجري. ط١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، الرباط، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، (ج١، ص٣٦).
(٢) نفسه، (ج١، صص٣٩).
(٣) ابن خلدون، م.س.، (ج٦، ص١١٠).
(٤) حسن حسني عبد الوهاب، الإمام المازري، (صص١٠ - ١١). وعبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع، (ج١، ص١٠).

والأعداد كانت كبيرة من الصحابة والتابعين ممن كان يروي عن جماعة من مشاهير الصحابة، منهم جاء للفتح ورجع إلى بلاده ومنهم من بقي بعد الفتح، والمقام يطول بذكرهم. وما من واحد من «العشرة التابعين» إلا كان يروي الحديث عن الصحابة، ويتقن التفسير والفقه، وإلا اتخذ دارًا لسكناه، ومسجدًا لصلاته، وكتّابًا لتعليم الناشئة، وقد تفقه على أيديهم جمع كبير، هم المربون الأولون لأبناء البلاد، وهم الذين لقنوهم علوم الشريعة. ومما هو جدير بالملاحظة أن رواية الأفارقة للحديث كانت أكثر ما كانت بطريق المدنيين وسندهم، ويرى حسن حسني عبد الوهاب أن ذلك هو السبب الأصيل في ميل الأفارقة من بعد إلى الأخذ بآراء أهل المدينة في الفقه، وإيثار الكثير منهم لمذهب مالك بن أنس(١).

٢- تأسيس المراكز العلمية:

في خضم هذا النشاط، تشكلت المراكز العلمية التي ذاع صيتها في الآفاق، فكانت جامعات علم ومعرفة تميزت بها ثلاث نواح في الغرب الإسلامي: القيروان في إفريقية، والقرويين بفاس في المغرب الأقصى، وقرطبة في الأندلس، من غير إغفال لدور المساجد والكتاتيب والرُبُط على الثغور التي كانت من جملة الوسائل التي عملت على نشر العلوم الدينية.

وامتلأت المراكز العلمية في هذه المدن، بالكتب والمصنفات في مختلف فروع العلم والمعرفة. وأسس علماء أهل السنة من خلالها مدرسة واسعة، حدودها أرجاء الغرب

(١) حسن حسني عبد الوهاب، الإمام المازري، (ص١٣ و١٥).

الإسلامي، من إفريقية إلى الأندلس، فأخذوا يدرِّسون ويؤلِّفون ويترجمون.

وأظهرت هذه الحركة العلمية نهضة واسعة، مهدت لظهور علماء كثر، في كل صنف من أصناف العلوم. وهذه الطريقة كانت الأبرز في تثبيت وحدة العالم الإسلامي شرقًا وغربًا في حضارة واحدة تحمل الأسس العلمية التي تميز هذه الأمة عن غيرها من الأمم.

٢- (١) جامع القيروان:

يذكر المراكشي (ت٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م): «كانت القيروان هذه في قديم الزمان، منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب[(١)]، دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم، وقد ألّف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتبًا مشهورة. فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها في كل وجه، فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صقلية والأندلس، وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس فعقبهم بها إلى اليوم»[(٢)].

وقد اعتمد عقبة بن نافع الفهري رحمه الله في فتوحه على مدينة القيروان التي بناها لتكون قاعدة ارتكاز آمنة لاستكمال

---

(١) قام بتخريبها بنو هلال وبنو سليم الذين كانوا يسكنون في صعيد مصر، وقد قاموا بذلك بإيعاز من الملك العبيدي في مصر وسنذكر ذلك في حينه في بداية الباب الثاني من هذا البحث.

(٢) عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ط١، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م، (ص٢٥٥).

بقية الفتوح في الغرب الإسلامي، ودعا دعاءه المشهور: «اللهم املأها علمًا وفقهًا، واعمرها بالمطيعين والعابدين، وامنعها من جبابرة الأرض»[١].

ولا شك أن القيروان تميزت بمن سكن فيها من المحدثين والفقهاء، الذين نشروا العلم بين أهلها، ومن يفد إليها لطلب العلم من بلاد الأندلس والمغرب الأقصى بطريقهم إلى الحج، فكانت هذه الحركة من العوامل المهمة في نشر العلوم الدينية.

ومثل المراكز العلمية الأخرى في الشرق الإسلامي، صارت القيروان محط أنظار الوافدين لطلب العلم من الأندلس والمغرب وصقلية. يتلقون العلم ثم يعودون إلى أوطانهم معلمين ومرشدين، «فكان لها الدور البارز في نشر العلم والحضارة، خاصة وأن جامعتها بمسجد عقبة بن نافع الفهري كانت الأولى من نوعها، فعم إشعاعها كل بلاد الغرب الإسلامي إلى الأندلس، وقد ظلت المنار الذي يشيع نوره على كل هذه الأقطار، إلى أن خلفتها جامعة القرويين بفاس ثم جامعة الزيتونة بتونس»[٢].

---

(١) أحمد بن عبد الوهاب النويري، م.س.، (ج٢٤، صص١٢ - ١٣). وانظر: ابن العذاري، م.س.، (ج١، ص٢٠). وياقوت الحموي، معجم البلدان. ٥ أجزاء، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، م٤، (صص٤٢٠ - ٤٢١).

(٢) محمد الفاسي، «أبو عمران الفاسي والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس»، ضمن كتاب: أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي، بحوث الندوة العلمية التي نظمها مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء بمناسبة مرور ألف عام على وفاة أبي عمران الفاسي، جزءان، ط١، الرباط، ١٤٠٠هـ - ٢٠١٠م)، (ص٣٨٣).

٢- (٢) جامع وجامعة القرويين:

وتعتبر جامعة القرويين نفسها من بركات مدينة القيروان، أتى وفد القيروان مع الأسر التي هاجرت في جمع كثير بعيالهم وأولادهم سنة (١٩٣هـ/ ٨٠٩م) فأنزلهم إدريس في الضفة الغربية من المدينة، وهي البقعة التي خصص إقامته بها «فعُرفت بعدوة القرويين.. وكان في عداد المهاجرين القيروانيين الذين التجأوا إلى فاس منذ الأيام الأولى للإمام إدريس بن إدريس فريق من أسرة فهرية، لم يلبث أن التحقت بقية أفراد الأسرة في أيام الإمام يحيى الأول حفيد إدريس، ومن بين هؤلاء الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الفهري القيرواني الذي أدركه أجله بعد وصوله، [وكان له ابنتان] فاطمة أم البنين ومريم.. وكانتا على جانب من العلم والفضل»(١). ثم قامت فاطمة أم البنين بشراء أرض وبنت عليها جامع القرويين(٢).

ويذكر عبد الهادي التازي عن موقع مدينة فاس في العالم الإسلامي من خلال الإقبال على بناء المدارس في عهدي المرابطين والموحدين، «فبعد ثلاث سنوات من تأسيس المدرسة النظامية [ببغداد] عرفت فاس مدارس احتضنت الآفاقيين الذين يردون بقصد الدرس من سائر أطراف البلاد، تحاكي تلك المدارس ما اصطلحوا على تسميته بالأحياء الجامعية.. فازدهرت المعارف على عهدهم»(٣).

---

(١) عبد الهادي التازي، جامع القرويين المسجد والجامعة، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري، ط٢، دار نشر المعرفة، الرباط، ٢٠٠٠، (ج١، ص٤٦).

(٢) نفسه، (ج١، ص٤٦).

(٣) نفسه، (ج١، صص١٢١ - ١٢٢).

وتعد جامعة القرويين من أعظم جامعات العالم الإسلامي، التي حملت رسالة العلم والإصلاح، وكان لها الأثر البالغ في حياة المغاربة، وامتد إلى بلاد أخرى، ثم إن وجودها بفاس جعل منها قلعة من قلاع الإسلام العتيدة التي دافعت عن الإسلام واللغة العربية. وكان من أثر هذه المؤسسة ونجاحها أنْ أَوْلاها كل الملوك الذين تعاقبوا على عرش المغرب اهتمامًا كبيرًا بالعناية بالعلماء، وبناء المدارس للتخصص ولإيواء الطلبة، فنشطت الحركة العلمية بهذه المدينة، وغدا يؤم جامعتها الطلاب من كل الأصقاع، وأخذ العلماء يشدون إليها الرحال، فعمت الحركة العلمية بجامع القرويين وبالمدارس التابعة لها(١).

ويحضرني أن أذكر الدعاء الذي ذكره إدريس في خطبة الجمعة بعد فراغه من بناء مدينة فاس، والذي قال فيه: «اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ولا مفاخرة ولا سمعة ولا مكابرة، وإنما أردت ببنائها أن تُعبَدَ بها ويتلا بها كتابك، وتقام بها حدودك وشرائع دينك وسنة نبيك ﷺ ما أبقيت الدنيا، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير وأعنهم عليه، واكفهم مؤونة أعدائهم، وأدر عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق والنفاق، إنك على كل شيء قدير»(٢).

٢- (٣) قرطبة: الجامع والمكتبة:

وفي الأندلس، تمت توسعة مسجد قرطبة في عهد عبد الرحمٰن الداخل سنة (١٧٠هـ/ ٧٨٧م)، وزيد عليه في العمارة حتى أُنجز

(١) عبد المجيد بوكاري، محقق كتاب محمد عبد الحي الكتاني، ماضي القرويين ومستقبلها، من المقدمة (ص٣).

(٢) ابن أبي زرع، م. س.، (ص٤٩).

بحلته المعروفة والسواري الثمانين، التي تميز هندسته المعمارية الجميلة، في عهد عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل سنة (٢٣٤هـ/ ٨٤٨م)[١]، ليشتهر مركزًا من مراكز التعليم الكبرى في الأندلس. وأصبحت قرطبة في أوج تألقها الحضاري والثقافي، أثناء حكم الأمويين في عهد عبد الرحمٰن الناصر الذي ولي قرطبة سنة (٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، وبدأ معه عهد الازدهار الكبير[٢]، وابنه الحكم المستنصر من بعده الذي بويع بعد وفاة أبيه الناصر سنة (٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، وكان موهوبًا في مسائل العلم، وقد نهض بالحركة العلمية في الأندلس إلى أعلى مستوى بلغته[٣]، فنافست قرطبة آنذاك كبار العواصم المعروفة في وقتها في دول الدنيا. فقد أنشأ الحكم المستنصر مكتبة قرطبة، وأنفق عليها الأموال الطائلة، وجلب إليها الكتب من مختلف الأمصار، وحاول أن يجعل من مكتبته هذه مكتبة متميزة في مقتنياتها[٤].

وقد شهد التعليم في عهد الحكم المستنصر نهضة عظيمة، فانتشرت بين أفراد الشعب معرفة القراءة والكتابة، بينما كان لا يعرفها أرفع الناس في أوربا باستثناء رجال الدين، فكان يتخذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع، وبكل ربض من أرباض قرطبة. وأجرى

---

(١) ابن عذاري، م.س.، (ج٢، ص٢٣٠).

(٢) حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الأندلس تاريخ وفكر وحضارة وتراث. جزءان، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، (ج١، ص١١٢).

(٣) نفسه، (ج١، ص٣٤٣).

(٤) ربحي مصطفى عليان، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. ط١، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، (ص١٥٨).

عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم. وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبًا، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كل ربض من أرباض المدينة. وفي ذلك يقول ابن شخيص من البسيط:

وسـاحَـةُ الـمَـسْـجِـدِ الأعـلَـى مُـكَـلَّـلـةٌ
مَـكَـاتِـبًـا لـلـيَـتـامَـى مِـنْ نَـوَاحـيـهـا
لَـوْ مُـكِّـنَـتْ سُـوَرُ الـقُـرآنِ مِـنْ كَـلِـمٍ
نـادَتْـكَ يَـا خَـيْـرَ تَـالِـيـهـا ووَاعِـيـهـا[1]

٢- (٤) الكتاتيب:

وكان من عناية المعلمين الأوائل بنشر الإسلام وتعليم كتاب الله تعالى واللغة العربية تأسيس المدارس، التي يطلق عليها اسم الكتاتيب أو الكتّاب. وكان يلحظ تكاثرها وتعددها حتى لم يخل منها درب من الدروب أو حي من الأحياء، ولا عجب ان اعتبرت كملحقات بالمساجد وتوابع لها[2].

وفي «معالم الإيمان» للدباغ وابن ناجي: «حكى غياث بن أبي شبيب قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر علينا ونحن غِلْمَة بالقيروان، فيسلم علينا في الكتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه»[3].

---

(١) ابن عذاري، م.س.، (ج٢، صص٢٤٠ - ٢٤١).

(٢) حسن حسني عبد الوهاب، محقق كتاب: آداب المعلمين لمحمد بن سحنون. (ص٣٧).

(٣) عبد الرحمٰن بن محمد الأنصاري الدباغ وعيسى بن ناجي التنوخي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. ٥ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، (ج١، ص١٥١).

وحينما ولي إسماعيل بن أبي المهاجر إفريقية في سنة (١٠٠هـ/ ٧١٨م)، من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فكان خير أمير وخير وال، كان حريصًا على دعاء البربر إلى الإسلام حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه. فهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام. وكان قد بعث معه عمر رضي الله عنه عشرة من التابعين، أهل علم وفضل، منهم عبد الرحمٰن بن نافع، وسعد بن مسعود التجيبي، وغيرهما[١].

ومع انتشار العلم وشدة العناية بتعليم الصغار، كان جمعهم ابتداء في المساجد، ولكن مع تكاثر هؤلاء الطلبة، حدث أن أُخرجوا من المساجد، وصار لهم كتاتيب خارج المساجد وملحقة بها.

فالتطورات التي عرفها تعليم القرآن لهذا العهد، اقتضى اتخاذ مكاتب أو كتاتيب وملحقات خاصة لهذا الغرض في أجنحة المساجد أو في بعض أروقتها، وتعميم ذلك في عامة القرى. وأحيانًا كانت تفصل عن المساجد احتياطًا لها، لما يمكن أن يحدثه وجود المتعلمين في المسجد في أثناء الصلوات من تشويش على المصلين، أو يؤدي إليه هذا الوجود من إتلاف للمرافق العامة للمسجد، كالفرش وآنية الوضوء والمياه ووسائل الإنارة والمصاحف المحفوظة بالخزائن[٢].

فصارت الحاجة ملحة لتنظيم التعليم المنتشر بين الأحياء، فألف محمد بن سحنون «آداب المعلمين»، مما تعلمه محمد

(١) ابن عذاري، م.س.، (ج١، ص٤٨).
(٢) عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع، (ج١، ص٥٠).

من والده سحنون الذي كان قاضيًا تولى القضاء فترة طويلة، وكان له باع في تنظيم أمور يُحتاج إليها. وكان رحمه الله قد فرَّق حلق أهل البدع، وشرد أهل الأهواء من المسجد، من الخوارج الصفرية والإباضية المغيرية، وكانوا فيه حلقًا، يتناظرون فيه ويُظهرون زيفهم، وعزلهم أن يكونوا أئمة للناس، أو معلمين لصبيانهم أو مؤذنين، وأمرهم أن لا يجتمعوا[١].

وكذلك ألف أبو الحسن القابسي «الرسالة المفصلة في أحوال المعلمين». وهناك من دوّن برامج الدراسة وبين اختلافها بين النواحي في بعض الصفات[٢].

٣- العناية بتنظيم الربط على الثغور:

كانت السواحل في إفريقية والمغرب تتعرض دائمًا لغارات متتابعة من الروم والبيزنطيين، ومن هنا جاءت الحاجة إلى تحصين المدن وإقامة القلاع والأسوار وتحصين السواحل بالمحارس والحصون التي يطلق عليها لفظ «القصور». وقد اعتبر عبد الهادي حميتو الكتاتيب والربط من العوامل المهمة في نشر التعليم[٣].

وقام مشايخ الصوفية بإقامة الرباطات التي كانت مأوًى للزهّاد والعبّاد وطالِبي القرب من الله بمجاهدة أعدائه. فكان أهل هذه الرباطات من المريدين يحيون فيها في رباط دائم، وجهاد لا تخبو جذوته، فهم في معظم الوقت في الجهاد

---

(١) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج١، صص٣٤٧ - ٣٤٨).
(٢) عبد الهادي حميتو، قراءة الإمام نافع، (ج١، ص٥٦).
(٣) نفسه، (ج١، صص٤٠ - ٤٤).

الأكبر، وهو جهاد النفس، فإن طرأ العدو كانوا على أهبة الاستعداد لمناجزته.

فلا مبالغة إذن فيما يذكره المؤرخون من أن سواحل تلك البقعة من ديار الإسلام كانت عامرة بتلك المحارس والرباطات، واستمر ذلك لعدة قرون بعدها.. فكانت النيران توقد بالليل في هذه الرباطات من رباط إلى آخر عند التعرض لهجوم النصارى، فما أسرع ما ينتقل الخبر على طول السواحل، ومنها إلى داخل البلاد، فيسير النفير العام والخروج لملاقاة العدو.

انتشرت هذه الرباطات والمحارس على طول الساحل من بجاية إلى طرابلس في ظل دولة بني الأغلب، وكان أكبرها وأشهرهاجميعا «رباط المنستير» أو «القصر الكبير»[١].

٤- تأسيس الفقه على مذهب مالك بن أنس:

كان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقية أظهر المذاهب، فحمل المعز جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وحسم مادة الخلاف من ذلك الوقت إلى الآن[٢].

فكانت السيادة الكبرى بين المدارس الفقهية للمذهب المالكي لأسباب عديدة. فقبل رحلة سحنون إلى المشرق كانت إفريقية قد غمرها مذهب مالك بن أنس، لأنه رحل إليها أكثر

---

(١) محمد خالد ثابت، أبناء الخالة أولياء الله الثلاثة. ط١، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، (ص١٠).

(٢) ابن خلكان، م.س.، (ج٥، صص٢٣٣ - ٢٣٤).

من ثلاثين رجلًا، كلهم لقي مالك بن أنس[١].

وينقل صاحب «الاستقصا» من بعض التآليف[٢] أن «سبب ظهور مذهب مالك بالأندلس والمغرب، أن بعض حجاج المغرب والأندلس قدموا على مالك رضي الله عنه بالمدينة، فسألهم عن سيرة عبد الرحمٰن بن معاوية المعروف بالداخل، فقيل له: إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله، فقال مالك: ليت الله زين حرمنا بمثله، فنقم عليه بنو العباس هذه المقالة، وكان ذلك سبب توصلهم إلى ضربه في مسألة الإكراه، كما هو مشهور وبلغت مقالته صاحب الأندلس، فسر بها وجمع الناس على مذهبه، فانتشر في أقطار المغرب من يومئذ والله أعلم»[٣].

ويعتبر عياض: أن إفريقية وما وراءها من المغرب، كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين، إلى أن دخل علي بن زياد وأبن أشرس والبهلول بن راشد، وبعدهم أسد بن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه وفض حلق المخالفين واستقر المذهب بعده في أصحابه فشاع في تلك الأقطار إلى وقتنا هذا[٤].

---

(١) عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج١، ص٣٤٢).
(٢) لم يذكر مصدره.
(٣) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. ٣ أجزاء، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، (ج١، ص١١٤).
(٤) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج١، ص١٥).

٥- أوائل العلماء الذين نشروا مذهب مالك بن أنس:

٥- (١) يحيى بن يحيى الليثي:

يحيى بن يحيى بن كثير أبو محمد الليثي (**١٥٢هـ - ٧٦٩م/ ٢٣٤هـ - ٨٤٩م**)، أصله من البربر من قبيلة مصمودة، تولى بني ليث فنُسب إليها، وجده كثير يكنى أبا عيسى وهو الداخل الأندلسي. رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة، فسمع مالك بن أنس وسفيان بن عيينة والليث بن سعد وعبد الرحمٰن بن القاسم بن عبد الله بن وهب، كما سمع من نافع بن أبي نعيم القارئ ومن القاسم بن عبد الله العمري، وتفقه بالمدنيين والمصريين من أكابر أصحاب مالك بن أنس، بعد انتفاعه بمالك وملازمته، وكان مالك يسميه عاقل الأندلس، وكان سبب ذلك أنه كان في مجلس مالك مع جماعة من أصحابه، فيخبر شخصٌ أنّ فيلًا يمر في الشارع، فخرج من في المجلس وبقي يحيى، فقال له مالك: ما لك لم تخرج لتنظر الفيل وهو لا يكون في بلادك؟ فقال له: لم أرحل لأبصر الفيل وإنما رحلت لأشاهدك وأتعلم من علمك وهديك. فأعجبه ذلك منه وسماه عاقل الأندلس. وإليه انتهت الرئاسة بالفقه في الأندلس، وبه انتشر مذهب مالك، وتفقه به جماعة لا يحصون وكان يفتي برأي مالك وقوله، إلا في بعض المسائل أخذ فيها بقول الليث بن سعد[١].

---

(١) أحمد بن يحيى الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، جزءان، ط١، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب العربي بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، (ج٢، ص٦٨٥).

٥- (٢) علي بن زياد:

تؤكد المصادر أن علي بن زياد (ت١٨٣هـ/ ٨٠٠م) هو الذي تزعم المدرسة الفقهية المغربية، فإليه يرجع الفضل في تأسيس مدرسة للفقه المالكي، سواء في القيروان أو بقية أمهات المدن الأخرى، فهو الذي شيد هذا الصرح العلمي العظيم الباقي على مر الأيام، رغم العوارض والكوارث والمناوئين من أهل البدع الكائدين للسنة(١).

هو أبو الحسن علي بن زياد من أهل تونس، كان ثقة، مأمونًا فقيهًا خيارًا، متعبدًا بارعًا في الفقه. سمع من مالك بن أنس، ومن سفيان الثوري، ومن الليث بن سعد، ومن ابن لهيعة، وغيرهم. ولم يكن في عصره بإفريقية مثله. سمع منه البهلول بن راشد، وسحنون، وشجرة بن عيسى، وأسد بن الفرات الذي كان يدعو الله لعلي بن زياد مع والديه، لأنه أول من تعلم منه العلم(٢).

---

(١) محمد بوزغيبة، تقديم كتاب وقائع الندوة العلمية التونسية المغربية المشتركة الثانية بعنوان: المذهب المالكي وأثره في توحيد ممارسة الشعائر الدينية: جهود علماء القيروان والقرويين (٣٠ ربيع الأول و١ ربيع الآخر ١٤٣١هـ الموافق١٦و١٧ مارس ٢٠١٠م بالقيروان) منشورات وزارة الشئون الدينية في الجمهورية التونسية إدارة الدراسات والتكوين والاتصال، تونس٢٠١٢م، (صص٥ و٦).

(٢) محمد بن أحمد بن تميم المشهور بأبي العرب تميم. طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (ص٢٥١). وانظر: عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم. جزءان، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، (ج١ - ص٢٣٤).

٥- (٣) أسد بن الفرات:

أصله من خراسان وولد بحران سنة (١٤٢هـ/ ٧٦٠م)، دخل القيروان مع والده في جيش «ابن الأشعث» سمع من علي بن زياد «الموطأ» وتعلم منه العلم. ثم ارتحل إلى المشرق ولقي مالكًا وواظب عليه وطلب عليه العلم وسمع منه الموطأ. ثم ارتحل إلى العراق فلقي أصحاب أبي حنيفة. وبعد وفاة مالك وصل إلى مصر ولزم ابن القاسم وأخذ عنه «الأسدية». تولى قضاء إفريقية لإبراهيم بن الأغلب سنة (٢٠٣هـ/ ٨١٩م)، فأقام قاضيًا عليها يقضي بين أهلها بالكتاب والسنة. حتى خرج لغزو صقلية فجاهد في الروم وقاتلهم قتالًا عظيمًا، وافتتح منها مواضع كثيرة. ثم توفي من جراحات أصابته وهو محاصر لسرقوسة سنة (٢١٣هـ/ ٨٢٩م)[١].

٥- (٤) البهلول بن راشد:

أبو عمرو البهلول بن راشد كان ثقة مجتهدًا ورعًا، رُوي عنه أنه كان مستجاب الدعوة، وكان عنده علم كثير، سمع من مالك بن أنس، ومن سفيان الثوري، ومن عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم، ومن موسى بن علي بن رباح، ومن الليث بن سعد، ومن الحارث ابن نبهان، يذكر أبو العرب تميم: «إن البهلول بن راشد روى «جامع سفيان الكبير» عن علي بن زياد عن سفيان»[٢].

---

(١) المالكي، م.س.، (ج١، صص٢٥٤ - ٢٥٥). وانظر: أبو العرب تميم. م.س.، صص٨١ - ٨٣). وعياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج١، صص٢٧٤ - ٢٧٧).

(٢) أبو العرب تميم، م.س.، (ص٥٢). وأنظر عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج١، صص٢٧٣ - ٢٧٤).

٥- (٥) سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي:

من شيوخ أهل إفريقية، أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي. من صليبة العرب، وأصله من الشام من أهل حمص، وأبوه سعيد قدم مع الجند، وهو من جند أهل حمص، كان جامعًا للعلم، اجتمعت فيه خلال ما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم، والسماحة والترك، لا يقبل من السلطان شيئًا.

وكان أول من شرد أهل الأهواء من المسجد الجامع، وكانوا فيه حلقًا للصفرية والإباضية مظهرين لزيغهم. وكان حافظا للعلم، ولم يكن يهاب سلطانًا في حق يقيمه. لقي في الفقه ابن القاسم، وأشهب وغيرهما، ولقي في الحديث سفيان بن عيينة، وابن وهب، وأنس بن عياض، ووكيع بن الجراح، وعبد الرحمٰن ابن مهدي، ويزيد بن هارون، والوليد بن مسلم، وغيرهم.

ولي القضاء سنة أربع وثلاثين ومائتين (٨٤٩م) وهو يومئذ ابن أربع وسبعين سنة. وأقام قاضيا ست سنين، ولم يأخذ على القضاء أجرًا.

وكان خروجه في طلب العلم أول سنة ثمان وثمانين ومائة (٨٠٤م)، وكان قدومه إفريقية سنة إحدى وتسعين ومائة (٨٠٧م). وتوفي رحمه الله يوم الثلاثاء لسبعة أيام مضت من رجب سنة أربعين ومائتين (٨٥٤م)[١].

---

(١) أبو العرب تميم، م.س.، (صص١٠١ - ١٠٢). وعياض، ترتيب المدارك، (ج١، ٢١٧).

ومن تقديره لمعلمه البهلول كان يردد: «إنما اقتديت في ترك السلام على أهل الأهواء والصلاة خلفهم بمعلمي البهلول». وفي مدحهما ذكر أبو عثمان سعيد بن الحداد: «ما كان بهذا البلد أحد أقوم بالسنة من رجلين بهلول في وقته وسحنون في وقته»[(١)].

ذكر أحد الباحثين: «ويرجع الفضل للإمام سحنون في تنظيم الدراسة في [جامع عقبة بالقيروان] على منهج السنة، بعد أن كانت تعمه الفوضى التي عمت المغرب كله نتيجة لوجود الخوارج، ومعاداتهم لأهل السنة، ومحاولاتهم فرض عقائدهم الزائغة عليهم»[(٢)].

أما في المغرب الأقصى فكان دخول المذهب إليه متأخرًا عن دخول الأندلس وإفريقية. وكان دخوله على خطوات متتالية بحسب الأوضاع السياسية التي سادت تلك البلاد[(٣)].

إن الأسلوب الذي عمل به كل من علي بن زياد وبهلول بن راشد وسحنون ومن مثلهم من أهل العلم، كان يرتكز على تعليم كتاب الله منذ الصغر، مع الخط والكتابة ثم حديث رسول الله ﷺ، والأمور العقدية والفقهية على مذهب مالك. هذه الأساليب التعليمية المتدرجة، كانت كفيلة بتربية شخصية إسلامية متماسكة وحصينة، تستطيع أن تحافظ على عقيدتها

(١) المالكي، م.س.، (ج١، ص٢٠٣).
(٢) محمد خالد ثابت، م.س.، (ص١١).
(٣) محمد بن حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي. ط١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية، الرباط، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، (صص٥٢ - ٥٦).

ودينها في وجه الأخطار العاتية، التي واجهها أهل الغرب الإسلامي لدى أهل البدع التي انتشرت بين ظهرانيهم، والأدلة على ذلك كثيرة، فحروبهم المستمرة مع الخوارج من صفرية وأباضية وجماعة البرغواطيين، كانت بسبب هذا التماسك العقدي، الذي كان يتحلى به شباب الغرب الإسلامي ومجتمع أهل السنة والجماعة، إضافة للقيام بالفتوحات في الأماكن التي تسنى لهم القيام بها، وأيضًا رباطهم على الثغور لحماية بيضة الإسلام.

٥- (٦) أخبار الأسدية والمدونة:

عندما توفي مالك بن أنس رحمه الله، أتى أسد بن الفرات إلى عبد الرحمٰن بن القاسم، فصار يسأله ويجيبه ابن القاسم، حتى دوّن ستين كتابًا وسماها «الأسدية». ولما قدم أسد إفريقية أظهر الكتب وأسمعها الناس وانتشرت بإفريقية. وكان سحنون ومحمد بن رشيد يكتبانها، فلما سمع أسد بذلك شحَّ على الكتب ولم يعطها لأحد. ثم حصَّلها سحنون عن طريق أحد أصدقائه.

رحل سحنون إلى ابن القاسم وقد تفقه في علم مالك. وطلب منه سحنون أن يسمع منه كتب أسد، فسمعها عليه. وأسقط منها ما كان يشك فيه من قول مالك، وأجابه فيه على رأيه. وكتب إلى أسد أن عارض كتبك على كتب سحنون فإني رجعت عن أشياء مما رويتها عني. فغضب أسد وترك سماعها، وذُكر أن بعض أصحاب أسد دخل عليه وهو يبكي، فسأله، فأخبره بالقصة، وقال أعرض كتبي على كتبه وأنا ربيته؟

وبسبب ذلك، اقتصر الناس على التفقه في كتب سحنون،

فنظر فيها نظرًا آخر وهذبها وبوّبها ودونّها، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما أختار ذكره، وذيّل أبوابها بالحديث والآثار إلا كتبًا منها مفرقة بقيت على أصل اختلاطها في السماع، فهذه هي كتب سحنون المدونة والمختلطة. وهي أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها، عند المغاربة، وإياها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم، ونُسيت الأسدية فلا ذكر لها الآن[١].

(١) المالكي، م.س.، (ج١، صص٢٦١ - ٢٦٣). وانظر: عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج١، صص٢٧٣ - ٢٧٤).

المبحث الثاني:

ارتباط العقيدة الأشعرية بمذهب مالك بن أنس

من خلال مطالعة مجموعة من المؤلفات التي تتحدث عن انتشار العقيدة الأشعرية في الغرب الإسلامي، لاحظنا إشكالا في عدم فهم بعض المصطلحات المهمة، التي تؤثر في منهج العمل في التأريخ للبحوث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، فإن عدم وضوح هذه المصطلحات أدى إلى نتائج سلبية لا تؤيد البحث العقدي السليم، ولا تؤدي إلى الفهم الواضح لكثير من مشاكل الأمة.

١- مراجعات في المصطلحات:

وسأحاول في الصفحات التالية توضيح بعض مصطلحات الأشعرية، خصوصًا تلك التي يحاول أهل البدع استعمالها لمآرب يحاولون فيها نصرة عقيدتهم التي تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة، وتحديدا: مفهوم «السلف والخلف» «والسلفية» «وأهل السنة والجماعة»، ومعنى «تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين» وماذ يقصدون «بأمروها كما جاءت بلا كيف»، وماذا يقصدون بظاهر النصوص والمحكم والمتشابه والإثبات والتفويض والتأويل.

استعمل علماء الإسلام قديما هذه المعاني، ويجري استعمالها حديثًا من قبل البعض، بقوالب محرَّفة تحمل في طياتها أهدافًا منهجية للحالات الشاذة التي نشأت في جسم

الأمة خلال مرحلة من التاريخ، نشأت فيها مجموعة من فرق أهل البدع، تحمل أفكارًا دخيلة على عقائد الدين الحنيف، الذي كان عليه رسول الله محمد ﷺ وصحبه الكرام؛ وما تفرع عنها حتى وصلت إلى زماننا هذا بمسمّيات جديدة تُمَوَّه بها المقاصد ويصعب كشفها إلا على الباحث المتبصر. وكل ما نذكره هنا سنبيّنه في هذا المبحث بالأدلة والبراهين المعينة إن شاء الله.

١- (١) معنى «تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين»:

إن أصول الاعتقاد هي التي تميز التعريف الواضح والسليم لأهل السلف، فاعتقادهم ولا شك هو اعتقاد رسول الله محمد ﷺ، وهنا مدار الأمر كله والمحور الذي يجري عليه بحثنا في هوية السلف.

فاعتقاد المسلمين أساسه وعماده، بل ركنه الأول، شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، كما ثبت في الحديث الذي رواه البخاري في الجامع الصحيح «عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ**» الحديث[١]. وأصل الاعتقاد في الشهادة الأولى تنزيه الله تعالى عن الشبيه والمثيل، فهو عز وجل كما وصف نفسه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[٢]، فاعتقاد الأمة

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح. ط٢، دار المنهاج للنشر والتوزيع ودار طوق النجاة، بيروت، ١٤٢٩هـ، (ج١، ص١١).
(٢) سورة الشورى، آية (١١).

أن الله تعالى لا يشبه مخلوقاته، ومخلوقات الله تعالى لا تخرج عن كونها أجسامًا وصفاتِ الأجسام أو ما اصطلحوا على تسميته جواهر وأعراض بمعنى الحجم وصفات الحجم، والله تعالى لا يشبه أيًا منها.

ويعود أسُّ المشكلة أن بين فرق أهل الأهواء والبدع التي سبق ذكرها، فرق المجسمة الذين يعتقدون أن الله جسم يشبه مخلوقاته بوجه من الوجوه، ثم تمادت هذه الفرق لتمثلها فرقة كبيرة تسمى الكرامية، التي وجدت طريقها إلى بعض من ينتسب لمذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وهو لا شك بريء مما يُنْسَبُ إليه[١].

وقد انبرى لهؤلاء بعض أساطين المذهب الحنبلي، وهو الإمام عبد الرحمٰن بن الجوزي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) الذي صنف مؤلفات في الرد عليهم منها «دفع شبهة التشبيه»[٢]. وامتد اعتقاد هذه الفرقة ليتبناها تنظيرًا وتأليفًا أحمد بن تيمية (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م) وتلميذه ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م)، وتصدى لهما علماء أهل السنة والجماعة، منهم

(١) انظر: ابن عساكر، م.س.، (ص٣٢٦). قال: «ووقع بينهم الانحراف من بعضهم.. وعلى الجملة فلم تزل في الحنابلة طائفة تغلو في السنة، وتدخل فيما لا يعنيها حبا للخفوف [أي الإسراع] في الفتنة، ولا عار على أحمد رحمه الله من صنيعهم».

(٢) عبد الرحمٰن ابن الجوزي، دفع شبهة التشبيه، تحقيق وتعليق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١٠م، (ص٦). قال: «ورأيت من أصحابنا [أي الحنابلة] من تكلم في الأصول [يعني أصول الاعتقاد] بما لا يصلح.. فصنفوا كتبا شانوا بها المذهب.. فحملوا الصفات على مقتضى الحس».

الإمام تقي الدين أبو بكر الحصني الدمشقي (ت٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م) الذي ألف في الرد عليه كتاب «دفع شُبه من شبَّه وتمرَّد» والإمام تقي الدين السبكي (ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) الذي ألف كتاب «السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل». ويقول محمد مرتضى الزبيدي: «قال التقى السبكى «وكتاب العرش» من أقبح كتبه [أي ابن تيمية] ولما وقف عليه الشيخ أبو حيان [الأندلسي] (ت٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) مازال يلعنه حتى مات»[(١)]، أي أنه اطلع على كتاب لابن تيمية سماه «كتاب العرش»، ذكر فيه: أن الله يُقعِد النبي في الآخرة على الكرسي بجنبه[(٢)]. وهذا الكلام يمجّه المسلمون لأنهم على تنزيه الله تعالى عن الجسمية والمكان.

إن ابن تيمية انتحل تسمية «السلف» ليُسْقِط عليها اعتقاد التجسيم، وليوهم عوام المسلمين أن اعتقاد رسول الله ﷺ وصحابته والتابعين من أهل القرون الثلاثة الأولى على هذا الاعتقاد، حتى يتستر وراء هذه التسمية للترويج لعقيدة التجسيم.

وتسربت هذه التسمية المنحرفة والمحرَّفة إلى عصرنا الراهن، بسبب فرقة ظهرت منذ نحو مائتين وثمانين سنة بزعامة محمد ابن عبد الوهاب (ت١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م)، واستمر التشويش على عقائد المسلمين منذ تلك الفترة حتى عصرنا الراهن، وأُلفت مئات التصانيف لترويج هذا الزائف باسم «السلف» و«السلفية»،

---

(١) الزبيدي، م.س.، (ج٢، ص١٠٥).

(٢) عبد الله الهرري، المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية، ط١١، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠١٦م، (ص٤٩ و١٦٥).

وأُسّسَت عشرات المنظمات الإرهابية المتطرفة على هذا الاعتقاد، وصارت تعيث في الأرض ذبحًا وتقتيلًا باسم الإسلام والمسلمين، وكل الناتج من ذلك تشويه صورة الإسلام والمسلمين.

وذكر أحد الباحثين المعاصرين في عقيدة الأشاعرة: «[وهناك] اتجاه شاذ لبعض أتباع المذهب الحنبلي، الذين انحرفوا بمذهب السلف ففسروه على غير ما نُقل عنهم.. بإثبات ما يستلزم الشكل والتحديد، تعالى الله عن ذلك. والقائم على هذا التفسير ونصرته هو ابن تيمية ثم تلميذه ابن قيم الجوزية، ثم من اقتدى بهما في العصر الحاضر»[(١)].

١- (٢) السلف الصالح أو سلف الأمة:

في المصباح المنير: «سلف» من باب قَعَدَ: مضى وانقضى فهو سالف[(٢)]. وفي المفردات في غريب القرآن: «السلف» المتقدم، قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ۝٥٦﴾[(٣)] أي معتبرًا متقدمًا[(٤)].

(١) الحبيب بن طاهر، ابن أبي زيد القيرواني وعقيدته في الرسالة والجامع دراسة في المنهج والمضمون، ط١، مؤسسة المعارف للطبعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (صص٨٠ - ٨١).

(٢) أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠١م، (ص١٠٨).

(٣) الزخرف، (٥٦).

(٤) الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن. دار قهرمان للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، ١٩٨٦م، (ص٣٤٨).

السلف هم أهل القرون الثلاثة الأولى، الذين قصدهم رسول الله ﷺ بقوله: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» الحديث[1]. أي الذين هم أحياء في زمني، ثم بعد ذلك من جاء بعدهم، وفي هذا الحديث استعمال كلمة القرن، ويقول ابن عساكر: «ومدة القرن من الزمان مائة سنة»[2].

وعبارة «السلف» استعملها علماء الإسلام، للدلالة على أهل القرون الثلاثة الأولى، التي ذكرها النبي ﷺ في الحديث.

ويضم عصر السلف عددًا كبيرًا من الأئمة المجتهدين، لا سيما أصحاب المذاهب الأربعة المعتبرة لأهل السنة والجماعة. وهي مذاهب الأئمة: مالك بن أنس (ت١٧٩هـ/ ٧٩٥م)، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت١٥٠هـ/ ٧٦٧م)، ومحمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م)، وأحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م). كل أولئك كانوا من أهل السلف، إضافة إلى عدد كبير من المجتهدين الذين لم تُدوَّن مذاهبهم، بل توجد مسائلهم في كتب الفقهاء والأصوليين والمؤرخين وغيرهم مثل الإمام الأوزاعي (ت١٥٧هـ/ ٧٧٤م)، وسفيان الثوري (ت١٦١هـ/ ٧٧٧م)، والليث بن سعد (ت١٧٥هـ/ ٧٩١م)، وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ/ ٨١٥م)، وغيرهم.

ويؤكد تاج الدين السبكي في الطبقات أن السلف كانوا على

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الشهادات، رقم الحديث ٢٦٥٢، (ج٣، ص١٧١).

(٢) ابن عساكر، م.س.، (ص٢٩٨). في معرض كلامه أن أبا الحسن الأشعري كان من أهل السلف لأنه وُلد في القرن الثالث. قال: «فهو بلا شك من قرن شهد له رسول الله ﷺ بالخيرية.

عقيدة التنزيه، وهم الذين رأوا رسول الله ﷺ وتعلموا منه تلقيًا وسماعًا، فيذكر: «ولقد كان السلف من الصحابة رضى الله عنهم مستقلين بما عرفوا من الحق، وسمعوا من الرسول ﷺ من أوصاف المعبود، وتأملوه من الأدلة المنصوبة فى القرآن وإخبار الرسول ﷺ فى مسائل التوحيد، وكذلك التابعون وأتباع التابعين لقرب عهدهم من الرسول ﷺ»[١].

يذكر العز بن عبد السلام فيما نقله عنه تاج الدين السبكي: «والحشوية المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه ضربان: أحدهما لا يتحاشى من إظهار الحشو.. والآخر يتستر بمذهب السلف.. ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه، ولذلك جميع المبتدعة يزعمون أنهم على مذهب السلف، فهم كما قال القائل:

وَكُلٌّ يَدَّعُونَ وِصَالَ لَيْلَى
وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

ومِن أنكرِ المنكرات التجسيم والتشبيه، ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه، وإنما سكت السلف قبل ظهور البدع، فورب السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع، لقد تشمر السلف للبدع لما ظهرت فقمعوها أتم القمع، وردعوا أهلها أشد الردع، فردوا على القدرية والجهمية والجبرية، وغيرهم من أهل البدع فجاهدوا في الله حق جهاده[٢].

---

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٢، ص٣٠١).
(٢) نفسه، (ج٤، ص٣٦٣).

١- (٣) منهج السلف «أمروها كما جاءت بلا كيف»:

كان السلف على عقيدة التنزيه، والقاعدة عندهم في المتشابه، أن يثبتوا ماجاء عن الله تعالى وعن الرسول ﷺ، ويعلقون بعدها بهذه العبارة: «أمروها كما جاءت بلا كيف». هذه طريقة التفويض، أي أن يفوضوا معناها إلى الله تعالى، دون البحث عن معنى لها ومن غير أن يُخرجوا النص عن ظاهره، ولكن كانوا يقولون هذه العبارة مقيَّدة بكلمة «بلا كيف». وعندما يقول السلف «بلا كيف»، يقصدون بذلك منع المشابهة بين الخالق والمخلوق، يقول المناوي: ««كيف» كلمة مدلولها استفهام عن عموم الأحوال التي شأنها أن تدرك بالحواس»[(١)]. فتبين أن مراد السلف بِلا كيفية: نفي الجلوس والاستقرار والحركة والأعضاء، ونحو ذلك مما هو من صفات الأجسام.

قال الإمام الترمذي في سننه: «والمذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة، مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس وابن المبارك وابن عيينة ووكيع وغيرهم، أنهم رووا هذه الأشياء ثم قالوا: تروى هذه الأحاديث ونؤمن بها ولا يقال كيف، وهذا الذي اختاره أهل الحديث أن تُروَى هذه الأشياء كما جاءت ويؤمَنُ بها ولا تُفسر ولا تُتوهم ولا يقال كيف، وهذا أمرُ أهلِ العلم الذي اختاروه وذهبوا إليه»[(٢)].

---

(١) محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ١٤١٠هـ، (ص٦١٤).

(٢) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، ٥ أجزاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (ج٤، ص٦٩٢).

وروى الحافظ البيهقي في كتاب» الاعتقاد» عن الوليد بن مسلم، قال: «سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه الأحاديث [أي الأحاديث المتشابهة] فقالوا: «أمروها كما جاءت بلا كيفية»[١]. ويقول البيهقي رحمه الله أيضا: «ثم المذهب الصحيح في جميع ذلك: الاقتصار على ما ورد به التوقيف دون التكييف، وإلى هذا ذهب المتقدمون من أصحابنا، ومن تبعهم من المتأخرين»[٢].

ويروي ابن حجر العسقلاني في فتح الباري مجموعة كبيرة من نقول العلماء من أهل السلف، كانوا يستعملون عبارة «بلا كيف»، في ما يتلقونه من آيات وأحاديث متشابهة، منها النقول التالية: «اخرج أبو القاسم اللالكائي في كتاب السنة من طريق الحسن البصري عن أمه عن أم سلمة أنها قالت: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والاقرار به إيمان والجحود به كفر»[٣].

ويذكر البغوي في تفسيره الآية الكريمة ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾[٤]: «الأَوْلَى في هذه الآية وما شاكلها، أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويَكِلُ علمها إلى الله تعالى، ويعتقد أن الله

---

(١) أحمد بن الحسين المعروف بأبي بكر البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث. ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ ١٩٨١، (ص١١٨).

(٢) أبو بكر البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد. (ص١١٥).

(٣) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري. ١٣ جزءًا، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، (ج١٣، ص٤٠٦).

(٤) سورة البقرة، آية (٢١٠).

عز اسمه منزه عن سمات الحدث، على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة.. وكان مكحول والزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وسفيان الثوري والليث بن سعد وأحمد وإسحاق يقولون فيها وفي أمثالها: أمروها كما جاءت بلا كيف»[١].

وأسند اللالكائي عن محمد بن الحسن الشيباني قال: «اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن وبالأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب من غير تشبيه ولا تفسير فمن فسر شيئًا منها وقال بقول جهم[٢] فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وفارق الجماعة فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا ولكن أفتوا بما في الكتاب والسنة ثم سكتوا»[٣].

١- (٤) تفسير معنى الكيف:

قال الإمام أبو المظفر الإسفراييني في كتابه «التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين» في بيان اعتقاد

(١) الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل. ٨ أجزاء، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، (ج١، ص٢٤١).

(٢) جهم بن صفوان: رأس الجهمية. كان صاحب ذكاء وجدال. وكان ينكر الصفات، ويقول بخلق القرآن، ويقول: إن الله في الأمكنة كلها. انظر: محمد ابن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢٥ جزءا، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (ج١١، ص٢٦).

(٣) هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة. ٤ أجزاء، ط١، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ، (ج٣، ص٤٣٢). وانظر: ابن حجر العسقلاني، مصدر سابق. (ج١٣، ص٤٠٦).

أهل السنة والجماعة: «وأن تعلم أنه لا يجوز عليه الكيفية والكمية والأينية، لأن من لا مثل له لا يمكن أن يقال فيه كيف هو؟ ومن لا عدد له لا يقال فيه كم هو؟ ومن لا أول له لا يقال له مِمَّ كان؟ ومن لا مكان له لا يقال فيه أين كان؟ وقد ذكرنا من كتاب الله تعالى ما يدل على التوحيد ونفي التشبيه ونفي المكان والجهة ونفي الابتداء والأولية»(١). فتبين أن مراد السلف بِلا كيفية نفي الجلوس والاستقرار والحركة والأعضاء ونحو ذلك مما هو من صفات الأجسام. ولا يقصدون أن استواءه على العرش وإتيانه له كيفية لا نعلمها نحن والله يعلمها، بل المراد نفي الكيفية عنه ألبتّة. وليعلم العاقل أن الجلوس كيفما كان، افتراشًا أو تربعًا أو غيرهما، فهو كيفية لأنه لا يخرج عن كونه من صفات الأجسام. وهكذا التحيز في المكان كيفيةٌ من كيفيات الأجسام، واللون والمماسة لجسم من الأجسام كيفية، والكيفية منفية عن الله تعالى وصفاته.

١- (٥) احتكار المجسمة لكلمة السلف وتسمية عقيدتهم «السلفية»:

وفي تفنيد أقوال من احتكر لنفسه اسم السلف، يذكر محمد عمر كامل في كتابه «كفى تفريقا للأمة باسم السلفية: «ولكن أبت بعض الفرق إلا أن تحتكر وصف أهل السنة والجماعة لنفسها وتخرج جمهور المسلمين منه. وهنا أتساءل: هل ورد لفظ أهل السنة والجماعة على لسان رسول الله ﷺ؟ أم هو مصطلح مستحدث؟ فإذا كان مصطلحًا مستحدثًا فلا يعدو أن يكون أحد أمرين:

(١) أبو المظفر الأسفراييني، م.س.، (ص١٦١).

الأول: أن أهل السنة والجماعة هم من سموا أنفسهم بهذا الاسم.

الثاني: أن مخالفيهم سموهم بهذا الاسم.

فإذا كان أهل السنة والجماعة هم من سموا أنفسهم به وأجمع العلماء على ذلك، فبأي حق يأتي اليوم من يخرجهم من هذه الفرقة؟ وهل ظل المسلمون سبعة قرون ينتظرون ابن تيمية ليعيد تصنيفهم؟ والأعجب من هذا أن من يحتكرون لفظ «أهل السنة والجماعة» لأنفسهم لو أخرجوا الأشاعرة من صفوف أهل السنة والجماعة لم يبق لهم كتاب في التفسير أو الحديث أو الفقه أو اللغة. فهل يجوز أن يُخرِج الأقلُ الأكثرَ؟»[(١)].

ويكشف الحبيب بن طاهر أصل ادعائهم للسلفية بقوله: «لكن ظهر بعد عصر الإمام أحمد بن حنبل، ممن يدعي الانتساب إلى مذهبه، من أحدث في أهل ا لسّنة تشغيبًا في بعض مسائل العقيدة، وادعوا نسبتها إلى السلف وإلى الإمام أحمد، وهي لا أصل لها عند السلف، ولم يقبلها الخلف»[(٢)].

ولا شك أن انتسابهم إلى السلف دعوى كاذبة ووضعٌ للكلمة في غير محلها.

١- (٦) سوء استعمال مصطلح السلف والوقوع في فخ المشبهة:

أما من يستعملون صفة «السلف» و«السلفية» في وقتنا الحالي،

---

(١) محمد عمر كامل، م.س.، (صص١٧ - ١٨).

(٢) الحبيب بن طاهر، م.س.، (ص٧٤).

فقد أغفلوا المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، وتجاوزوا ما تعارف عليه علماء الإسلام، لتحويله إلى معنى لا يوافق عليه أهل السلف أنفسهم، فمن حيث المحتوى العقدي الذي يقصده البعض من هذا الكلام، يحمل في طياته مغالطة للنصوص الشرعية نفسها، لأن من انتحل صفة «السلفية» خالف العقيدة التي كان عليها السلف، وهي عقيدة رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين.

ومن المؤسف أن بعض الباحثين المعاصرين، عندما يتكلمون عن الذين شبهوا الله بخلقه وأَطلَق عليهم أهلُ السنة والجماعة المجسمةَ يصفونهم «بالسلفية»، بل إن بعضهم أطلق القول فيما يخص معتقدهم المنحرف بتسمية عقيدتهم«عقيدة سلف الأمة» أو «العقيدة السنية السلفية». كيف يسوغ لهم ذلك؟ أليس هذا فيه اتهام لأهل السلف بما لم يقترفوه من فظائع اعتقاد التجسيم، لأنه بكلامهم هذا يتهمون من ينزه الله تعالى بأنهم مخالفون لسلف الأمة بالاعتقاد، وسلف الأمة كانوا الأقرب لعهد النبي ﷺ، وهذا فيه إيهام أيضًا أن اعتقاد النبي ﷺ مشابه لاعتقاد هؤلاء المشبهة، والنبي الصادق المصدوق هو الذي علم أمته التوحيد.

ولا بد من القول إن هذا كلام لا يدل على دقة في البحث ويدل على استعمال العبارة في غير ما تدل عليه من مصطلح معروف بين العلماء.

قام الباحث جمال علال البختي بتحقيق كتاب في العقيدة الأشعرية، وبعد أن قيد الفكر السلفي بأئمة التشبيه أمثال ابن تيمية وابن القيم، وضع من جملة عباراته كلامًا يوهم أن الإمام مالكًا نفسه كان من أئمة هذا الفكر، ولا نشك بتاتًا أن الأئمة

الأربعة أصحاب المذاهب السنية المعروفة كانوا على التنزيه، وليسوا على عقيدة المشبهة.

ويذكر الأستاذ البختي كلامًا عن مالكية المغرب وعلاقتهم بالفكر الأشعري، ننقل منه الفقرات التالية، فيقول:

١- «.. بعد موقف الرفض والمحاربة المبدئية ستتحول العلاقة بينهما إلى علاقة مودة وارتباط.

٢- إذ سيرتبط الفقه المالكي هذه المرة مع الكثير من الفقهاء بالاتجاه العقدي الأشعري بعدما كان مجموعهم معانقًا للاختيار السلفي من قبل.

٣- ويرجع سبب هذا الانقلاب إلى شخصية أساسية في تاريخ الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية هي شخصية أبي بكر الباقلاني، الذي استطاع بشفوفه العلمي أن يتبوأ أعلى الدرجات في الحقل الفقهي، وانتهت إليه رئاسة المالكية في وقته، فصار المنظر الأول للمالكية في العالم الإسلامي.

٤- ومن هنا قام الباقلاني بممارسة تأثيره في الفقهاء المغاربة المنتقلين إلى المشرق، إذ صار لزامًا عليهم التوجه صوب بغداد - التي غدت مركزَ المذهبِ الجديد - لتلقي العلم عن الإمام، ولم يجدوا بدًا من احتضان آرائه العقدية كما احتضنوا مواقفه الفقهية.

٥- وبذلك يكون المذهب المالكي سببا حاسمًا في تحويل عقيدة الكثير من مضامين الفكر السلفي ومواقفه - الذي كان بالأمس معتقدهم ومعتقد إمامهم مالك - بدعوى الانتصار للمذهب الأشعري الذي سيصير مذهب الأئمة المالكية الجدد.

٦- وهكذا تضرب مالكية الباقلاني مالكية مالك، ويصبح الاتجاه الفقهي نفسه الذي كان عامل قوة وحماية للفكر العقدي السلفي في البدء، وبالًا عليه وسبًبا في قص أجنحته ببلاد المغرب - كما قصها بصورة واضحة في المشرق - على يد الإمام الباقلاني»[(١)].

تنطوي هذه الفقرات على مجموعة من المغالطات:

١- في العبارة الأولى التي يوردها الأستاذ البختي وفيها أن المذهب المالكي كان محارِبًا ورافضًا للفكر الأشعري، نجد أن كلامه لا يثبت أمام المصادر التاريخية، التي أكدت أن المعلمين الأوائل، بل الأئمة الأوائل لمذهب مالك، كانوا على اعتقاد التنزيه ولم يكونوا مشبهة ولا معتزلة ولا مرجئة ولا جهمية ولا خوارج ولا رافضة. فقد قاوم سحنون بن سعيد المعتزلة والرافضة والخوارج، ويكفي ما أوردناه من أدلة في بحثنا عن ارتباط مذهب مالك بعقيدة الأشاعرة. والمقصود بذلك الأصول العقدية عند أهل السنة والجماعة وليس ما سمَّاه البعض المؤثرات الباقلانية. وابن أبي زيد القيرواني ورفيقه القابسي وتلميذهما أبو عمران الفاسي بشهادة أبي الوليد الباجي نفسه شهد أنهم على عقيدة التنزيه الأشعرية. فلا يقال أن هناك علاقة رفض وعداء ومحاربة بين مذهب مالك وعقيدة التنزيه أقصد العقيدة الأشعرية، بل إن مالكًا الصغير [ابن أبي زيد

---

(١) جمال علال البختي، المذهب العقدي السني في الغرب الإسلامي، مقدمة تحقيق كتاب: عقيدة أبي بكر المرادي (ت٤٨٩هـ/١١٠٦م)، منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية الرابطة المحمدية، ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، (ص٣٦).

القيرواني] عندما صنف رسالته قدمها بعقيدة التنزيه، ودفاعه عن الأشعري في كتاب «تبيين كذب المفتري» شاهد قوي، علمًا أنه لم يزر المشرق. ودفاع القابسي شاهد ثانٍ أيضًا. فعلاقة المودة والارتباط بين مذهب مالك والأشعرية لم تنقطع. ويكفي هذه العلاقة مدحًا ما ذكره تاج الدين السبكي في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» حيث مدح المالكية وأجلهم بكلمة وجيزة وهي أنه لم يتطرق إليهم تشبيه ولا تجسيم ولا اعتزال.

٢- أما القول في العبارة الثانية أن مجموع الفقهاء المالكية «كان معانقا للاختيار السلفي من قبل»، فهذا فيه خلط للأمور، إذ يجدر حتى لا يحصل الوهم بين الباحثين وبين الناس على أصنافهم، أن يقال إن هناك تفصيلًا وأسلوبًا في فهم الآيات والأحاديث المتشابهة بين تفويض معناها إلى الله تعالى وبين العمل على تأويل هذه النصوص، وفي الحالتين العمل جار على إخراج النص عن ظاهره في عدم اعتقاد الجسمية لله تعالى، لذلك شهر في عقيدة سلف الأمة «أمروها كما جاءت بلا كيف». بهذا التفصيل يخرج المنزه عن الوهم الذي قد يصيب البعض، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى لا يتمسك المشبهة بهذا الكلام ليذهبوا في تشويش البعد التاريخي لمسار العقيدة الأشعرية وانتشارها بالغرب الإسلامي.

٣- أما أن يسمي، في العبارة الثالثة، الانتقال إلى العقيدة الأشعرية «انقلابًا» قاده الباقلاني، هذه لا شك مغالطة كبيرة تفقد كل الأعمال والجهود والجهاد الذي قام به أهل المذهب المالكي الأوائل، لأن المصادر التاريخية تثبت أن ما حصل من انتشار للمذهب الأشعري، وبعبارة أخرى للطريقة الأشعرية كان

«انسيابًا طبيعيًا» ولم يكن انقلابًا ولا طفرة ولا قفزة، فارتباط الدليل العقلي مع الدليل النقلي يصبح حاجة أساسية في وقت تنتشر فيه البدع ويحصل التشويش بين العامة مما يهدد عقيدتهم. مصداق ذلك ما حصل مع أبي عمران الفاسي لما جاء إليه بعض العامة يسألونه في مسألة «هل الكافر يعرف الله» فأجابهم بالدليل العقلي المقنع من غير عبارات فلسفية ومن غير سفسطة، وهذا شاهد عن انسياب العقيدة الأشعرية لحاجة المجتمع إليها في مواجهة أهل البدع والانحراف.

٤- أما أن الفقهاء المغاربة، في العبارة الرابعة، الذين انتقلوا إلى بغداد، لأنها صارت مركزا لتعليم المالكية بسبب وجود الباقلاني فيها، وبذلك يقعون تحت تأثيره يملي عليهم عقيدته، بعد هذا قد يقول قائل ما الذي دفع بهؤلاء المساكين إلى هذا المكان الذي أوقعهم في هذه الشراك المنصوبة. أي عاقل يقبل هذا الكلام؟، وأسد بن الفرات الذي ذهب وتعلم من محمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، وأبو بكر الطرطوشي الذي قصد أبا حامد الغزالي ليتلقى عنه في بيت المقدس، وابن تومرت الذي قصد إلكيا الهراسي. ثم أن رؤساء الشافعية والحنفية كانوا في العراق وبلاد الشام. لماذا لم يتلقَّ أبو إسحاق الشيرازي مذهب مالك، وكذلك عبد القاهر البغدادي التميمي والإمام أبو المعالي الجويني.. والقائمة طويلة، هذه أيضًا مغالطة، تجعل من يقرأها يشفق على الفقهاء المالكية الذين رحلوا إلى المشرق.

٥- وفي العبارة الخامسة مغالطة أخرى، حين عد الباحث الفكر السلفي عقيدة الإمام مالك، الأمر لفظه صحيح لكن

المضمون إن كان فكر ابن تيمية وابن قيم الجوزية فهو غير صحيح، لأن الإمام مالكًا ليس على هذا الاعتقاد وكل أصحاب مذاهب أهل السنة الأخرى المعتبرة، فعقيدة مالك عقيدة تنزيه الله عن الشبيه، وهي عقيدة الرسول ﷺ وعقيدة الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

٦- أما العبارة السادسة عن ضرب مالكية الباقلاني مالكية مالك، فإنها مغالطة مركبة. إذ كيف يصير الاتجاه الفقهي نفسه الذي كان عامل قوة وحماية للفكر العقدي السلفي في البدء «وبالًا عليه وسببا في قص أجنحته ببلاد المغرب». الأمر مستغرب، وفيه مغالطة لا شك.

قصارى القول إن إعادة قراءة تاريخنا وكتابته تستوجب أن تقوم على منهجية واضحة مبنية على أصول الاعتقاد السليم وليس على ما خطه ابن تيمية ومن مشى في ركبه. والإمام مالك نفسه الذي بلغته الرحضاء وبلّه العرق عندما سأله صاحب بدعة: (الرحمن على العرش استوى كيف استوى) ففي سؤاله عن الكيف في حق الله تعالى أدرك مالك بدعته، وغضب غضبا شديدا[1]. وبالتأكيد فإن مالكًا نفسه لن يرضى بهذه العبارات الرافضة لعقيدة التنزيه، أي الرافضة للأشعرية. لأن الأشعرية مع صنوها الماتريدية هي عقيدة الأمة المحمدية.

١- (٧) التفويض والتأويل:

يفهم من كل ما تقدم أن الأمر يدور على محور الاتجاه العقدي، هذا الاتجاه يستند إلى الكتاب والسنة المطهرة الثابتة

(١) ابن حجر العسقلاني، م.س.، (ج١٣، ص٤٠٧).

عن النبي ﷺ. والقرآن نزل كما قال ربنا عز وجل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾[١] قال ابن عباس: «بلسان قريش ليفهموا ما فيه»[٢]. فكانوا يفهمون ما يبلغهم به رسول الله ﷺ من عقيدة وتشريعات فقهية.

والركن المتين في هذه العقيدة تنزيه الخالق عن مشابهة المخلوق، وفي استقراء النصوص نرجع إلى آية وردت في سورة آل عمران تنص على أنه في كتاب الله تعالى هناك آيات متشابهات وآيات محكمات، قال الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾[٣].

يقول المحدث الهرري في معرض شرحه للآية: «القرآن فيه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب أي أصل الكتاب، وفيه آيات متشابهات تُردّ لفهمها إلى الآيات المحكمات.

والآيات المحكمة: هي ما لا يحتمل من التأويل بحسب وضع اللغة إلا وجهًا واحدًا، أو ما عُرف بوضوح المعنى المراد منه كقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾[٤]، وقوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾[٥].

(١) سورة الشعراء، آية (١٩٥).
(٢) البغوي، م.س.، (ج٦، ص١٢٨).
(٣) سورة آل عمران، آية (٧).
(٤) سورة الشورى، آية (١١).
(٥) سورة الإخلاص، آية (٤).

وأما المتشابه: فهو ما لم تتضح دلالته، أو يحتمل أوجهًا عديدة، واحتيج إلى النظر لحمله على الوجه المطابق، كقوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[(١)]»[(٢)].

ثم يقول شارحا قوله هذا: «فهنا مسلكان كل منهما صحيح:

الأول: مسلك السلف: فالسلف الغالب عليهم أن يؤوّلوا الآيات المتشابهة تأويلًا إجماليًا، بالإيمان بها واعتقاد أن لها معاني تليق بجلال الله وعظمته ليست من صفات المخلوقين بلا تعيين، كآية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[(٣)] بأن يقولوا: بلا كيف، أو على ما يليق بالله أي من غير أن يكون بهيئة كالجلوس والاستقرار بل ردوها الى الآيات المحكمة كقوله تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[(٤)] وتركوا تعيين معنًى معيَّن لها، مع نفي تشبيه الله بخلقه»[(٥)]. وهذا المسلك هو نفسه طريقة الإثبات والتفويض.

ويتابع الهرري شارحا مسلك الخلف فيقول:

«**والثاني: مسلك الخلف**: وهم يؤولونها تفصيلًا بتعيين معانٍ لها، مما تقتضيه لغة العرب، ولا يحملونها على ظواهرها أيضًا كالسلف.

---

(١) سورة طه، آية (٥).

(٢) المحدث عبد الله الهرري، صريح البيان في الرد على من خالف القرآن، ط٥، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ص٩٢).

(٣) سورة طه، آية (٥).

(٤) سورة الشورى، آية (١١).

(٥) المحدث عبد الله الهرري، الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم، ط٩، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، (صص٢٤٨ - ٢٤٩).

فالسلف والخلف متفقان على عدم الحمل على الظاهر، هؤلاء بيَّنوا بقولهم بلا كيف، وأولئك قالوا استوى أي قهر، وكلا الفريقين لا يحمل الاستواء على الظاهر، لكن هؤلاء عيَّنوا معنًى وأولئك لم يعينوا إنما قالوا بلا كيف، أي الاستواء الذي لايشبه استواء المخلوقين»[١].

ينتهي ابن حجر العسقلاني إلى أن: «معتقد سلف الأئمة وعلماء السنة من الخلف أن الله منزّه عن الحركة والسكون والتحول والحلول ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾»[٢].

والأمثلة كثيرة مما قاله علماء الغرب الإسلامي بنفي الشبيه عن الله تعالى، فهذا ابن جزي الكلبي الغرناطي قال في تنزيه الله تعالى: «وهو معنى قولنا سبحان الله، وذلك أن تؤمن بأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٣]، ولا هو مثل شيء، لا يشبه شيئًا ولا يشبهه شيء، تعالى أن يكون له شبيه أو مثيل أو عديل أو نظير أو قرين»[٤]. وكذلك أبو الوليد الباجي في شرحه للحديث الذي ورد فيه «وكلتا يديه يمين» الحديث قال: «وأجمع أهل السنة على أن يديه صفة وليست بجوارح كجوارح المخلوقين، لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[٥]»[٦] يشرح عياض كلمة «يد» الواردة في الآيات

(١) المحدث الهرري، الشرح القويم. (ص٢٥٤).
(٢) ابن حجر العسقلاني، م.س.، (ج٧، ص١٢٤).
(٣) سورة الشورى، آية (١١).
(٤) ابن جزي، القوانين الفقهية. (ص١٠).
(٥) سورة الشورى، آية (١١).
(٦) سليمان بن خلف الباجي المعروف بأبي الوليد، المنتقى شرح موطأ إمام دار=

والأحاديث على أنها صفة لله تعالى «ليست بجارحة ولا عضو ولا لها كيفية»[١]. ويذكر أبو بكر بن العربي في شرح حديث النزول «ينزل الله إلى السماء الدنيا» الحديث: «من [العلماء] من أمرَّه كما جاء ولم يتأوله ولا تكلم فيه، مع اعتقاده أن الله ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾، ومنهم من تأوَّله وفسَّره، وبه أقول لأنه معنى قريب عربي فصيح»[٢].

ونستنتج مما تقدم، أن كل ما في الكتاب والسنة بظاهره على ما هو من صفات الجسم وسمات الحدوث فهو مصروف عن هذا الظاهر قطعًا، لا خلاف في ذلك بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم من أهل الفقه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، سلفًا وخلفًا، وحجتهم في ذلك في كتاب الله واضحة، وأدلتهم عليه في آيات القرآن لائحة، والبراهين العقلية الصحيحة به ناطقة مفصحة.. إلا أن الغالب على أكثر السلف الكف عن بيان المعنى المراد اللائق بالحق تعالى من هذه النصوص، والإمساك عن تعيينه ورعًا وتهيبًا.. ولذلك كان الكثير منهم يقول: «تفسيرها قراءتها»، ويقولون: «أمروها كما جاءت من

= الهجرة سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه، ٧ أجزاء، ط٢ مصورة عن طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٢هـ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (ج٧، ص٢٠٢).

(١) عياض اليحصبي، إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، ٨ أجزاء، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (ج٨، ص٣١٩).

(٢) محمد بن عبد الله المعافري المعروف بأبي بكر بن العربي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. ١٣ جزءا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، (ج٢، ص١٩٨).

غير كيف». فقولهم رضي الله عنهم من غير كيف، ونهيهم عن التفسير، صريح في صرفها عن المعنى الظاهري التشبيهي، الذي يتبادر إلى الذهن العامي، وإلا فلو كان هذا المعنى مرادًا ومعتقدًا للسلف كما يصرح به «أدعياء السلفية»، لفسروها ولما نهوا عن التفسير، ولما نفوا الكيف كما هو واضح[١].

فما يميز السلف عَمَّن جاء بعدهم من الخلف، أنهم كان يغلب عليهم عدم التأويل التفصيلي للآيات والأحاديث المتشابهة، علمًا أن بعضًا منهم أول تأويلًا تفصيليًا. يقول الطبري رحمه الله: «إنّ الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه، إلا بعد إكمال الدين به لعباده، وعلمه بأن لله في كل نازلة وحادثة حُكمًا موجودًا بنصٍّ أو دلالة. فلم يكن إحجامُه عن القول في ذلك إحجامَ جاحدٍ أن يكون لله فيه حكم موجود بين أظهُرِ عباده.. لا على أن تأويل ذلك محجوبٌ عن علماء الأمة غير موجود بين أظهرهم»[٢].

ونقل تقي الدين أبو بكر الحصني الدمشقي عبارة عن الشافعي، تلخص مسلك السلف في ذلك بقوله: «آمنت بما جاء عن الله على مراد الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله»[٣].

---

(١) سلامة القضاعي العزامي. فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (ص٩٤).
(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (ج١، ص٨٩).
(٣) تقي الدين أبو بكر الحصني الدمشقي، دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد. تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ٢٠١٠م، (ص٨٦).

وقد كان المسلمون زمن النبي ﷺ، وصحابته رضوان الله عليهم، يفهمون ما أنزل على رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية بالسليقة فلا يحتاجون إلى كتاب نحو ولا إلى معجم، لفهم معاني آيات القرآن، إلا ما غمض فهمه فاحتاج إلى تفسير. وما كان من الآيات المتشابهات ما احتاج إلى تأويل، ردُّوا معناها إلى الله تبارك وتعالى، أي فوضوا معناها إلى الله تعالى على مراد الله عز وجل، وقيدوا ذلك بعبارة «بلا كيف»، أي من غير نسبة الأعضاء والجوارح لله تعالى، أو نسبة أي صفة من صفات المخلوقين إليه سبحانه. لذا، اشتهر أهل السلف بقولهم: «أمروها كما جاءت بلا كيف»، كما بينا آنفًا، لأنهم كانوا يفهمون معنى الكيف وأنه من صفات الأجسام.

فكان الصحابة يفهمون ما أُنزل على رسول الله صلى الله عليه، ويعتقدون المفاهيم العقدية التي جاءت في الآيات القرءانية، وفي حديث رسول الله ﷺ، ففهموا معاني توحيد الله تعالى وعدم الإشراك به شيئًا وفهموا من قوله تعالى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[1] أن الله تعالى منزه عن مشابهة المخلوقين، فهو تبارك وتعالى ليس جسمًا فيتحيز، وليس عرضًا فيحل في شيء من الأشياء.

وما ورد في القرآن الكريم والحديث الشريف، من ألفاظ الوجه والعين واليد واليمين والإصبع والقدم، أطبق السلف والخلف على تسمية هذه الآيات والأحاديث بآيات الصفات

---

(١) سورة الشورى، آية (١١).

وأحاديث الصفات، لا بآيات الأعضاء وأحاديث الأجزاء، وتنبيهًا على أن هذه الألفاظ غير محمولة على حقائقها، وإنما هي مجازات استعملت في الصفات، غير أن السلف لم يعينوا تلك الصفات لعِظَم الخطر في تعيينها، إذ التكلم في صفات الله تعالى بالظن أمر صعب، بل قالوا: ما[١] أراد الله تعالى بهذه الآيات والأحاديث حق، مع القطع بأن معانيها الحقيقيةَ المستلزمةَ للجسميةِ غيرُ مُراد[٢].

٢- عقيدة مالك بن أنس هي عقيدة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين:

ولا يخرج اعتقاد الإمام مالك بن أنس، والأئمة المجتهدين الأعلام من المذاهب الأربعة، وغيرهم من أهل السلف، عما أجمعت عليه الأمة من نفي الشبيه والمثيل عن الله تعالى، وكذلك فإن أبا الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) وأبا منصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) وأبا جعفر الطحاوي (ت٣٢١هـ/ ٩٣٢م) كانوا من أهل السلف وما اختلفوا عما قرره مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل. فكل واحد منهم كان على عقيدة رسول الله محمد ﷺ وعقيدة سلف الأمة.

وفيما يلي نماذج توضِّح ما خلصنا إليه مما سبق، فقد ثبت أن فريقًا ممن ينتسب للإسلام يصر أن يفسر الآية ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾[٣] على معنى لا يليق بالله تعالى، فيفسر

---

(١) بمعنى اسم موصول الذي.

(٢) علاء الدين محمد بن محمد البخاري الحنفي، ملجمة المجسمة، ط١، دار الذخائر، بيروت، د. ت.، (ص٦٥).

(٣) سورة طه، آية (٥).

أصحابه «استوى» بمعنى «جلس»، وكل ذي فهم يعلم أن الجلوس من لوازم الجسمية، وهذا يستحيل على الله، ويكذب آية ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾[١]، لأن الذي يجلس له أمثال لا تحصى من المخلوقات ذوات العقل وغير ذوات العقل.

وانقسم علماء «أهل السنة والجماعة» في تفسير هذه الآية إلى فريقين (كما بينا): فريق فوَّض معناها إلى الله تعالى وقيدها «من غير كيف»، لأنه لا شبيه له تعالى، وفريق آخر فسرها بإعطاء معنى يناسب لغة العرب، ولا يخرج عن تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين في تفسيرها. أما الذين فسروا هذه الكلمة بجلس واستقر وقعد فهؤلاء من الشذاذ الذين خالفوا هذين الفريقين.

ويلخص أبو بكر بن العربي في «عارضة الأحوذي» ذلك بقوله: «والذي يجب ان يعتقد في ذلك أن الله كان ولا شيء معه، ثم خلق المخلوقات من العرش إلى الفرش، فلم يتعين بها ولا حدث له جهة منها ولا كان له مكان فيها، فانه لا يحول ولا يزول قدوس لا يتغير ولا يستحيل. وللاستواء في كلام العرب خمسة عشر معنى ما بين حقيقة ومجاز، منها ما يجوز على الله فيكون معنى الآية، ومنها ما لا يجوز على الله بحال، وهو اذا كان الاستواء بمعنى التمكن أو الاستقرار أو الاتصال أو المحاذاة، فإن شيئًا من ذلك لا يجوز على الباري تعالى ولا يضرب له الأمثال به في المخلوقات.. فتحصل لك من كلام إمام المسلمين مالك أن الاستواء معلوم، وان ما

---

(١) سورة الشورى، آية (١١).

يجوز على الله غير متعين، وما يستحيل عليه هو منزه عنه، وتَعَيُّن المراد بما لا يجوز عليه لا فائدة لك فيه، اذ قد حصل لك التوحيد والايمان بنفي التشبيه والمحال على الله سبحانه وتعالى فلا يلزمك سواه»(١).

أخرج البيهقي عن يحيى بن يحيى قال: «كنا عند مالك بن أنس، فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾(٢) كيف استوى؟ فأطرق مالك رأسه ثم علاه الرحضاء(٣)، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا مبتدعا فأمر به أن يخرج»(٤).

ويفسر ابن اللبان: قول مالك: «كيف غير معقول» أي كيف من صفات الحوادث، وكل ما كان من صفات الحوادث فإثباته في صفات الله تعالى ينافي ما يقتضيه العقل، فيجزم بنفيه عن الله تعالى، وقوله: «والاستواء غير مجهول» أي أنه معلوم المعنى عند أهل اللغة، «والإيمان به» على الوجه اللائق به

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المعروف بأبي بكر بن العربي، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. ١٣ جزءا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، (ج٢، صص١٩٩ - ٢٠٠).

(٢) سورة طه، آية (٥).

(٣) الرحضاء: قيل هو الحمى بعرق، أو عرق يغسل الجلد كثرة، أي لكثرته، وكثيرا ما يستعمل في عرق الحمى والمرض. محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني المعروف بمرتضى الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، (ج١٨، ص٣٤٣)، باب (رحض).

(٤) أحمد بن الحسين البيهقي، الاعتقاد والهداية، (ص١١٦).

تعالى «واجب» لأنه من الإيمان بالله وبكتبه[١].

وفي رواية في فتح الباري، «فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال كيفَ وكَيْفَ عنه مرفوعٌ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه، قال فأُخْرِجَ الرجل»[٢].

فقول الإمام مالك: «وكيف عنه مرفوع» أي ليس استواؤه على العرش كيفًا، أي هيئة كاستواء المخلوقين من جلوس ونحوه. وقوله: «أنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه»، وذلك لأن الرجل سأله بقوله كيف استواؤه، ولو كان الذي حصل مجرد سؤال عن معنى هذه الآية مع اعتقاد أنها لا تؤخذ على ظاهرها ما كان اعترض عليه[٣].

عقّب الشيخ سلامة القضاعي العزامي[٤] (المتوفى ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م) عن قول مالك لذاك الرجل «صاحب بدعة: «لأن سؤاله عن كيفية الاستواء يدل على أنه فهم الاستواء، على معناه الظاهر الحسي، الذي هو من قبيل تمكن جسم على جسم واستقراره عليه، وإنما شك في كيفية هذا الاستقرار. فسأل عنها، وهذا هو التشبيه بعينه الذي أشار إليه الإمام بالبدعة»[٥].

---

(١) محمد مرتضى الزبيدي، م.س.، (ج٢، ص٨٢).

(٢) ابن حجر العسقلاني، م.س.، (ج١٣، ص٤٠٧).

(٣) سليم علوان، تفسير أولي النهى لقوله تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، ط٤، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، (صص٦٣ - ٦٤).

(٤) وهو من علماء الأزهر.

(٥) سلامة القضاعي العزامي، م.س.، (ص١٦).

فنفي الكيف عن الله تعالى أي الهيئة وكل ما كان من صفات الخلق، كالجلوس والاستقرار والحركة والسكون وما شابه ذلك، محل اتفاق بين علماء أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا.

وقد قال الإمام المحدث الورع أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي (ت٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) في كتابه «بهجة النفوس»: «وقد قال الإمام مالك رحمه الله: كل ما يقع في القلب فالله بخلاف ذلك، لأن كل ما يقع في القلب إنما هو خلق من خلق الله، فكيف يشبه الخالق المخلوق»[١].

والنتيجة: أن عقيدة مالك بن أنس هي عقيدة السلف، وعقيدة أبي الحسن الأشعري هي عقيدة السلف نفسها أيضا، فمن باب الانسياب الطبيعي والانسجام باستمرار العلوم بتلقي الخلف عن السلف، أن تكون عقائد العلماء الذين حافظوا على دين أهل السنة والجماعة في القيروان وإفريقية وسائر بلاد المغرب في وجه أهل البدع، متمسكين بمذهب مالك، وعلى ذلك فإن التأسيس لانتشار الأشعرية في الغرب الإسلامي، بدأ قبل نهاية القرن الرابع الهجري/ ١٠م. أي في عهد الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وفي الفترة السياسية التي كانت الغلبة فيها لسلطة الأغالبة والعبيديين و الزيريين.

ويعتبر الأستاذ خالد زهري أن الكلام عن دخول المذهب الأشعري إلى الغرب الإسلامي، لا يتم بمعزل عن الكلام على

---

(١) عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري، ٥ أجزاء، ط٣، دار الجيل، بيروت، لا ت.، (ج١، ص٥٢).

المذهب، الذي كان يمثل المرجعية العقدية التي حافظ - من خلالها - علماء المغرب على عقيدة أهل السنة، وواجهوا بها المذاهب العقدية المخالفة التي كان لها موطئ قدم في المنطقة، وانضوى تحتها الكثير من الأتباع. فقد ارتبطت عقيدة السلف في الغرب الإسلامي بالفقه المالكي، فانتشرت بانتشاره، وكانت لكليهما[(١)] سلطة معرفية قوية، بل يمكن القول بأنهما كانا يستمدان هذه القوة من بعضهما البعض، إذ كل منهما كان يمد الآخر بعناصر القوة والتجذُّر، وبعوامل البقاء والنمو[(٢)].

وجدير بالتسجيل أن الفرق التي انتشرت في الشرق، نجد نماذج منها في الغرب أيضًا. فقد عُرف عن انتشارٍ لبعض فرق الخوارج والمعتزلة في بعض نواحٍ أيضا. وبعد أن طهَّر الله تعالى أهل المغرب من نزعة الخارجية أولًا، والرافضية ثانيًا، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة، مقلدين للجمهور من السلف رضي الله عنهم، في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر، أي تنزيه الله تعالى عن ظاهر النص حتى لا يوهم التشبيه[(٣)].

ونختم هذا المبحث بهذه الفقرة التي تمهد للمبحث الذي يليه. يقول تاج الدين السبكي في الطبقات: «اعلم أن أبا الحسن [الأشعري] لم يبدع رأيًا ولم ينش مذهبًا، وإنما هو

(١) أي عقيدة السلف والفقه المالكي.
(٢) خالد زهري، م.س.، (ص٢٩٦).
(٣) الناصري. م.س.، (ج١، صص١١٤ - ١١٥). وانظر: الحبيب بن طاهر، (صص٦٦ - ٦٧).

مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقدَ على طريق السلف نطاقًا وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به فى ذلك السالكُ سبيلَه في الدلائل: يسمى أشعريًا»[١].

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٢، صص٢٦٣ - ٢٦٤).

المبحث الثالث:

الأشاعرة الأوائل في الغرب الإسلامي

إن من أبرز الأسباب التي جعلت أهل الغرب الإسلامي يتمسكون بمذهب الإمام مالك، هو ما عرف به هذا الإمام من سلامة مسلكه في أمور العقائد، والالتزام بما أثر عن السلف من أصول الدين مضمونًا ومنهجًا. فكان مذهب مالك في عقيدته هو مذهب علماء المدينة وجماعة أهل السنة والحديث. مع الإيمان بمتشابه القرآن والسنة في الصفات، لا يتعرضون لمتشابههما بتأويل مع التنزيه عن الظاهر. وبالرغم من إمساك مالك عن الخوض في مسائل الاعتقاد، فقد أُثرت عنه أقوال رحمه الله في أمور العقائد، اقتضت المصلحة بيان الأمر وإيضاحه فيها، نقلها عنه من أفردوا عقائد أهل السنة بالتأليف كالبيهقي[١]. وقد أشرنا إلى ذلك آنفا عندما كان جواب مالك عن «الاستواء» تنزيه الله عن الكيف، فقال: «والكيف غير معقول»، أي يستحيل عقلا أن يكون للبارئ عز وجل كيف، لأن الكيفية من صفات الأجسام.

وتؤكد المؤلفات التي أرخت لظهور الفرق الشاذة عن اعتقاد الأمة، مواقف مالك في ما أثير من بدع أهل الأهواء مثل القدرية وغيرهم، فقد ورد في كتاب «تشنيف المسامع»

(١) محمد بن حسن شرحبيلي، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي، ط١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، الرباط، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، (صص٩١ - ٩٤).

للزركشي، في شرحه لنص السبكي في «جمع الجوامع»: «وأن الشافعي ومالكًا وأبا حنيفة والسفيانين[١] وأحمد[٢] والأوزاعي وإسحاق وداود وسائر المسلمين على هدى من ربهم. أي خلافا لبعض المبتدعة في قدحهم في أئمة الدين واختلافهم عليهم ما يزري بالمسلمين، وكلهم رضي الله عنهم بريئون من العقائد الفاسدة، وجلالتهم في الإسلام وعظمهم في النفوس أقوى دليل على ذلك، بل انتدبوا للرد على أهل البدع والضلال، وقد صنف الشافعي «كتاب القياس» رد فيه على من قال بقدم العالم من الملحدين وكتاب «الرد على البراهمة» وغير ذلك، وأبو حنيفة كتاب «الفقه الأكبر» وكتاب «العالم والمتعلم» رد فيه على المخالفين، وكذلك مالك سئل عن مسائل من هذا العلم فأجاب فيها بالطريق القويم»[٣]. ثم إن نخبة كبيرة من علماء الغرب الإسلامي، اضطلعت بالمحافظة على عقيدة أهل السنة والجماعة بزعامة مذهب مالك.

وهذا ما قام به فعلا الإمام أبو الحسن الأشعري في مواجهة المعتزلة والفرق الشاذة من استنباط القواعد العقدية من الكتاب والسنة، وقد أورد الزركشي نقلا عن ابن العربي المالكي: «كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم في أقماع السماسم»[٤].

(١) سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة.
(٢) أحمد بن حنبل.
(٣) محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي. ٤أجزاء، ط١، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، (ج٤، صص٨٤٤ - ٨٤٥).
(٤) محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، م.س.، (ج٤، ص٨٥٠).

١- علماء المالكية يستعملون الكلام للرد على أهل البدع:

وسجلت المصادر، سجالات ضد الخوارج والمعتزلة والمجسمة. فعندما انتشر أهل البدع، اضطر علماء الغرب الإسلامي، إلى استعمال علم الكلام وأدواته العقلية، فرأوا أن من الواجب الشرعي حماية عقائد الإسلام كما جاءت عن السلف، وذلك باقتحام هذا الميدان، والتّسلح بأسلحة خصومهم، لا للدفاع عن عقيدة السلف فقط، بل أيضًا لنقض دعاوى وأباطيل الآخرين، لما رأوا فيها من مجانبة للنظر العقلي الصحيح، أو مغالطات في استدلالاتهم العقلية، وهذا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب(١).

وقد حفظت المصادر العديد من الصور والمواقف، التي حصلت فيها مناظرات في القضايا العقدية، كما حصل بين أبي الوليد الباجي وابن حزم الأندلسي، يقول تاج الدين السبكي في الطبقات وقد عدد مسائل عقدية خالف فيها ابن حزم الإجماع وطعن في أبي الحسن الأشعري: «بلغته عنه [أي عن الأشعري] أقوال نقلها الكاذبون عليه، فصدقها بمجرد سماعه إياها، ثم لم يكتف بالتصديق بمجرد السماع حتى أخذ يشنع، وقد قام أبو الوليد الباجي وغيره على ابن حزم بهذا السبب وغيره، وأُخرج من بلده، وجرى له ما هو مشهور في الكتب من غسل كتبه وغيره»(٢).

وسنورد أمثلة عما تعرض له سحنون من محنة في مسألة

---

(١) الحبيب بن طاهر، م.س.، (صص٦٨ - ٦٩).

(٢) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج١، ص٦٩).

خلق القرآن، التي كان المعتزلة يروجونها من جملة بدعهم أيام المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء بني العباس، وكذلك مناظرات محمد بن سحنون مع بعض أهل الكتاب في مصر، ومع عبيد الله المهدي وأبي عبد الله الشيعي من العبيديين ومع المعتزلة أيضا، وغيرهما من العلماء الذين تصدوا للبدع.

وكان ما يحدث في المشرق ينعكس في بعض صوره على الغرب الإسلامي، من ذلك ما راج من بدع المعتزلة سيما المسائل التي جرى امتحان العلماء فيها مثل مسألة خلق القرآن، ومسألة رؤية الله تعالى في الآخرة. وقد حصل مثل ذلك عند بعض ولاة بني الأغلب، وكانت تنتشر هذه البدع بين بعض المتنفذين من المعتزلة الذين كان لهم القرب من أصحاب السلطة، فتعرض بعض علماء إفريقية لهذه المحنة وكانت شبيهة لما تعرض له أحمد بن حنبل والبويطي وأحمد الخزاعي مع المأمون والمعتصم والواثق.

٢- محنة سحنون وبعض العلماء الآخرين في مسألة خلق القرآن:

أراد أبو جعفر بن الأغلب امتحان سحنون بن سعيد في مسألة خلق القرآن، على غرار ما حصل في المشرق مع أحمد ابن حنبل وغيره. فلما وصل سحنون إلى أبي جعفر جمع له قواده ووزراءه وقاضيه ابن أبي الجواد، وكان في القوم داود بن حمزة القائد، فقال أبو جعفر لسحنون: ما تقول في القرآن، فقال سحنون: أصلح الله الأمير، أمَّا شيء أبديه من نفسي فلا، ولكن الذي سمعت ممن تعلمت منه وأخذت ديني عنه، فهم كانوا يقولون إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، فقال له ابن أبي الجواد: أيها الأمير إنه قد كفر فاقتله ودمه في عنقي،

وقال مثل ذلك نصر بن حمزة القائد وغيره، فقال لداود بن حمزة: ما تقول يا داود، قال أصلح الله الأمير، قتله بالسيف راحة له، ولكن اقتله قتل الحياة، يؤخذ عليه الحملاء[(١)]، وينادى عليه بسماط القيروان لا يفتي ولا يُسمع أحدًا ويلزم داره، ففعل ذلك أبو جعفر وترك قول من أشار عليه بقتله. وأُمر سحنون بلزوم بيته. فما أتى على ذلك إلا حولٌ واحدٌ، حتى غلب أبو العباس محمد بن الأغلب على أخيه أبي جعفر فولَّى القضاء سحنون بن سعيد. ومما يُذكر أيضا، أن زيادة الله ابن الأغلب، أراد ضرب سحنون خمسمائة سوط لعدم اقتدائه بالقاضي ابن أبي الجواد لأنه معتزلي، فنبهه أحد أعوانه أن لا يفعل حتى لا يهلك كما هلك قبله العكي والي إفريقية قبله بسبب ضربه للبهلول بن راشد، وهذا سحنون مثله فارتدع عن ذلك[(٢)].

٣- أسد بن الفرات يرد على المعتزلة:

ورد في رياض النفوس للمالكي: «كان أسد مشهورًا بالفضل والدين، ودينه ومذهبه هو السنة، يقول: القرآن كلام الله عزّ وجلّ وليس بمخلوق، وكان يبدّع من يقول غير ذلك. وكان يقول: إن الله على العرش استوى بلا كيف، ويُرى في الآخرة كما يشاء لا كما يشاء العباد. وتحدث أسد بحديث فيه رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة، وسليمان العراقي آخر المسجد،

---

(١) يعني الكفلاء.

(٢) محمد بن أحمد بن تميم المعروف بأبي العرب، كتاب المحن، تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، (صص٣٥٣ - ٣٥٥). وانظر الدباغ وابن ناجي، م.س.، (صص٥٠ - ٥١).

فتكلم وأنكر، فسمعه فقام إليه وجمع بين طوقه ولحيته واستقبله بنعله، فضربه ضربًا شديدًا حتى أدماه. [وفي موقف آخر كان] أسد بن الفرات يعرض التفسير، فتلا هذه الآية ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾[1]، فقال عند ذلك أسد: ويل لأهل البدع هلكت هوالكهم، يزعمون أن الله، جل وعز، خلق كلامًا يقول ذلك الكلام المخلوق: (أنا الله لا إله إلا أنا)»[2]. وذلك لأن المعتزلة ينفون الصفات عن الله تعالى ومنها صفة الكلام، لذلك دسوا عند الخلفاء والأمراء لامتحان العلماء في هذه المسألة حتى يقولوا: القرآن مخلوق، وإلا عُذبوا وقُتلوا. وعلماء أهل السنة فصَّلوا في ذلك، فقالوا: «إن القرآن له إطلاقان، أي له معنيان، الأول: إطلاقه على الكلام الذاتي الذي ليس هو بحرف ولا صوت ولا لغة عربية ولا غيرها، والثاني: إطلاقه على اللفظ المنزل الذي يقرؤه المؤمنون»[3].

٤- محمد بن سحنون يناظر المعتزلة:

وينقل المالكي أن محمد بن سحنون ناظر شيخًا معتزليًا في مسألة خلق القرآن في مجلس علي بن حميد الوزير، فسأله: «أرأيت كل مخلوق يذل لخالقه؟ فسكت الشيخ ولم يحر جوابًا، لأنه يذهب إلى أن القرآن مخلوق، وجوابه بالإيجاب

---

(١) سورة طه، آية (١٣ - ١٤).

(٢) المالكي، م.س.، (ج١، صص٢٦٤ - ٢٦٥).

(٣) المحدث عبد الله الهرري، عمدة الراغب في مختصر بغية الطالب. ط٣، شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، (ص٤٨).

على ابن سحنون يجعل القرآن ذليلًا، لذلك سكت وخرج»[١]. ويذكر مناظراتٍ أخرى لابن سحنون وزجْرَه لبعض المتعلمين ممن لا يحسن ذلك، من الخوض في الكلام[٢].

٥- موقف العلماء من بني عبيد:

أما بنو عبيد فقد وقف علماء إفريقية عامة والقيروان خاصة موقفًا حازمًا جازمًا في مواجهتهم، ولم يذوبوا في نهجهم وبدعهم، واستمروا في تعليم الناس عقيدة أهل السنة ومذهب مالك، وينشرون العلم بدون توقف وبدون وهن، وقد صورت لنا كتب التراجم شيئًا من جهاد هؤلاء العلماء، وتمسكهم بعقيدة أهل السنة والجماعة، بمواجهتهم للعبيديين إن كان بمناظرتهم أو بتحريض الناس للثورة عليهم.

٥- (١) تلقي العلم خفية من أذى العبيديين:

وفي معرض ترجمة المالكي لأبي بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف بابن اللباد (ت **٣٣٣**هـ/ **٩٤٤**م) أن طلابه كانوا يأتون إليه خفية، ومنهم أبو محمد بن أبي زيد القيرواني، فيقول: «وكان أبو محمد بن أبي زيد وأبو محمد بن التبان الفقيهان وغيرهما يأتون إليه خفية. وكانوا ربما جعلوا الكتب في أوساطهم وحجرهم حتى تبتل بعرقهم، خوفًا منهم على أنفسهم من بني عبيد أن ينالوهم بمكروه. رضي الله تعالى عنهم»[٣].

---

(١) المالكي، م.س.، (ج١، ص٤٤٩).
(٢) نفسه، (ج١، صص٤٥٠ - ٤٥١).
(٣) نفسه، (ج٢، صص٢٨٧ - ٢٨٨).

ولما توفي ابن اللباد رحمه الله، رثاه أبو محمد بن أبي زيد الفقيه بمرثية حسنة منها هذه الأبيات:

وَحَبَّذَا أَنْتَ مِنْ نَفْسٍ مُطَهَّرَةٍ
وَحَبَّذا أَنْتَ مِنْ رُوحٍ رَقَى فَدَنا
مِنْ رَحْمَةِ الله إِذْ تَمَّتْ نَقِيبَتُهُ
وَقَامَ بِالحَقِّ في الدُّنْيَا فَمَا وَهَنَا
حَتَى اسْتَنَارَ بَهِ الإِيمَانُ فِي بَلَدٍ
لَوْلَاُه مَاتَ بِهِ الإِيْمَانُ وَانْدَفَنَا»[(١)]

وممن كان يعلم طلابه خفية، أبو عبد الله محمد بن الفتح المؤدب المرجي (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) «كان يخرج إلى مقبرة باب سلم فيستتر خلف حائط، فيقرأ هنالك على أصحابه، للخوف من بني عبيد والوجل منهم، منعوا من بث العلم وسجنوا أهل العلم في ديارهم»[(٢)].

٥- (٢) القيام بالثورة للحفاظ على مجتمع المسلمين:

كان أبو الفضل عباس بن عيسى بن العباس الممَّسي الفقيه، ممن ثار على بني عبيد وحاربهم، وفيه يقول المالكي: «استشهد واستشهد معه خمسة وثمانون رجلا، كلهم فاضِل خيّر في حرب بني عبيد[(٣)].

(١) نفسه، (ج٢، ص٢٨٩).
(٢) نفسه، (ج٢، ص٣١٣).
(٣) نفسه، (ج٢، ص٢٩٢). وانظر: قصيدة أبي محمد بن أبي زيد الفقيه في رثاء الممسي (ج٢، ص٣٠٠).

يذكر المالكي أن أبا العرب محمد بن أحمد بن تميم (ت٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) صاحب «طبقات علماء إفريقية: «كان أحد من عقد الخروج على بني عبيد»[١]. ولما حاصروا المهدية، سمع الناس على أبي العرب في الموضع، كتابي «الإمامة» لمحمد بن سحنون فقال أبو العرب عند ذلك: «كتبت بيدي هذه ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة كتاب، فوالله الذي لا إله إلا هو، لقراءة هذين الكتابين عليَّ في هذا الموضع أفضل عندي من جميع ما كتبت»[٢].

ويشير المالكي في ترجمته لربيع القطان، إلى أن من تزعم الخروج في هذه الوقعة على بني عبيد هو أبو يزيد الخارجي، فقد نقل عن الشيخ أبي إسحق السبائي، الذي خرج مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عبيد أن قتالهم إلى جانب الخارجي هو لقتال العبيديين، وليس ليكون أبو يزيد رئيسًا عليهم، فقال: «فإذا ظفرنا بهم.. لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد لأنه خارجي، والله عز وجل يسلط عليه إمامًا عادلًا، فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا»[٣]. ثم يتابع المالكي بنفس الصحيفة: «والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان بن نصرون، وأبو إسحاق السبائي، وأبو الفضل الممَّسي، وأبو سليمان ربيع القطان مع جماعة من العراقيين»[٤].

---

(١) نفسه، (ج٢، ص٣٠٩).
(٢) نفسه، (ج٢، ص٣١٠).
(٣) نفسه، (ج٢، ص٣٣٩).
(٤) نفسه، (ج٢، ص٣٣٩).

ويختم المالكي ما حصل في تلك الوقعة في كتابه «رياض النفوس» بكلام أسنده إلى أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) رحمه الله قال فيه: «أخبرنا شيوخنا الذين أدركناهم، أن الذين ماتوا في دار البحر بالمهدية، من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح»[1].

٦- الصلات الأولى بأعيان الأشاعرة:

وفي ترتيب المدارك للقاضي عياض ترجمة لأبي القاسم عبد الرحمٰن بن عبد المؤمن، أحد العلماء الذين شهروا بالكلام، وتلقى من أحد تلاميذ أبي الحسن الأشعري، فقال: «[هو] مكي من المتكلمين على مذهب أهل السنة. ودخل العراق، فأخذ بها عن أبي عبد الله بن مجاهد البصري[2]، وغيره. وسكن آخرًا القيروان. وصحب أبا محمد بن أبي زيد، وغيره من أئمتها، وناظرهم، وذاكروه، وأثنوا عليه وأخذوا عنه. وله بها أخبار معروفة»[3].

وكان ابن مجاهد هذا، مالكي المذهب إمامًا فيه مقدمًا. غلب عليه علم الكلام والأصول.. وله كتاب في أصول الفقه على مذهب مالك، ورسالته المشهورة في الاعتمادات، على مذهب أهل السنة التي كتب بها إلى أهل باب الأبواب، وكتاب تهدية المتبصر ومعونة المستنصر، وتواليف أخرى غيرها.

---

(١) نفسه، (ج٢، ص٣٤٥).

(٢) هو أحد تلاميذ أبي الحسن الأشعري من الطبقة الأولى، انظر: ابن عساكر، م.س.، (ص٣٤٥).

(٣) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج٢، صص١٢٣ - ١٢٤).

وسمع صحيح البخاري من أبي زيد المروزي، ورأيت سماعه في كتاب الأصيلي بخطه، واستجاز أبا محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب المختصر والنوادر.. [ثم يقول في آخر الترجمة] وحدّث عنه القاضي أبو بكر بن الخطيب. وأبو بكر ابن عذرة. وأبو القاسم بن عبد المؤمن المكي»[١].

وخير دليل أجده لبيان الموضوع الذي نحن بصدده، ما ذكره الحافظ ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري»، ولا يخفى على من فتح الله قلبه لفهم الحقائق، أن هذا الكتاب يمكن اعتباره الكتاب الأم في نصرة الأشعري وعقيدته الصافية، فهو يشكل مصدر المعلومات الأساس للدفاع عن الأشعري والأشعرية، نستدل على ذلك فيما قاله تاج الدين السبكي أثناء كلامه عن أبي الحسن الأشعري: «واعلم أنا لو أردنا استيعاب مناقب الشيخ، لضاقت بنا الأوراق وكلت الأقلام، ومن أراد معرفة قدره وأن يمتلىء قلبه من حبه، فعليه بكتاب «تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى»، الذى صنفه الحافظ ابن عساكر وهو من أجل الكتب وأعظمها فائدة وأحسنها، فيقال: كل سنى لا يكون عنده كتاب التبيين لابن عساكر فليس من أمر نفسه على بصيرة»[٢].

وقد أفرد الحافظ ابن عساكر رحمه الله صحائف للكلام عن علماء الأشاعرة في الغرب الإسلامي، وتزداد الصورة وضوحًا بما نقله ابن عساكر عن أحد علماء المالكية أبي عبد الله محمد

(١) نفسه، (ج٢، صص١٣١ - ١٣٢).
(٢) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٢، ص٢٥٥).

ابن موسى بن عمار الكَلاعيّ المآيرقي الفقيه في معرض دفاعه عن أبي الحسن الأشعري، بقوله: «فأهل السنة بالمشرق والمغرب بلسانه يتكلمون، وبحجته يحتجون.. فنُسِب من تعلَّق اليوم بمذهب أهل السنة وتفقَّه في معرفة أصول الدين من سائر المذاهب إلى الأشعري، لكثرة تواليفه، وكثرة قراءة الناس لها.. ولم يبتدع مقالة اخترعها، ولا مذهبًا انفرد به، ألا ترى ان مذهب أهل المدينة ينسب إلى مالك بن أنس رضي الله عنه ومن كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكي.. فكذلك أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه، لا فرق»(١).

والفقيه المآيرقي ترجم له القاضي عياض في «ترتيب المدارك» فقال: «من أهل ميورقة. كان من أهل العلم والفهم، ورحل فلقي بقية مشيخة القيروان السيوري وطبقته. وأخذ الكلام والأصول هناك عن أبي عمر بن سراج، وأبي عبد الله الصيرفي، وأبي القاسم الديباجي. ولقي بها أبا الطاهر البغدادي. وأخذ بصقلية عن شيوخها أبي محمد عبد الحق، وأبي العباس الخراز، وأبي محمد بن الأحب. ولقي شيوخ مصر ومن كان بمكة كرافع المعروف بالحمال وغيره. وغلب عليه علم التوحيد والكلام فيه»(٢).

ومن سياق كلام القاضي عياض الذي يعطي تعريفًا واضحًا عن الشيخ أبي عبد الله الكلاعي المآيرقي يتبين علو شأنه في العلوم الدينية وأنه تلقى علومه في القيروان والتقى علماءها، وهذا يوضح ما نعني به من الإرهاصات الأولى لدخول

---

(١) ابن عساكر، م.س.، (صص٢٦٢ - ٢٦٤).

(٢) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج٢، ص٨١).

الأشعرية إلى بلاد الغرب الإسلامي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يؤكد على استعداد علماء القيروان على تلقي المصطلحات الكلامية التي تم استعمالها ونشرها بعد ظهور أبي الحسن الأشعري، والسبب كنا قد تكلمنا عنه قبلًا وهو الأرضية الخصبة عند علماء المالكية الذين كانوا على اعتقاد الإمام مالك رضي الله عنه، بعبارة أخرى عقيدة سلف الأمة القائمة على تنزيه الله تعالى عن مشابهة خلقه.

ولا شك أن هناك علاقة، في تسريع هذا الانتشار للعقيدة الأشعرية في بلاد المغرب، عن طريق الإمام الباقلاني المالكي، وكذلك أبي ذر الهروي المالكي الذي لزم الباقلاني فترة من الزمن وتعلم منه الكثير[١]. وذلك عن طريق الرحلات إلى المشرق، ومجيء علماء بما يشبه الوفود إلى القيروان.

فيذكر الكلاعي المايرقي نبوغ القاضي أبي بكر الباقلاني في المناظرة والحجاج، وأنه كان يلقب بشيخ السنة، ولسان الأمة. وكان مالكيًا فاضلًا متورعًا، ممن لم يُحفظ عليه زلَّة قط، ولا انتسبت إليه نقيصة. وكان حصنًا من حصون المسلمين، وما سر أهل البدعة بشيء كسرورهم بموته رحمة الله عليه ورضوانه، إلا أنه خلف بعده من تلاميذه جماعة كثيرة تفرقوا في البلاد، اكثرهم بالعراق وخراسان، ونزل منهم إلى المغرب رجلان:

أحدهما: أبو عبد الله الأذري[٢] رضي الله عنه، وبه انتفع

---

(١) ابن عساكر، م.س.، (ص٤٨١).

(٢) في نسخة أخرى: الأزدي. وتم التأكد على أن اسمه «الأذري» من فهرس ابن عطية. انظر: عبد الحق بن عطية، فهرس ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، (ص٧٦).

أهل القيروان، وترك بها من تلاميذه مبرزين مشاهير جماعة، فكان الأذري يعمل ليله ونهاره في نشر العلم، يُعرف ذلك من القصص التي رُويت عنه من خلال تلامذته الذي أدرك منهم المايرقي نفسه، فكان تلاميذه يريدون خدمته فيأبى إلا أن يُتم أموره الخاصة بنفسه، فكان يقول لهم: بارك الله فيكم، ما يخفى علي أنكم مسارعون لهذا الأمر، ولكن قد علمتم عذري وأخاف أن يكون هذا من بعض أجري على تعليمي، وتوفي بالقيروان غريبًا رحمة الله عليه ورضوانه.

والثاني: أبو طاهر البغدادي الناسك الواعظ، كان رجلًا صالحًا، شيخًا كبيرًا، منقطعًا في طرف البلد، أدركه المايرقي أيضًا بالقيروان لا يدرس لكبره، وكان يُقصد في الجامع لفضله ودعائه، وكان يذكر بعض المسائل، وشيئًا من أخبار القاضي رحمه الله. ولم يكن بالقيروان عالم مذكور إلا وهو عالم بعلم الأصول قد أخذ ذلك عنه، كمحمد بن سحنون، وابن الحداد، ولولاه لضاع العلم بالمغرب. وكان الفقيه أبو عمران الفاسي رحمه الله يقول: لو كان علم الكلام طيلسانًا، ما تطيلس به إلا أبو طاهر البغداديّ.

وفي معرض كلام ابن عساكر عن علماء المغرب، يعتبر ابن أبي زيد القيرواني «من الشيوخ المتأخرين المشاهير، وشهرته تغني عن ذكر فضله، اجتمع فيه العقل والدين، والعلم والورع، وكان يلقب بمالك الصغير، وخاطبه من بغداد رجل معتزلي يُرغِّبُهُ في مذهب الإعتزال، ويقول له: إنه مذهب مالك واصحابه، فجاوبه بجواب من وقف عليه. والمعروف عنه أنه كان نهاية في علم الأصول رضي الله عنه

كما وصفه المايرقي[١].

وبعده ومعه: الشيخ الفاضل الكامل أبو الحسن القابسي: متأخر في زمانه، متقدم في شأنه، جمع العلم والعمل، والرواية والدراية، كان عالما بالأصول والفروع والحديث، وغير ذلك من الدقائق ودقيق الورع، وله رسالةٌ في أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه، أحسن الثناء عليه وذكر فضله وإمامته[٢].

وعندما يذكر المايرقي أنه أدرك الكثير من علماء القيروان، هذه إشارة لترحاله وتنقله، وعالمٌ هذه صفته، لا بد أن يكون خبيرًا في وصفه فيما رواه في كتاب تبيين كذب المفتري، لأنه يعتبر شاهدَ عيان فيما صرَّح عنه وتكلم به. والمعروف أن الحافظ ابن عساكر يعتمد في روايته على الثقات، ويدل أن ما ذكره المايرقي كان مشهورًا، ولا يخفى على من يدرس النصوص، أن هذا الأمر كان حالة عامة بين المتعلمين، سرت بينهم معرفتهم بأصول العقائد، مما يؤكد تعميم هذا العلم على أهل القيروان والوافدين إليها من بقية بلاد الغرب الإسلامي للاستزادة من العلوم. وهذا يؤكد ما ذكره ابن عساكر عقب

(١) يقول محقق كتاب ابن عساكر أنس محمد عدنان الشرفاوي في هامشه: «والعجب أن الحافظ الذهبي نعته في «سِيَرِه» (ج١٧، ص١٢) بقوله: «لا يدري الكلام»، ورسالته في الذب عن الأشعري منشورة في كتاب تبيين كذب المفتري لابن عساكر. وسيأتي بعد يسير أسطر كلامُ الإمام ابن زيد في الذب عن الشيخ الأشعري وطريقته (ص١٧٢) برقم (١٣٢). انظر: ابن عساكر، م.س.، الهامش رقم (٢) (ص٢٧١).

(٢) ابن عساكر، م.س.، (صص٢٦٩ - ٢٧٠).

انتهاء كلام المايرقي الكلاعي: «ثم ذكر الكلاعي جماعة من أفاضل هذا العلم بالمغرب، تركت ذكرهم تجنبًا للإطالة، خوفًا من السآمة والملالة»[1].

٧- دفاع أشاعرة القيروان عن أبي الحسن الأشعري:

وقد تبين من خلال النصوص التي وردت في كتاب «التبيين» للحافظ ابن عساكر، أنه استعان بعلمين مهمين مشهورين من علماء القيروان، هما: أبو محمد بن أبي زيد القيرواني، وأبو الحسن القابسي. وأورد لكل منهما قولًا يدافع فيه عن منهج أبي الحسن الأشعري، ويَرُدُّ تلبيس بعض من بلغه التشويش فتشكك بمنهج الأشعري، وإن حصل ذلك، فهذا دلالة على بث الافتراآت من قِبَل بعض المناوئين المخالفين لاعتقاد أهل السنة وعملهم في منع انتشاره.

٧- (١) دفاع ابن أبي زيد القيرواني عن الأشعري:

يورد ابن عساكر نصًا فيه: «وقرأت بخط علي بن بقاء المصري الوراق المحدث، في رسالة كتب بها أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي، جوابًا لعلي بن أحمد ابن اسمعيل البغدادي المعتزلي، حين ذكر أبا الحسن الأشعري رحمه الله ونسبه إلى ما هو بريء منه، مما جرت عادة المعتزلة باستعمال مثله في حقه، فقال ابن ابي زيد في حق أبي الحسن: هو رجل مشهور، إنه يرد على أهل البدع، وعلى القدرية والجهمية، متمسك بالسنن»[2].

---

(١) نفسه، (ص٢٧١).
(٢) نفسه، (صص٢٧٢ - ٢٧٣).

وبلغ من اهتمام ابن عساكر برأي ابن أبي زيد في الأشعري، أن أدرج رسالة ابن أبي زيد الطويلة الذي ردَّ فيها على معتزلي افترى على أبي الحسن الأشعري، ورماه بالخروج من الدين، فأجاد رحمه الله في الرد عليه. فيقول [ابن عساكر]: «ابو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي، وكان مقدم أصحاب مالك رحمه الله بالمغرب في زمانه، [كتب رسالة] إلى علي بن أحمد بن إسماعيل البغدادي المعتزلي، جوابًا عن رسالة كتب بها إلى المالكيين من أهل القيروان، يُظهرُ نصيحتَهم [على زعمه] بما يُدخلُهم به في أقاويل أهل الإعتزال. فذكرَ الرسالةَ بطولها في جزءٍ، وهي معروفة، فمن جملة جواب ابن أبي زيد له أن قال: وذكرتَ الأشعريَّ فنسبتَهُ إلى الكفر، وقلت: إنه كان مشهورًا بالكفر! وهذا ما علمنا أن أحدًا رماه بالكفر غيرُك، ولم تذكر الذي كُفّر به! وكيف يكون مشهورًا بالكفر من لم ينسب هذا إليه أحد علمناه في عصره ولا بعد عصره. وقلت: إنه قدم بغداد ولم يقرّب أحدًا من المالكيين، ولا من آل حماد بن زيد، لعلمه أنهم يعتقدون أنه كافرٌ، ولم تذكر ما الذي كفروه به. ثم ذكر ابن أبي زيد تشنيع علي بن أحمد البغدادي على الأشعري في مسئلة اللفظ، ثم قال ابن أبي زيد في الرد على البغدادي: والقارىء إذا تلا كتاب الله، لو جاز أن يقال: إن كلام هذا القارىء كلامُ الله على الحقيقة لفسد هذا. لأنَّ كلام القارىء محدَث، ويفنى كلامه ويزول، وكلام الله ليس بمحدَثٍ ولا يفنى، وهو صفة من صفاته، وصفتُه لا تكون صفةً لغيره، وهذا قول محمد بن اسماعيل البخاري، وداود الأصبهاني، وغيرهما ممن تكلم في هذا، وكلامُ محمد بن سحنون إمام المغرب، وكلام سعيد بن

محمد بن الحداد، وكان من المتكلمين من أهل السنة وممن يرد على الجهمية»[١]. وعقب كلام ابن أبي زيد القيرواني في الرد على المعتزلي الذي افترى على أبي الحسن الأشعري، يذكر ابن عساكر: «هذا المعتزلي وأهل مذهبه يدينون بخلق القرآن.. لما لم يتجاسر على إظهار ما كان يضمره ويدعو إليه منه. مَوَّهَ على أهل المغرب بما ظنه يكون سببًا لنفورهم عنه، فلم يلتفتوا لاستضلاعهم بالعلم إلى تمويهه، ووجهوا قول الأشعري في اللفظ على احسن وجوهه»[٢].

٧- (٢) دفاع أبي الحسن القابسي عن الأشعري:

أما أبو الحسن القابسي رحمه الله، فقد أجاب عن سؤال سائل من أهل تونس عن أبي الحسن الأشعري. يوردها ابن عساكر بقوله: «قرأت بخط بعض أهل العلم بالفقه والحديث من أهل الأندلس، ممن أثق به فيما يحكيه، وأصدقه فيما يرويه، في جواب سؤال سئل عنه ابو الحسن علي بن محمد الفقيه القيرواني، وهو المعروف بابن القابسي، وهو من كبار أئمة المالكية بالمغرب، سأله عنه بعض أهل تونس من بلاد المغرب، فكان في جوابه له أن قال: واعلموا أن ابا الحسن الأشعري رضي الله عنه لم يأت من هذا الأمر - يعني الكلام - إلا ما أراد به إيضاحَ السنن، والتثبيتَ عليها ودفعَ الشُّبه عنها، فَهِمَه مَنْ فَهِمَهُ بفضل الله عليه، وخفي عمَّن خفي

(١) نفسه، (ص٧٠٠). ويقول محقق الكتاب أنس محمد عدنان الشرفاوي في الهامش رقم (٢) من نفس الصحيفة: «وهذه الكلمة من الإمام ابن أبي زيد القيرواني تذهب بدعوى كونه من أهل التشبيه وأنه ليس من الأشاعرة أدراج الرياح، وتنادي على قائلها بالافتضاح».

(٢) نفسه، (صص٦٩٨ - ٧٠٢).

بقَسْم الله له، وما أبو الحسن الأشعريُّ إلا واحدٌ من جملة القائمين بنصر الحق، ما سمعنا من أهل الإنصاف من يؤخره عن رتبة ذلك، ولا من يؤثر عليه في عصره غيره، ومَن بعدَه من أهل الحق سلكوا سبيله في القيام بأمر الله عز وجل، والذبّ عن دينه حسب اجتهادهم. وأما قولكم: وإن كان التوحيد لا يتم إلا بمقالة الأشعري.. فهذا يدل على أنكم فهمتم أن الأشعري قال في التوحيد قولًا خرج به عن أهل الحق، فإن كان قد نُسِب هذا المعنى عندكم إلى الأشعري، فقد أبطل من قال ذلك عليه، لقد مات الأشعرى رحمه الله يوم مات وأهل السنة باكون عليه، وأهل البدع مستريحون منه، فما عرفه من وصفه بغير هذا»[١]. وكلام القابسي رحمه الله تعالى يُعتبر جوابًا لكل من يشكك في أبي الحسن الأشعري.

وهذا يعني أمرين:

الأول: أن ابن أبي زيد والقابسي، يعلمان أن أبا الحسن الأشعري لم يأتِ بجديد في العقيدة، إلا أنه رتب ونظم وقعَّد أصول معتقد أهل السنة والجماعة، يعني اعتقاد سلف الأمة أهل التنزيه، كما بيّنّا سابقًا.

الثاني: قد يكون هناك نوعان من السؤال:

* السؤال الذي رد عليه ابن أبي زيد، وهو من شخص يعتقد اعتقاد المعتزلة الذين يقولون بخلق القرآن، ويعتبر سؤال من أراد التشويش على أهل المغرب وعلمائه، لكنه لاشك أنه صُدِم بعلم ووعي علماء أهل المغرب.

(١) نفسه، (ص٢٧٢).

* والأمر الثاني فيما يخص السؤال الذي وجه لأبي الحسن القابسي، قد يكون لسائل لم يفطن لأمور العقيدة إما بسبب جهله وضعف تلقيه للعلوم العقدية وغمضت عليه مسائل منها، وإما أن يكون ممن أصابه تشويش مشوّش من صاحب بدعة مضلة.

من خلال ما سبق يتأكد أن إرهاصات دخول الأشعرية إلى الغرب الإسلامي، كانت من خلال الصلات العلمية بعدد من علماء المدرسة الأشعرية منذ نشأتها الأولى، وعبد المؤمن الذي يعد من طبقة القاضي الباقلاني، هو واحد من أولئك، كما صرح بذلك بعض الباحثين(١).

وفي خضم هذه الحركة العلمية استمرت عقيدة السلف، التي هي عقيدة مالك نفسه، بالتمكين في نشرها وتعليمها بين المسلمين، بجهود العلماء الذين كانوا يدرّسون في حلقات التعليم في الكتاتيب والمساجد، وفي الربط التي انتشرت على الثغور، مع ما قام به هؤلاء العلماء من دفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة. بالجدل والمناظرات، أي باستعمال أسلوب الكلام، الذي كان يتقنه الكثير من علماء الغرب الإسلامي.

واللافت للنظر والبارز، ما قام به الفقيه ابن أبي زيد القيرواني، حيث أن بجهوده الطيبة تم وضع دعامة هامة في بنيان المذهب الأشعري في إفريقية وبقية بلاد الغرب الإسلامي، فشهر بين علماء الغرب الإسلامي بمالك الصغير عقيدة وفقهًا؛ كل ذلك، بعد التأسيس الأول الذي تم بجهود

---

(١) الحبيب بن طاهر، م.س.، (ص٧١).

علي بن زياد وسحنون بن سعيد والبهلول بن راشد وسعيد بن الحداد وابن اللباد وغيرهم، في بيان صفاء عقيدة أهل السنة والجماعة التي كان يعتقدها السلف ومذهب مالك.

ويقول بن طاهر في خاتمة كتابه «ابن أبي زيد القيرواني وعقيدته في الرسالة والجامع»: «وتقديري أن ابن أبي زيد القيرواني يمثّل الدعامة الأولى، التي ساهمت في تأسيس الاتجاه الأشعري في الغرب الإسلامي، وكان له الفضل في أن يحقق التواصل بين سلف الأمة وخلفها، في فهم العقيدة، تحت مسمى عقيدة أهل السنة والجماعة»[(١)].

٨- نماذج من الرحلات العلمية المغربية إلى الشرق:

إن الرحلات العلمية التي كان يقوم بها علماء الغرب الإسلامي إلى المشرق كانت لها ثمراتها، بعلاقة يُدرَك فيها وحدة الأمة من ناحية الثقافة العقدية والعلوم الشرعية الأخرى. هذه العلاقة العلمية وهذا التواصل المثمر ما كان ليتم لولا رجال قاموا بمهمات التعليم والتنبه للأخطار المحدقة من ممارسات أهل البدع. هذه الثمرات التي نشهدها على مدار سنين طويلة من التواصل العلمي والفكري بين أطراف العالم الإسلامي مشرقه ومغربه.

ويهمنا أن نبين دور بعض العلماء الذين كان لهم تأثير مباشر في انتشار الأشعرية في كل أدوار وأطوار هذه المدرسة العريقة، وكان لهم الأثر في تعميق المذهب الكلامي للأشعرية في الغرب الإسلامي، منهم الإمام القاضي أبو بكر الباقلاني

(١) نفسه، (ص١٧٧).

والإمام المحدث أبو ذر الهروي وهما مالكيان إضافة إلى آخرين كان لهم دور مؤثر مثل إمام الحرمين عبد الملك الجويني والإمام الغزالي والإمام الكيا الهراسي.

فقد وُصِف الباقلاني بأنه كان في علمه أوحد زمانه، وانتهت إليه الرياسة في مذهبه، وكان موصوفًا بجودة الاستنباط وسرعة الجواب. سمع الحديث في بغداد، وأخذ علم الكلام عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي صاحب الأشعري، وأخذ عنه أئمة منهم أبو ذر الهروي وأبو عمران الفاسي والقاضي أبو محمد بن نصر(١).

وجاء في ترتيب المدارك لعياض: «قال أبو عمران: رحلت الى بغداد وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس، عند أبي الحسن القابسي وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول. فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر ورأيت كلامه في الأصول والفقه، والمؤالف والمخالف، حقرت نفسي وقلت: لا أعلم من العلم شيئًا. ورجعت عنده كالمبتدئ»(٢).

ويقول ابن عساكر فيما نقله عن بعض المشايخ: «خرج أبو ذر [الهروي] إلى مكة فسكنها مدة ثم تزوج في العرب وأقام بالسروات وكان يحج في كل عام ويحدّث.. وكان ثقة فاضلًا ضابطا ديّنًا. مات بمكة سنة (٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م). وقال: قيل لأبي ذر الهروي أنت من هراة فمن اين تمذهبت لمالك

(١) ابن خلكان، م.س.، (ج٤، صص٢٦٩ - ٢٧٠). وعياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج٤، ص٥٨٥). ومحمد بن عمر مخلوف، شجرة النور الزكية مجلدان، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م، (ج١، ص١٣٨).
(٢) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج١، ص٤٨١).

والأشعري؟ فقال: سبب ذلك أني قدمت بغداد لطلب الحديث، فلزمت الدارقطني، فلما كان في بعض الأيام كنت معه، فاجتاز به القاضي أبو بكر بن الطيب [الباقلاني]، فأظهر الدارقطني من إكرامه ما تعجبت منه. فلما فارقه قلت له: أيها الشيخ الإمام، من هذا الذي أظهرت من إكرامه ما رأيت؟ فقال: أوَ ما تعرفه؟ قلت: لا، فقال: هذا سيف السنة أبو بكر الأشعري. فلزمت القاضي منذ ذلك، وأقتديت به في مذهبه جميعًا»[١].

٩- رأي الباجي في أشعرية ابن أبي زيد والقابسي وأبي عمران:

ورأينا من المفيد الاستدلال لتأكيد أشعرية ابن أبي زيد والقابسي والفاسي ببعض أقوال الإمام أبي الوليد الباجي، الذي اعتمد في باب النهي عن القول بالقدر من الموطأ على إيراد أقوال الفقهاء والحديث لما في أقوال غيرهم من الغموض، وما في احتجاجهم مع المخالف من التطويل، ثم صار يمدح الإمام الباقلاني وعلماء المذهب الأشعري مما فيه تأكيد على أشعرية ابن أبي زيد القيروان، وأبي الحسن القابسي، وأبي عمران الفاسي، فقال: «وقد بلغ القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي في كتبه من هذا الباب ما لا مزيد عليه ولا حاجة بالطالب إلا اليسير منه، وكان الشيخ أبو ذر محمد ابن أحمد الهروي مالكيًا وكان على مذهبه وممن أخذ عنه، وكان الشيخ أبو عمران موسى بن حاج الفاسي قد رحل إليه وأخذ عنه وتبعه، وكان الشيخ أبو محمد بن أبي زيد والشيخ

(١) ابن عساكر، م.س.، (ص٤٨١).

أبو الحسن علي بن محمد القابسي يتبعان مذهبه، وقرأ عليه القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر، وهو ممن أخذ عنه واتبعه، وعلى ذلك أدركت علماء شيوخنا بالمشرق، وأهل هذه المقالة هم الذين يشار إليهم بأنهم أهل السنة»[١].

والمعروف أن النهضة العلمية كانت تعتمد على الرجال المعروفين بقوة حفظهم وتمكنهم في العلم، فكانوا منظورين في مجتمعاتهم وعملهم في تعليم الشرائع وهم الذين حافظوا على عقيدة المسلمين والتزامهم بالشريعة الغراء. لذلك أؤكد في بحثي هذا على أن الأمر لا يحتاج إلى نظريات وفلسفات لإثبات ذلك، ففي سلوك الناس كبارًا وصغارًا تعبير عن هذه النهضة العلمية في مظاهر اجتماعية يمكن الوصول إلى فهمها بسهولة، وهذا من صميم عمل المؤرخ.

ولأن القابسي كان معلمًا تخرّج على يديه الكثير من العلماء وعاش في خضم هذه النهضة، ولما كانت الحاجة إلى تنظيم التعليم والعناية بمناهجه، ومعرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بالمعلم والمتعلم، ألف كتابه المشهور «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين».

١٠- رسالة أبن أبي زيد القيرواني:

قيل أن ابن أبي زيد سمي بمالك الصغير للرسالة التي صنفها في المذهب المالكي، وقد بدأ بها بمقدمة لطيفة في العقيدة.

وفي «معالم الإيمان»: «وأول تواليفه «الرسالة» كان الشيخ السبائي سأله وهو في سن الحداثة أن يؤلف كتابًا مختصرًا في

---

(١) أبو الوليد الباجي، م.س.، (ج٤، ص٢٧٩).

اعتقاد أهل السنة مع فقه وآداب ليتعلم ذلك أولاد المسلمين، فألف الرسالة وذلك سنة سبع وعشرين وثلاثمائة، وسنه إذ ذاك سبع وعشرون سنة.

قلت[١]: وقال أبو عبد الله محمد بن سلامة التونسي، وأبو علي ناصر الدين البجائي: إنما سأله تأليفها الشيخ المؤدب محرز بن خلف التونسي، وهذا هو الصحيح عندي، لأن قول الشيخ أبي محمد «كما تعلمهم حروف القرآن»، يدل على ذلك، لأني لا أعلم أن أحدًا ممن تعرض إلى مناقب أبي إسحاق السبائي ذكر أنه كان مؤدبًا»[٢].

فانتشرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين، حتى بلغت العراق، واليمن، والحجاز، والشام، ومصر، وبلاد النوبة، وصقلية، وجميع بلاد إفريقية، والأندلس، والمغرب، وبلاد السودان، وتنافس الناس في اقتنائها حتى كُتِبت بالذهب، وأول نسخة منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بعشرين دينارًا ذهبًا.. ومدحها القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر المالكي فقال:

رِسَالَةُ عِلْمٍ صَاغَهَا العَلَمُ النَّهْدُ
قد اجْتَمَعَتْ فِيهَا الفَرَائِضُ والزُّهْدُ
أُصُولٌ أَضَاءَتْ بِالهُدَى فَكَأَنَّمَا
بَدَى لِعُيُونِ النَّاظِرِينَ بِهَا الرُّشْدُ
وَفي صَدْرِهَا عِلْمُ الدِّيَانَةِ وَاضِحًا
وَآدَابُ خَيْرِ الخَلْقِ لَيْسَ لَهَا بُدُّ

(١) التعليق (قلت) من أبي القاسم بن عيسى التنوخي المعروف بابن ناجي.
(٢) الدباغ وابن ناجي، م.س.، (ج٣، ص١١٣).

لَقَدْ أَمَّ بَانِيهَا السَّدَادَ فَذِكْرُهُ
بِهَا خَالِدٌ مَا حَجَّ وَاعْتَمَرَ الوَفْدُ»[١]

والناظر إليها يعلم أنها على القواعد التي قررها أبو الحسن الأشعري، وقد اجتهد الشارحون المغاربة، لأن يجعلوا من «الرسالة» أصلًا استند إليه مصنِّفو العقائد في تحرير عقائدهم. فيكونون بذلك قد جعلوا من صاحبها سلفًا لهم في البنية الظاهرية والباطنية لهذه العقائد الأشعرية الخالصة، و هذا يؤدي إلى اعتبار ابن أبي زيد القيرواني حلقة هامة في سلسلة أعلام المذهب الأشعري، بل من بواكير هذه السلسلة[٢]، وكانت المحور، الذي عليه سائر كتب المذهب المالكي[٣].

ولم يدع أهل التشبيه والتجسيم ابن أبي زيد القيرواني من الافتراء، لكلمة قالها وهي: «فوق عرشِه المجيدُ بذاتِه»، وقد فسَّرها المنصفون أولي الفهم، بتفسيرٍ فيه تنزيه الرب سبحانه عن افتراء المجسمة، وهذا ما دعا أحد الباحثين إلى القول: «وهذا يوجب النظر في تلك الكلمة وتأويلها، لتنسجم مع مقصد التنزيه ونفي التشبيه، الذي بنيت عليه المقدمة التوحيدية برمتها»[٤].

وسأورد بعض ما ورد من دفاع عن عقيدة ابن أبي زيد القيرواني، بكلام قاله ابن أبي جمرة الأندلسي[٥]، أثناء رده

---

(١) نفسه، (ج٣، صص١١٥ - ١١٦).
(٢) خالد زهري، م.س.، (صص٢٦٠ و٢٦٣).
(٣) نفسه، (ص٢٣٦).
(٤) نفسه، (ص٢٧٣).
(٥) عبد الله بن سعد بن سعيد بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي (ت ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م)، مصنف كتاب مختصر صحيح الإمام البخاري، المسمى «جمع=

على المجسمة: «وأما ما احتجوا به لمذهبهم الفاسد بقول ابن أبي زيد رحمه الله في العقيدة التي ابتدأ الرسالة بها بقوله: «وأنه فوق عرشه المجيدُ بذاته» فلا حجة لهم فيه أيضا، لأنهم خفضوا «المجيد» وجعلوه صفة للعرش وافتروا على الإمام بذلك، والوجه فيه رفع «المجيد» لأنه قد تم الكلام بقوله فوق عرشه، و«المجيد بذاته» كلام مستأنف وهو من غاية التنزيه، لأن مجد الله عز وجل بذاته لا مكتسبًا ومجد عباده مكتسب. فافتروا على الإمام هنا كما افتروا على الآخر هناك»[١].

وفسر صالح عبد السميع الآبي الأزهري قول ابن أبي زيد: (فوق عرشه) أي فوقية سلطنة وقهر[٢]، قال تعالى ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[٣]. وفسرها محمد أحمد الدّاه الشنقيطي الموريتاني: (وفوق عرشه) فوقية شرف وإجلال وقهر، لا فوقية حيّز ومكان، لاستحالة الفوقية الجسمية عليه تعالى، لاستلزامها الجرمية والحدوث الموجبين للافتقار، المنزه عنه الخالق جل وعلا»[٤].

أما محمد بن سلامة الأنصاري التونسي (ت٧٤٦هـ/ ١٣٥٦م)

= النهاية في بدء الخير والغاية»، الذي اختصره إلى نحو ثلاثمائة حديث، ثم قام بشرحه وسماه «بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها».

(١) عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، م. س.، (ج١، ص٣٦).

(٢) صالح عبد السميع الآبي الأزهري، الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني،ط١، طبع عبد الله اليسَّار، القاهرة، لا ت.، (ص١٠).

(٣) سورة الأعراف، آية (١٢٧).

(٤) محمد أحمد الدّاه الشنقيطي الموريتاني، الفتح الرباني شرح على نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م، (ص٢٢).

ففسرها بقوله: «فأما لفظ الفوقية فمشترك بين الحسي والمعنوي، والقرينة تخصص المراد منها. أو يكون من باب الحقيقة والمجاز، فهو حقيقة في الأجرام مجاز في المعاني. وكم من مجاز يترجح على الحقيقة. فإذا تقرر هذا فمحمل (فوق) على الحس معلوم الاستحالة بالدلائل اليقينية، لتقدسه تعالى عن الجواهر والأجسام. ومعلوم ذلك من سياق المصنف، بحيث لا يوهم قارئه أنه أراد الحس.. وعلو الله ومجده ليس كعلو غيره، بل هو مخالف لكل المخلوقات مخالفة مطلقة، فمجده تعالى وعظمته وعلياؤه حكم واجب بذاته لا يشارَك فيها. وسواء قلنا على هذا إن العرش نعت بالمجد، أو المجد خبر مبتدأ، فأراد المصنف أن يبين أن ذلك العلو والمجد والجلال الذاتي ليس إلا لله رب العالمين، كأنه يقول: هو العليُّ المجيدُ بذاتِه، ليس ذلك مستفادًا من غيره. وإن قلنا (بذاته) متعلق بـ(فوق)، والمجد نعت للعرش، فكأنه يقول: هو فوق أعظم المخلوقات وأرفعها فوقية وعظمة وجلالًا بذاته، لا بتشريف مشرّف ولا بتخصيص مخصّص، بل بذاته العلي المقدس عن الاحتياج»[١].

وقام بشرحها القاضي أحمد القلشاني (ت٨٦٣هـ/ ١٤٥٩م) بقوله: «ومعنى فوقية الله تعالى على عرشه. فالفوقية عبارة عن كون الشيء أعلى من غيره في المحسوسات بالمماسة كزيد على السطح، وفي المعنويات كالسيد فوق عبده، المراد في

(١) محمد بن سلامة الأنصاري التونسي، النكت المفيدة في شرح الخطبة والعقيدة، ط١، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (صص٨٤ - ٨٥).

الشرف. وكذا قوله تعالى ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[(١)] فالفوقية هنا معنوية، بمعنى القهر والغلبة والظهور، وكذا ﴿فَوْقَهُمْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[(٢)] الفوقية فيها معنوية. فمن جاز عليه المكان جاز أن تكون فوقيته بالمكان أو بالمعنى، ومن يستحيل عليه الجهة والمكان لا تكون فوقيته إلا معنوية. [ثم قال] وأما فوقية الله تعالى على عرشه، فالمراد بها فوقية معنوية بمعنى الشرف والجلال والكمال والمكانة، لا فوقية أحياز وأمكنة، فإنه تعالى يستحيل عليه المكان والجهات ومشابهة المخلوقات. وهو بمعنى الحكم والملك، فيرجع إلى معنى القهر»[(٣)].

وأيضًا فسرها عبد المجيد الشرنوبي الأزهري (ت١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م) بقوله: «(فوق عرشه) أي فوقية تشريف وسلطنة فهي فوقية معنوية لا حسية كما في قوله تعالى ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾[(٤)] ولا ينافي هذا قوله (بذاته) لأن المراد أن هذه الفوقية المعنوية له بالذات لا بالغير من كثرة أموال وفخامة أجناد»[(٥)].

---

(١) سورة آل عمران، آية (٥٥).

(٢) سورة البقرة، آية (٢١٢).

(٣) أحمد القلشاني، تحرير المقالة في شرح الرسالة. ط١، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (صص١٠٠ - ١٠١).

(٤) سورة الأعراف: (١٢٧).

(٥) عبد المجيد بن إبراهيم الشرنوبي الأزهري، تقريب المعاني على متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، (ص١٧).

فتبين بعد عرض هذه الأدلة، أن ابن أبي زيد القيرواني الملقب بـ«مالك الصغير» لم يكن على عقيدة التشبيه والتجسيم.

والناظر في كثير من المصادر التي تترجم لعلماء الغرب الإسلامي، يجد أن الكثير منهم تلقى في القيروان عن ابن أبي زيد وأبي الحسن القابسي، فاسمهما كانا يقترنان في ترجمة الكثير من العلماء في الغرب الإسلامي، الذين تلقوا عنهما، فكانا صاحبين، حتى أنه رحمه الله «جهز ابنة الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعمائة دينار عيْنًا، وقال: كنت أَعْدَدتها من حين إملاكها لئلا يشتغل قلب أبيها من قبلها»[١].

وإذ كانت ولادة القابسي في سنة (٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، فقد عاش جزءا كبيرا من حياته تحت حكم العبيديين. وكان بالخصوص مثل سلفه ابن أبي زيد شخصية واسعة الآفاق، طويلة الباع في المذهب المالكي. ويقول أحمد خالد في تعليقه على «الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» للقابسي: «وأصبح بالأخص بعد وفاة ابن أبي زيد القيرواني في (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م) رئيسا للمدرسة المالكية بالغرب الإسلامي، وهي المدرسة الفكرية والعقائدية، التي بنى أسسها وركز قواعدها بصفة حاسمة، بالمغرب العربي الكبير عمومًا وبإفريقية خصوصًا، العالم الجليل والمربي الألمعي سحنون بن سعيد (١٦٠هـ/ ٧٧٦م- ٢٤٠هـ/ ٨٥٦م)»[٢].

---

(١) الدباغ وابن ناجي، م.س.، (ج٣، ص١١٧).

(٢) أحمد خالد، من تعليقه ودراسته للرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين لعلي بن محمد بن خلف المعافري المعروف بأبي الحسن القابسي. ط١، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨٦م، (ص٨).

وكان ابن أبي زيد القيرواني وأبو الحسن القابسي على علاقة طيبة مع زهاد القيروان وإفريقية، مثل محرز بن خلف، وأبي إسحاق الجبنياني. يقول في «معالم الإيمان»: «ذكر أن المؤدب محرز بن خلف التونسي رحمه الله قصد إلى زيارة أبي محمد، فلما دخل إلى داره أتوه بابنة الفقيه أبي محمد ليدعو لها، وكانت قد أقعدت فدعا لها، فقامت على قدميها ومشت من ساعتها، فكثر التعجب من ذلك! فقال المؤدب محرز: والله ما قلت إلا «اللهم بحرمة أبيها عندك اكشف ما نزل بها» فشفاها الله ببركة أبيها»[1].

(١) الدباغ وابن ناجي، م.س.، (ج٣، ص١١٩).

الباب الثاني

انتشار الأشعرية في الغرب الإسلامي

الفصل الأول: العقيدة الأشعرية وأثرها في الغرب الإسلامي في القرنين الخامس والسادس الهجريين /١١ - ١٢م

المبحث الأول: الوضعية السياسية في الغرب الإسلامي قبل مقدم المرابطين

المبحث الثاني: العقيدة الأشعرية وانتشارها في الغرب الإسلامي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين / ١١ - ١٢م

الفصل الثاني: نماذج من علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي

المبحث الأول: نماذج من علماء الأشعرية في المغرب الأقصى

المبحث الثاني: نماذج من علماء الأشعرية في الأندلس

المبحث الثالث: نماذج من علماء الأشعرية في المغرب الأدنى

في النصف الأول من القرن الخامس الهجري بدأ امتداد الإسلام على يد المرابطين في إفريقية المدارية والاستوائية، على الطرف الغربي الأقصى لعالم الإسلام على ساحل المحيط، فيما يعرف الآن ببلاد السنغال وما يليها جنوبًا وشرقًا[١] أما في إفريقية المدارية والاستوائية في الجناح الغربي، فقد تولى نشر الإسلام خلال هذه المرحلة الثالثة بعد المرابطين، دول إسلامية إفريقية أولها دولة مالي.

وزيادة على الغزو الصليبي في بلاد المشرق، حصل ما يكدر عيش المسلمين في بلاد الأندلس، حيث استغل نصارى أوروبا ضعف دول الطوائف، والانقسامات التي حصلت فيما بينهم، وحققوا انتصارات تسببت في اندحار المسلمين عن عدد كبير من المدن. فقد بدأ خلال القرن تدهور في الأوضاع في الأندلس وصقلية انتهى بضياعهما بعد سنوات طويلة من حكم المسلمين فيها. وفي نفس ذلك القرن بدأ التوسع الإسلامي في إفريقية الغربية والوسطى المدارية والاستوائية[٢].

ولكن ما تميز به الغرب الإسلامي في هذا العصر هو ظهور دولتين كبيرتين، حققت انتصارات كبيرة للمسلمين، ووحدت بلاده ونهضت بها نهضة علمية كبيرة، كان لها أثرها على انتشار العقيدة الأشعرية في ربوعه، فقد خرج العبيديون من المناطق التي أسسوا فيها دولتهم في تونس والمهدية والمنصورة، وتوجهوا بجيوشهم لاحتلال مصر فملكوها في

(١) حسين مؤنس، م.س.، (ص٣٣).
(٢) نفس المرجع والصحيفة.

(٣٥٨هـ/ ٩٦٩م)، في الوقت الذي كان المرابطون يؤسسون دولتهم القوية التي عملت على تنظيف المغرب من تجمعات أهل البدع من الخوارج والبورغواطيين، وحققت الانتصارات الكبيرة في توحيد الأندلس بعد إنهاء دول الطوائف، والذي أعقبه الانتصار الهائل على الأوروبيين في معركة الزلاقة سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) بقيادة يوسف بن تاشفين.

وكذلك بعد انهيار دولة المرابطين سار الموحدون على توحيد البلاد ومواجهة الأوروبيين الذين انتصروا عليهم في معركة الأراك سنة (٥٩١هـ/ ١١٩٥م) بقيادة يعقوب المنصور الموحدي.

وما يهمنا في بحثنا أن نؤكد أن علماء الأشاعرة ما توقفوا عن إنتاجهم الفكري وتعليمهم العقائد، فكانت الأشعرية تنتشر قبل مرحلة ابن تومرت وبعد مرحلته ازدادت تجذرًا.

الفصل الأول

العقيدة الأشعرية وأثرها في الغرب الإسلامي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/١١ و١٢م

المبحث الأول: الوضعية السياسية في الغرب الإسلامي قبل مقدم المرابطين

المبحث الثاني: العقيدة الأشعرية وانتشارها في الغرب الإسلامي خلال ق. ٥ - ٦هـ/ ١١ - ١٢م

المبحث الأول:

الوضعية السياسية في الغرب الإسلامي قبل مقدم المرابطين

بدأ التأسيس لانتشار الأشعرية في الغرب الإسلامي قبل نهاية القرن الرابع الهجري/ ١٠م، اعتمادا على ما أسسه علماء المالكية من نشر مذهب مالك، على عقيدة أهل السنة والجماعة، عقيدة مالك بن أنس رحمه الله. فجذور الأشعرية تمتد إلى ما قبل نهاية القرن الرابع الهجري أي في عهد بني عبيد وبني زيري.

وقد سجلت المصادر سجالات فقهاء المالكية ضد الخوارج والمعتزلة والمجسمة. فكانت مدرسة الغرب الإسلامي مدرسة نشأت في الثغور المتقدمة، بسبب زخم الأحداث السياسية التي سادت البلاد، وكذلك بسبب التفكير العلمي الوقاد الذي لم تخمد جذوته ولم ينطفئ نوره، بأثر مذهب مالك والصوفية والزهاد.

وفي بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ظهر ما يؤيد ويدعم انتشار العقيدة الأشعرية، بسبب قيام دولتين، كان منشأ كلٍ منهما بسبب ديني وبرئاسة زعيم ديني، عنينا بذلك دولتي المرابطين والموحدين.

ووقفنا من خلال ما اطلعنا عليه في بعض الدراسات، أن مجسمة العصر الوهابية يعتقدون أن دولة المرابطين قامت وأُنشِئت على معتقدهم، حتى إنهم يقولون إن ما قام به عبد الله

ابن ياسين من عمل، يذكِّر بالدعوة التي قام بها محمد بن عبد الوهاب قبل قيام دولتهم[١]، التي تأسست بمساعدة البريطانيين سنة (١٧٤٤م). وهذا الكلام مردود بدليل ما خطط له أبو عمران الفاسي الأشعري الاعتقاد، وما قام به تلميذه وجاج بن زلو أستاذ عبد الله بن ياسين الجزولي.

١- الدولة الزيرية بإفريقية وعلاقتها بالعبيديين في مصر:

عند خروج العبيديين من إفريقية إلى مصر. التي دخلوها بغزوٍ قادَهُ جوهر الصقلي سنة (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م)، بإيعاز من المعز أبو تميم معد بن المنصور العبيدي. الذي رحل إلى مصر سنة (٣٦١هـ/ ٩٧٢م) فأمَّن أهلها واتخذها دار ملكه، واستخلف أبا الفتوح بلكين الصنهاجي أميرًا على إفريقية والمغرب كله[٢]. وفي «شجرة النور الزكية» هو أبو الفتوح بلكين يقال له يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي، ويوسف هذا أسس مدائن بالمغرب الأوسط منها مليانة والجزائر.. وقصد المغرب الأقصى بجيش جرار واستولى على فاس وسجلماسة وغيرها وشتت جموع زناتة.. توفي سنة (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) وبويع لابنه أبي الفتوح منصور بن يوسف وبعد وفاته سنة (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م)

---

(١) يتحدث متحاوران في موقع أهل الحديث الإلكتروني عن تاريخ الدولة المرابطية، فيقول أحدهما: «كلما قرأت سيرة الشيخ عبد الله بن ياسين، مؤسس الدولة المرابطية، وجدت أنه يشبه إلى حد بعيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العقيدة والمنهج والصلابة في الحق». انظر: من المكتبة الشاملة، أرشيف ملتقى أهل الحديث ٢، (ج٢٠، ص١١٠). تم تحميله: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، http://www.ahlalhdeeth.com.

(٢) ابن عذاري، م.س.، (ج١، ص٢٢٨).

بويع لابنه أبي مناد باديس بن منصور وكانت له حروب مع عمه حماد وغيره، كان النصر فيها لباديس، وعقب انتصاره مات باديس فجأة في ذي القعدة سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٦م). وأسس حماد المذكور دولة في المغرب الأوسط قاعدتها قلعة حماد وصارت لبنيه، ومن يومئذ انقسمت الدولة وطرقها الخلل. وهؤلاء الأمراء هم في الحقيقة عمال لبني عبيد، بلغوا درجة الملوك في الضخامة وبعد الصيت والسلطان. ومع ذلك فقد كان لهم وللمعز الآتي ذكره إلى آخر دولته، التفات واهتمام بأهل العلم والأدباء، بالصلات المتوالية ومجالستهم مع التعظيم والإجلال والتكريم ومكاتبتهم، فقد كان باديس يكاتب أبا محفوظ محرز وكذلك ابنه المعز[١].

لما توفي باديس بويع لابنه المعز بالمهدية وعمره ثماني سنوات، وذلك في ذي الحجة سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٦م). والمعز هذا هو واسطة عقد ملوك بني زيري، توفرت في أيامه أسباب العز والثروة والعمران.. وكانت بإفريقية مذاهب الشيعة والصفرية والأباضية والنكارية والمعتزلة، وكانت بها من مذاهب أهل السنة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك، فظهر له حمل الناس على التمسك بمذهب مالك وقطع ما عداه، حسمًا لمادة الخلاف[٢].

ويذكر ابن عذاري أن المعز بن باديس لما كان صغيرًا رُبّيَ في حجر وزيره ابي الحسن ابن ابي الرجال، وكان ورعًا زاهدًا، فأدبه ودلّه على مذهب مالك وعلى السنَّة والجماعة.

---

(١) مخلوف، م.س.، (ج٢، ١٤٣).
(٢) نفسه، (ج٢، ص١٤٨).

ولم تزل ملوك صنهاجة يخطبون لبني عبيد بمصر، ويذكرون أسماءهم على المنابر. وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فرارًا من دعوتهم.. حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحدٌ. فتعطلت الجمعة دهرًا، إلى أن رأى المعز بن باديس قطع دعوتهم، فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم[(١)]. وكان ذلك في سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٩م)[(٢)].

أمر المعز بن باديس في السنة التالية بتبديل السكة، فنقش في الوجه الواحد ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾[(٣)] وفي الوجه الثاني (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وضرب منها دنانير كثيرة. وقطع أسماءهم من الرايات والبنود. وكان مبتدأ ضرب السكك بأسماء بني عبيد ورسمها في الآيات والطرز سنة (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، إلى أن قطعها المعز المذكور سنة (٤٤١هـ/ ١٠٥٠م)»[(٤)].

وفي سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥٢م) جمع المعز الفقهاء والقضاة إلى قصره، وخطيب القيروان وجميع المؤذنين، وكساهم السواد[(٥)] ونزلوا بأجمعهم، وركب السلطان بعدهم حتى وصل إلى جامع القيروان، ثم صعد الخطيب المنبر وخطب خطبة أتى فيها على جميع الأمر بأجزل لفظ وأحسن معنى، ثم دعا لأبي جعفر

(١) ابن عذاري، م.س.، (ج١، ص٢٧٣ و٢٧٧).
(٢) مخلوف، م.س.، (ج٢، ص١٤٩).
(٣) سورة آل عمران، آية (٨٥).
(٤) ابن عذاري، م.س.، (ج١، صص٢٧٨ - ٢٧٩).
(٥) شعار الخلافة العباسية.

عبد الله القائم بأمر الله العباسي، ودعا للسلطان المعز بن باديس ولولده أبي الطاهر تميم ولي عهده من بعده، ثم أخزى بني عبيد ولعنهم[١].

وفي البيان المغرب: «لما آل الأمر إلى التصريح بلعنة بني عبيد على المنابر. أباح بنو عبيد للعرب مجاز النيل، وكان قبل ذلك ممنوعا، لا يجوزه أحد من العرب؛ ثم أمر لكل جائز منهم بدينار، فجاز منهم خلق عظيم، من غير أن يأمرهم بشىء لعلمه أنهم لا يحتاجون لوصية»[٢]. كبني هلال وبني سليم وغيرهم، معروفين بالطيش وشدة البطش، للتشفي من المعز وإفريقية، وانتشروا كالجراد ودخلوا إفريقية وعثوا فيها بالبغي والفساد، وأذاقوا أهلها لباس الجوع والخوف بما لم يعهد»[٣].

ويذكر المراكشي في «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»: «كانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم.. فلما استولى عليها الخراب كما ذكرنا تفرق أهلها في كل وجه، فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صقلية والأندلس، وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس فعقبهم بها إلى اليوم»[٤].

ويضيف المراكشي: «وكانت العمارة متصلة من مدينة

---

(١) ابن عذاري، م.س.، (ج١ - ٢٨٠).
(٢) نفسه، (ج١، ص٢٨٨).
(٣) مخلوف، م.س.، (ج١، ص٢٨٨).
(٤) عبد الواحد بن علي المراكشي، م.س.، (ص٢٥٥).

الإسكندرية إلى مدينة القيروان، تمشي فيها القوافل ليلًا ونهارًا، وكان فيما بين الإسكندرية وطرابس المغرب حصون متقاربة جدًا، فإذا ظهر في البحر عدو، نور كل حصن للحصن الذي يليه، واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية، أو من الإسكندرية إلى طرابلس، في ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم. لم يزل هذا معروفًا من أمر هذه البلاد إلى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها، أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب، حين تغير ما بينهم وبين المعز بن باديس الصنهاجي، وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبني العباس. فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا»[(١)]، وقد توفي المراكشي سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م).

فبعد أن كانت القيروان وإفريقية في أوج العزة والازدهار إذ رماها الزمن بداهية دهياء، زعزعت منها القواعد وردتها على الأعقاب، وأقامت فيها مأتمًا بعد عرس. كانت تلك الكارثة التي حلت بالبلاد، ولم يكن لها بمثلها عهد منذ تاريخها الأقدم، أنها فقدت وحدتها السياسية وأضاعت سلطانها المركزي، فاختل توازنها، وانهارت حضارتها في أقل من عام. هجم على إفريقية التونسية بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ، ولا كهجوم التتر على بغداد كأنهم السيل العرم يتدافع علىً البطاح، أو كأنهم الجراد المنتشر يحط على الحقول النامية، وما هي إلا أن هدمت القصور والأبنية، وخربت المسالك والميادين، وعاثت في عمران البلاد يد الدمار. وأصابت النكبة أول ما

---

(١) نفسه، (ص٢٥٠).

أصابت مدينة القيروان، أم القرى المغربية، وعاصمة الحضارة العربية، فأصبحت خاوية على عروشها، يهيم أهلوها على وجوههم في أرجاء الأرض العريضة ما بين أصقاع المغرب والأندلس، إلى العراق، إلى ما وراء النهر. فارق العلم والأدب والفن ربوع القيروان، ومضى يلم شتاته، ويجمع بقاياه، ملتمسًا له ملاذًا في المهدية وسوسة وبعض القرى الساحلية الأخرى(١).

وتؤكد المصادر أن سبب القطيعة بين المعز بن باديس والعبيديين في مصر، يعود إلى المنهج الذي اتبعه فقهاء القيروان في التأثير في السلطة السياسية. ويعبر الهادي روجي إدريس عن ذلك: «[في] مدى أهمية العمل العميق والمتواصل الذي كان يقوم به فقهاء القيروان.. الذين قد واصلوا العمل الذي بدأه سحنون(٢)، وكانوا الباعثين الحقيقيين لانتعاش المذهب السني في إفريقية»(٣).

وقد اعتبر الهادي روجيه إدريس فيما نشره في «حوليات معهد الدراسات الشرقية» أن أبا عمران الفاسي كان له تأثير كبير في فقهاء القيروان وإفريقية، حيث ذكر اجتماع القاضي ابن أبي رئال المبعوث من أمير «دانية» في الأندلس الموفق مجاهد

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب، الإمام المازري. دار الكتب الشرقية، تونس، ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩، (صص٧ - ٨).
(٢) وغيره من علماء المالكية.
(٣) الهادي روجيه إدريس، الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠م إلى القرن ١١م. نقله إلى العربية حمادي الساحلي، جزءان، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، (ص٢١٤).

العامري (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م) ومعه مائة سؤال فقهي إلى فقهاء القيروان، وفي مقدمتهم أبي عمران الفاسي، وبسبب هذا التأثير اعتبر الباحث أن «هذا الحدث على غاية من الأهمية بالنسبة إلى تاريخ القطيعة بين بني زيري وبني عبيد، لأنه وقع بطبيعة الحال قبل سنة (٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م) تاريخ وفاة أبي عمران الفاسي»[(١)].

٢- أبو عمران الفاسي ودوره في التمهيد لدولة المرابطين:

كان أبو عمران الفاسي أحد الذين نهلوا من مدرسة المذهب المالكي، الذي تم تأسيسها في القيروان، وكان واحدًا من حلقات هذه السلسلة الطيبة الإسناد، التي ترجع إلى عالم المدينة مالك بن أنس رضي الله عنه، فكانت منهجًا منيرًا أسس طريقه علماء أفاضل مثل سحنون بن سعيد، ومن تعلم وتدرج وظهر بعده من العلماء ومنهم أبو عمران.

وقد انبثق عن هذا البرنامج التربوي المشترك بين فقهاء القيروان، ذلك المشروع السياسي الذي يرجع الفضل في التخطيط له ووضعه موضع التنفيذ إلى أبي عمران، هذا المشروع الذي ابتدأ من حلقته الدراسية بالقيروان، ثم انتهى بقيام دولة عظمى، هي دولة المرابطين، وتكلل أخيرا بقيام الوحدة بين المغرب والأندلس ابتداء من جهاد عبد الله بن ياسين الجزولي، وانتهاء إلى ظهور يوسف بن تاشفين اللمتوني المرابطي[(٢)].

---

(١) نفسه، (صص٢١٧ - ٢١٨).

(٢) عبد الهادي حميتو، بحث بعنوان: حياة أبي عمران الفاسي ومناقبه، للندوة=

وعن تأثير الفقهاء في السلطان والعامة، يُروى في «معالم الإيمان «نقلا عن أبي عبد الله المازري عن بعض شيوخه: «إن المعز بن باديس، بعث ابن عطاء اليهودي طبيبه وخاصته إلى أبي عمران، يستفتيه في مسألة، فلما دخل على الشيخ في داره، ظنه الشيخ بعض رجال الدولة، إلى أن قال بعض الحاضرين: أكرمك الله إنه من خيار أهل ملته، فقال الشيخ: وما ملته؟ فقال: هذا ابن عطاء اليهودي، فغضب أبو عمران، وقال لابن عطاء: أما علمت أن داري كمسجدي، فكيف اجترأت على دخولها؟ وأمره بالخروج فخرج وهو يرعد، وكان غير معلّم فأمر الشيخ بصبغ طرف عمامته لشهرته[1]، وقال: انصرف إلى مرسلك فقل له: يبعث إليَّ برجل من المسلمين يأخذ جواب مسألته، فإني لأستحيي أنْ أحمّلك أسماءَ الله وحكمًا من أحكامه. فلما دخل اليهودي على المعز، ذكر له القضية وقال: والله يا سيدي ما ظننت أن بإفريقية ملكًا غيرك إلا يومي هذا، ولقد وقفت بين يديك في حال غضبك الشديد فما أدركني الفزع، ولا أصابني من الرعب ما أصابني في يومي هذا، فقال له المعز: إنما فعلتُ ذلك لأريَك عزَّ الإسلام وهيبة

= العلمية التي نظمها مركز الدراسات وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء بمناسبة مرور ألف عام على وفاة أبي عمران الفاسي، أقيمت بعنوان: أبو عمران الفاسي (ت ٤٣٠هآ) حافظ المذهب المالكي يوم الخميس ٤ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق ٣٠ أبريل ٢٠٠٩م في الرباط، ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م (ص٥٧). وانظر: مولاي الحسين الحيان، حضور أبي عمران الفاسي في المدونات الفقهية. في نفس الندوة، (ص٢٣٥).

(١) يعني حتى يُعرف أنه ذمي.

علماء المسلمين، وما ألبسهم الله من شعائر الأولياء لعلك تُسْلِم»[١].

وفي «معالم الإيمان» أيضا، أن «المعز بن باديس دسَّ إلى اثنين من فقهاء القيروان، أحدهما أبو بكر أحمد بن عبد الرحمٰن (ت٤٣٢هـ/ ١٠٤١م) والآخر أبو عمران الفاسي سؤالًا نصه: ما يقول الفقيه في هذا الطرز التي فيها أسماء بني عبيد مثل الطاهر والحاكم وغيرهما مما يلبس أيُصلّى فيها؟ فكتب الشيخ أبو بكر جوابًا: هذا سؤال أحمق أخرق قليل المعرفة، وكتب الشيخ أبو عمران الفاسي جوابًا عن هذا السؤال: إنما يجب على من بسط الله يده أن يمنع من ذلك. فشُق على السلطان جواب الشيخ أبي بكر، فأرسل إليه وإلى الشيخ أبي عمران فقال للشيخ أبي بكر: لِمَ أجبت بهذا؟ فقال: لأن السكة تُضرب بأسمائهم وبنودهم تخفق على رأسك، فقال السلطان: ما أبقيت السكة والبنود إلا مداراة لأجل حجاج بيت الله الحرام والمسافرين، ثم قال السلطان: ألم أفعل كذا؟ ألم أفعل كذا؟ فقال الشيخ أبو بكر: فعلتَ وبقي عليك!. . ثم عطف عليه الشيخ أبو عمران فقال له: لِمَ لم تكتب بمنع ذلك؟ [ويعقب ابن ناجي على قول الدباغ فقال:] قلت: فالشيخ أبو عمران أعان بكلامه هذا أبا بكر، ولذلك قيل: كان بينهما تباعد جدًا، حتى طمع بذلك المعز فيهما ليجري الحجة على العامة بشهادة أحدهما على الآخر إذ كانت العامة طوعهما، فلما اختبرهما بذلك، لم يجد عندهما ما يوافقه ووجد دينهما أمتن مما يظن»[٢].

---

(١) الدباغ وابن ناجي، م.س.، (ج٣، صص١٦٤ - ١٦٥).
(٢) نفسه، (ج٣، ص١٧١).

أما التباعد بين أبي بكر بن عبد الرحمٰن وأبي عمران الفاسي، فسببه على ما ذُكر في «معالم الإيمان»: «ولما ورد [أبو عمران] القيروان وجلس بها وبان علمه. قال أصحاب أبي بكر بن عبد الرحمن: نسير إليه، وقالوا: إنه يعز على شيخنا ذلك. وتروّضوا في الحضور عنده، ثم عزموا على ذلك، فأسخطوا شيخهم»[(١)].

وفي ترتيب المدارك لعياض: «وذكر أن الباقلاني كان يعجبه حفظه، ويقول: لو اجتمعتَ في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر، وكان إذ ذاك بالموصل، لاجتمع فيها علم مالك، أنت تحفظه وهو ينصره، لو رآكما مالك لسرّ بكما. قال ابن عمار في رسالته، فذكره فقال: كان إمامًا في كل علم، نافذًا في علم الأصول، مقطوعًا بفضله وإمامته. ولما دخل بغداد شاع أن فقيهًا من أهل المغرب مالكيًا، قدم. فقال الناس: لسنا نراه إلا عند القاضي أبي بكر الباقلاني، وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق، وإمام الناس»[(٢)].

ويضيف القاضي عياض واصفًا إتقان أبي عمران لعلم التوحيد، وحكمته في تبليغه للعامة بقوله: «وجرت بالقيروان مسألة في الكفار، هل يعرفون الله أو لا؟ فوقع فيها تنازع عظيم بين العلماء. وتجاوز ذلك الى العامة، وكثر التمادي بينهم، حتى كان يقوم بعضهم الى بعض في الأسواق، ويخرجون عن حد الاعتدال الى القتال. وكان المتهجم بذلك رجل مؤدب يركب حماره، ويذهب من واحد الى آخر. فلا

(١) نفسه، (ج٣، ص١٦٤).
(٢) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج٢، ص٢٨١).

يترك متكلمًا ولا فقيهًا إلا سأله فيها وناظره. فقال قائل: لو ذهبتم الى الشيخ أبي عمران لشفانا من هذه المسألة، فقام إليه أهل السوق بجماعتهم، حتى أتوا باب داره واستأذنوا عليه، فأذن لهم. فقالوا له: أصلحك الله، أنت تعلم أن العامة إذا حدثت بها حادثة، إنما تفزع الى علمائها. وهذه المسألة قد جرى فيها ما بلغك، وما لنا في الأسواق شغل إلا الكلام فيها. فقال لهم: إن أنصتّم وأحسنتم الاستماع أجبتكم بما عندي. فقالوا له: ما نحب منك إلا جوابا بيِّنا على مقدار أفهامنا، فقال لهم: بالله التوفيق، ثم أطرق ساعة، وقال: لا يكلمني منكم إلا واحد، ويسمع الباقون. فقال له: أرأيت لو لقيت رجلًا فقلت له: تعرف الشيخ أبا عمران، فقال: نعم. فقلت: صفه لي، فقال: نعم. هو رجل يدرُسُ العلم ويدَرِّسُه، يفتي الناس ويسكن بقرب السماط، أكان يعرفني؟ قال: نعم. قال: والأول ما كان يعرفني؟ قال: لا. قال لهم الشيخ: كذلك الكافر، إذا قال لمعبوده صاحبة وولدًا، وأنه جسم، وقصد بعبادته مَن هذه صفته. فلم يعرف الله، ولم يصفه بصفاته. ولم يقصد بالعبادة إلا مَن هذه صفته، وهو بخلاف المؤمن الذي يقول إن معبوده: الله، الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد. فهذا قد عرف الله، ووصف بصفته. وقصد بعبادته من يستحق الربوبية سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا. فقامت الجماعة وقالوا له: جزاك الله خيرًا من عالم. فقد شفيتَ ما بنفوسنا، ودعوا له، ولم يخوضوا في المسألة بعد هذا»[١].

(١) نفسه، (ج٢، صص٢٨١ - ٢٨٢).

ويستدل خالد زهري من هذه الحادثة، حضور المذهب الأشعري بقوة في القيروان وإفريقية وغيرها من نواحي الغرب الإسلامي فيعلق عليها بقوله: «هذا، وإن فزع الناس إلى أحد أقطاب المذهب الأشعري، وهو أبو عمران الفاسي.. لاستفتائه وقبول حكمه وفصل خطابه في المسألة، وإفتائهم بما هو من ثوابت المذهب الأشعري، تدل على أن المذهب الأشعري، كان له حضور قوي في المنطقة، وقبول لدى العامة والخاصة. كما أن ذلك يدل على أن أبا عمران عندما استوطن القيروان، حصلت له بها رئاسة العلم، ليس على مستوى الفقه المالكي وحسب، كما يفهم من كلام كثير من الباحثين، في وصفه بأنه شيخ المالكية بالقيروان، بل حاز تلك الرئاسة في علم الكلام الأشعري أيضا، وإلا فلا معنى لأن يهْرَع إليه الناس دون غيره، في حل المعضلة الكلامية»[(١)].

ويضيف مستنتجًا: «وإذا كان أبو عمران الفاسي ثمرة من ثمرات المدرسة الباقلانية، ومن أبرز خريجيها، فقد تخرج على يديه بدوره الكثير من رؤوس المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي، كعتيق السوسي، وأبي القاسم السيوري، وعبد العزيز الدباج، وابن الصابوني، وأبي محمد عبد الحميد المعروف بابن الصائغ، إلخ، مما يجعلنا لا نتردد في نعته بأنه صاحب مدرسة أشعرية، يمكن أن نسميها «بالمدرسة الأشعرية العمرانية». فلا غرو إذًا، إذا ربطنا بين تتلمذه على الباقلاني

---

(١) خالد زهري، م.س.، (صص٢٠٦ - ٢٠٧).

والقابسي، وبين انتمائه الأشعري»[١].

٣- تطور الأوضاع في الغرب الإسلامي قبل المرابطين:

٣- (١) إفريقية:

وفي أيام تميم بن المعز استولى العدو على صقلية سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، ثم استولى على المهدية التي خرج منها بعد عقد صلح. وبقي على ذلك الحال وأموره معتلة إلى أن توفي سنة (٥٠١هـ/ ١١٠٨م) بالمهدية ونقل لرباط المنستير.

وقد ضعفت صقلية بعد أن تفرقت إلى ممالك، وصارت كل مملكة بيد ملك متغلب عليها مستبد لا يسأل عن غيره، فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة، حتى كان استخلاص العدو لها تمامًا سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، بعد أن بقيت بيد المسلمين مائتين ونيفًا وسبعين سنة.. ولما تم [للأوروبيين] تملك صقلية تتابعت غاراتهم على إفريقية، فملكوا الجزائر ومالطة وجربة وطرابلس وقابس وسوسة وصفاقس والمهدية، وكانت هاته الوقائع متتابعة في سنين وكان انتهاؤها سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م). وصقلية في أيام الإسلام رحل إليها الكثير، من وجوه الناس قضاة وفقهاء ومحدثين، وغيرهم من الخاصة فضلًا عن العامة، لرخاء أسعارها وأمن سبلها وعدل سلطانها، وظهر منها الكثير من فحول العلماء والفقهاء والمحدثين والشعراء، وبها كثير من المساجد. وقد وصف ابن جبير في رحلته بعض مدنها وما شاهده من حالها وحال المسلمين بها بعد احتلال العدو لها، حالة تبكي العيون دمًا

---

(١) نفسه، (ص٣٠٩).

وتذيب القلوب ألمًا[١].

٣- (٢) المغرب الأقصى:

كان المغرب الأقصى يعاني من محنة خطيرة، من جراء الانقسام السياسي الذي حصل بسبب الامارات المتناحرة فيما بينها. فالذي يدرس حالة المغرب في أوائل القرن الخامس الهجري/ ١١م، يجد أنه كان يعاني من محنة سياسية ودينية، ويحصر العبادي الطوائف التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين إلى أربع قوى:

١- قبائل غمارة في الشمال.

٢- قبائل برغواطة في الغرب.

٣- قبائل زناتة التي كانت تشكل نطاقًا حول الطوائف السابقة ولا سيما برغواطة.

٤- طوائف الرافضة والوثنيين في الجنوب.

أما عن الطائفة الأولى وهي قبائل غمارة، فكانت تسكن جبال الريف الممتدة بحذاء البحر المتوسط من نواحي سبتة وطنجة غربًا، إلى وادي نكور بالقرب من المزمة أو الحسيمة الحالية شرقًا، وتمتد بلادهم جنوبًا إلى قرب فاس. وكانت غمارة فرعًا من قبائل مصمودة، ويفهم من كلام المؤرخين أن عددًا كبيرًا منها قد انحرف عن الإسلام في القرن الرابع الهجري، وظهر فيهم متنبئون ومشعوذون، كما قصدتهم

---

(١) مخلوف، م.س.، (ج٢، ١٥٢).

الخوارج للمنعة في جبالهم(١).

وتذكر المصادر أنَّ شخصا يعرف بحاميم بن منّ الله ولقب بالمفتري ادعى النبوة. وأجابه بشر كثير من غمارة، واعتقدوا بنبوته. ووضع لهم كتابًا يزعم أنه قرآن بل شريعة استهواهم برُخَصِها، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، يسجدون على ظهور أكفهم. وكان حاميم فرض عليهم صوم يوم الخميس كله، وصوم يوم الأربعاء إلى الظهر، فمن أكل فيهما غُرِّم خمسة أثوار لحاميم. ووضع لجميعهم صوم **٢٧** يوما من رمضان، وجعل عيدهم فى ثانى يوم فطرهم، وفرض عليهم الزكاة العشر من كل شىء، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء، وأحل لهم أكل أنثى الخنازير وقال لهم إنما حرّم قرآن محمد [ﷺ] الذكر، وحرم عليهم الحوت حتى يذكّى، وحرم بيض كل طائر(٢).

ويعتبر أحمد العبادي أن المرابطين كانوا على علم تام بخطورة الحالة في المغرب ولا سيما بخطورة برغواطة، أقوى دولة طائفية في المغرب في ذلك الوقت. وقد سبق أن أشرنا إلى أن شيخ المالكية بالقيروان أبا عمران الفاسي، حينما رسم خطة قيام دولة الملثمين مع زعيمهم يحيى بن إبراهيم الجدالي، أوصاه بحرب برغواطة بصفة خاصة. وقد يؤيد ذلك أيضًا أن الفقيه الذي اختير لمهمة هداية الملثمين، وتوحيد صفوفهم وهو

---

(١) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لا ت.، (ص٢٧٧).

(٢) كاتب مراكشي مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشئون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦م، (ص١٩١). وانظر: ابن خلدون، م.س.، (ج٦، ص٢٨٨).

عبد الله ياسين، كان على علم تام بأحوال برغواطة قبل دخول الصحراء. وأغلب الظن أنها كانت رحلة استطلاعية تتعلق بالمهمة التي وكلت إليه[١].

أما البرغواطيون فقد اختلف الناس في نسبهم، فبعضهم يلحقهم بزناتة، وبعضهم يقول في متنبئهم صالح بن طريف البرغواطي إنه يهودي الأصل، رحل إلى المشرق وقرأ على عبيد الله المعتزلي، واشتغل بالسحر وجمع منه فنونًا، وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا، فوجد فيها قبائل جهالًا من البربر فجلبهم بلسانه، وادعى النبوة فصدقوه وشرع لهم شرائع ووضع لهم بزعمه قرآنًا وأباحوا المنكرات[٢].

ويذكر ابن حوقل شيئًا عن صالح هذا وعن البلاد التي انتشر فيها من اتّبعه، فيقول: «وادى فاس ومن ورائه الى ناحية برغواطة على نحو بريد وادى سله، واليه ينتهى سكنى المسلمين، وبسله رباط يرابط فيه المسلمون وعليه المدينة الأزليّة المعروفة بسله القديمة وقد خربت، والناس يسكنون ويرابطون برباطات تحفّ بها، وربّما اجتمع فى هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان، يزيدون فى وقت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة قبيل من قبائل البربر على البحر المحيط، متّصلين بهذه الجهة.. يغزون ويسبون، وذلك أنّ رجلًا كان يعرف بصالح بن عبد الله دخل العراق ودرس شيئًا من النجوم.. وفهم بأطراف من العلم وعاد فنزل بينهم، وكان بربرىّ الأصل مغربىّ المولد، مضطلعًا بلغة البربر يفهم غير

(١) العبادي، م.س.، (ص٢٩١).
(٢) الناصري. م. س.، (ج١، صص١٨٤ - ١٨٥).

لسان من ألسنتهم فدعاهم إلى الإيمان به وذكر أنّه نبيّ ورسول مبعوث اليهم.. وأوجب عليهم صوم شعبان وإفطار شهر رمضان وعمل لهم كلاما رتّله بلغتهم فهم يتدارسونه ويعظّمونه»[١].

ويبدو أن خطر هذه الدولة البرغواطية كان أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ، خصوصا باتصالها وتعاونها مع قبائل غمارة في جبال الريف[٢].

ويؤكد ابن عذاري أن عبد الله بن ياسين كان يعرف حال البرغواطيين، بل كان يعرف أيضًا حال ملوك الطوائف في الأندلس والانقسام الحاصل بينهم. كل ذلك قبل أن يتوجه ليقوم بمهمته التي ندبه إليها معلمه واجاج بن زلو، بقوله: «وكان عبد الله ياسين قد دخل بلاد الأندلس في دولة ملوك الطوائف فأقام بها سبعة أعوام، وحصّل فيها علومًا كثيرة، ثم رجع إلى المغرب الأقصى فمر بتامسنا فوجد فيها أممًا لا تحصى، أكثرهم تحت أمراء برغواطة، وكان عسكر أمراء برغواطة أكثر من ثلاثة آلاف، وانضاف إليهم من سائر القبائل، ما بين فارس وراجل، أزيد من عشرين ألفًا من جراوة وزغاوة ومطغرة والبرانس وركونة وغيرها»[٣].

وهذا النص يؤكد أن عبد الله بن ياسين كان يدرك الحالة التي كانت سائدة في المغرب الأقصى فضلًا عن الأندلس،

---

(١) محمد بن علي الموصلي المعروف بابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٢م، (ص٨٢).
(٢) العبادي، م.س.، (ص٢٨٧).
(٣) ابن عذاري، م.س.، (ج٤، ص٩).

والخطوات التي قام بها لتنفيذ مهمته تؤكد أيضًا أنها مجموعة أعمال، تهدف للحصول على نتائج في توحيد المسلمين على مبادئ عقدية واضحة، وتحت راية المذهب المالكي، مسكوبًا أو مغلفًا بسلوك طريق الزهد والتصوف، لذلك ليس غريبًا أن يسمي جماعته المرابطين، وهو خريج الرباط الذي كان يديره أستاذه واجاج تلميذ أبي عمران الفاسي، وهذان العالمان ذكرهما التادلي المعروف بابن الزيات في كتابه «التشوف إلى رجال التصوف»، بل ذكر كرامة مشهورة لواجاج عند ترجمته، وذكر مثل ذلك عن أبي عمران في التشوف وفي كتاب معالم الإيمان للدباغ وابن ناجي(١).

أما الدول الزناتية وهي قبائل مكناسة ومغراوة وبني يفرن وغيرها من قبائل زناتة التي تداولت حكم المغرب قبل مجيء المرابطين، كانت في نظر المؤرخين، ولا سيما بعد زوال نفوذ الأدارسة، هي القوة الحاكمة في المغرب على اعتبار أنها كانت سنية مسلمة. وعلى الرغم من المنازعات والمنافسات الداخلية التي قامت بين هذه القبائل الزناتية فإنها قامت بدور إيجابي في حرب برغواطة(٢).

كانت الحركة البرغواطية شبيهة بحركة القرامطة التي أتعبت أهل الشرق مدة ليست قصيرة. وكذلك فإن العمل الذي قام به أبو عمران وواجاج، ليس بعيدا عما قام به سحنون وولده

---

(١) يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، ط١، كتاب ناشرون، بيروت، ١٣٣٧هـ - ٢٠١٦م، (صص٦٣ - ٦٥). وانظر: الدباغ وابن ناجي، م.س.، (ج٣، صص١٦٢ - ١٧٢).

(٢) العبادي، م.س.، (ص٢٨٨). وانظر: الناصري السلاوي، م.س.، (ج١، ص١٧١).

محمد بن سحنون ومحرز بن خلف وابن أبي زيد القيرواني وأبو العرب تميم في مواجهة العبيديين، فهذه مواجهة ضد أهل البدع وتلك مواجهة ضد أهل البدع، لإظهار الحق وإعزاز دين الله تعالى.

٣- (٣) الأندلس:

بعد ضعف الأمويين في الأندلس، التي تفرق أهلها، وأصبحت مجموعة من الممالك المتنازعة، فطمع فيها نصارى أوروبا، وصاروا يستهدفونها، باستمالة ضعاف النفوس من حكامها، وفرض الإتاوات عليهم للوصول إلى قضم أراضيها قطعة قطعة، بالسيطرة على ممالكها الواحدة تلو الأخرى. ويصف المراكشي هذا الوضع بقوله: «وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية، فإن أهلها تفرقوا فرقًا، وتغلب في كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه، وتقسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية وفي ذلك يقول: أبو علي الحسن بن رشيق:

مِـمَّـا يُـزَهِّـدُنِـي فـي أَرْضِ أَنْـدَلُـسٍ
سَـمَـاعَ مُـقْـتَـدِرٍ فِـيـهـا وَمُـعْـتَـضِـدِ
أَلْـقَـابُ مَـمْـلَـكَـةٍ فـي غَـيْـرِ مَـوْضِـعِـهـا
كَـالـهِـرِّ يَـحْـكِـي انْـتِـفَـاخًـا صَـوْلَـةَ الأَسَـدِ»[1]

(١) عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م، (ص٥٩).

وقد عرَّف ابن عذاري ملوك الطوائف بقوله: «هم الأمراء وكبار القادة الذين تقاسموا بلاد الأندلس، بعد سقوط الخلافة الأموية في قرطبة، في بداية القرن الخامس الهجري/ ١١م. وقد استمر زمن ملوك الطوائف حتى إزالة عروشهم على يد يوسف ابن تاشفين المرابطي سنة (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)[١].

وعلى هذه الحال البائسة صار كل رئيس يتمسك بما تغلب عليه من الجهات، وانقطعت الدعوة للخلافة على المنابر في كل أقطار الأندلس، خلا أيام يسيرة دُعي فيها لهشام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة أشبيلية وأعمالها. ولكن بجهود وحنكة يوسف بن تاشفين اللمتوني اجتمعت كلمة المسلمين، وانقطع طمع العدو بالحصول على مزيد من أراضي الأندلس. واستمر على هذه السياسة ابنه علي بن يوسف، فرجع إلى الأندلس من رخاء ونضارة عيش. وأول دعاء دعي للخلافة العباسية على منابر الأندلس في أيامهما[٢].

(١) ابن عذاري، م.س.، (ج٤، ص٩)، هامش المحقق: عبد الله محمد علي.
(٢) المراكشي، م.س.، (ص٧١).

المبحث الثاني:

العقيدة الأشعرية وانتشارها في الغرب الإسلامي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين

١- بدء تاريخ المرابطين:

يبدأ تاريخ المرابطين في جناح المغرب الأيمن، في الصحراء الغربية، صحراء شنقيط، في هذه الصحراء الشاسعة التي تشبه في مجموعها البلاد الحجازية أرضا وماشية ونباتًا، كانت تعيش قبائل صنهاجة اللثام البربرية، ومن أشهرها قبيلة لمتونة في شمال الصحراء، وتليها جنوبًا مسوفة، ثم جدالة بالقرب من نهري السنغال والنيجر وساحل المحيط. وهذه القبائل الصنهاجية كانت امتدادًا لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال، والتي تشكلت منها الدولة الزيرية الصنهاجية في المغرب الأدنى والأوسط، وكذلك الدولة الزيرية التي قامت في غرناطة بعد سقوط الدولة الأموية أيام ملوك الطوائف. غير أن هذه القبائل الصحراوية الجنوبية، كانت تختلف عن أقربائها في الشمال في أنها كانت تتلثم أو تتقنع، ولهذا سميت بصنهاجة اللثام[١].

ولقد انتشر الإسلام بين هذه القبائل عن طريق الفتوحات التي أرسلت سراياها العسكرية إلى هذه المنطقة، وعن طريق

(١) العبادي، م.س.، (صص٢٦٨ - ٢٦٩).

التجار المسلمين الذين كانوا يمرون عبر هذه البلاد في طريقهم إلى السودان. ولكن على الرغم من ذلك ظلت هذه البلاد ضعيفة الإسلام، متفرقة الكلمة حتى أوائل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، عندما حدثت تلك الانتفاضة الدينية التي ألفت بين قلوبهم. ويرجع الفضل في هذه الوحدة السياسية والدينية، إلى رجلين: إلى زعيم سياسي وهو الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي زعيم الملثمين، وإلى زعيم ديني هو الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي وكلا الرجلين - كما هو واضح من اسميهما - كانا من أصل صنهاجي(١).

وتحت صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين، منهم لمتونة وكدالة ومسوفة وغيرهم، وتحت هذه القبائل بطون وأفخاذ تفوت الحصر، وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان: إحداهما دولة بني زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية، ورثوا ملكها من يد العبيديين، والأخرى دولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس. وموطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية، فيما بين بلاد البربر والسودان(٢).

لما كانت سنة (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) ارتحل يحيى بن إبراهيم إلى المشرق برسم الحج، فلما قضى حجه وزيارته مر في طريق رجوعه بالقيروان، فحضر مجلس علم يدرّس فيه أبو عمران الفاسي وتأثر بوعظه. وأراد يحيى أن يستصحب معه أحد تلاميذه، وبعد الطلب منهم لم يحصل مراده بسبب صعوبة الدخول في أرض الصحراء. فأرشده إلى واجاج بن زلو اللمطي، فكتب إليه أن يرسل من تلامذته من يبعثه معه.

(١) نفسه، (ص٢٧٠).
(٢) الناصري، م.س.، (ج١، ص١٧٦).

وعندما وصل إليه اختار من تلاميذه عبد الله بن ياسين الجزولي، وكان ورعًا فاضلًا ديّنًا يفهم بأحوال الناس[١] وفي ذلك يؤكد عبد الهادي حميتو، على أن أبا عمران هو المخطط الأول لبرنامج الدولة المرابطية التي مهدت لقيام الدولة المغربية، وأنشأت ذلك الاتحاد الجهوي الكبير بين أقطار المغرب والأندلس الذي استمر مئات السنين[٢].

ويعتبر جمال علال البختي أن «ارتباط المشروع المرابطي بأبي عمران الفاسي، ثم بوجاج بن زلو اللمطي، وبصفة خاصة بعبد الله ياسين جعل الخطاب السياسي للحركة المرابطية يؤثر الوجهة الدينية المالكية فقهًا وعقيدة منذ اللحظة الأولى»[٣].

---

(١) نفسه، (ج١، ص١٧٨). وانظر: ابن عذاري، م.س.، (ج٤، صص٧ - ٨). ولكن يذكر ان لقاء يحيى بن إبراهيم بعد إيابه من الحج بأبي عمران الفاسي كان بتاريخ ٤٤٠هـ، وتذكر بعض المصادر أن أبا عمران الفاسي قد توفي في سنة ٤٣٠هـ، وعلى هذا يكون اللقاء قبل هذا التاريخ. وانظر أيضا: عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة. ٣ أجزاء، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٣٠هـ - ١٩١٠م، (ج١، صص١٩٦ - ١٩٧).

(٢) عبد الهادي حميتو، بحث بعنوان: حياة أبي عمران الفاسي ومناقبه للندوة العلمية التي نظمها مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء بمناسبة مرور ألف عام على وفاة أبي عمران الفاسي، أقيمت بعنوان: أبو عمران الفاسي (ت ٤٣٠ هـ) حافظ المذهب المالكي يوم الخميس ٤ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق ٣٠ أبريل ٢٠٠٩م في الرباط، ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، (ص٥٨). وانظر: أحمد مختار العبادي، م.س.، (ص٢٧١).

(٣) جمال علال البختي، في تقديمه لكتاب: عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي. منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية الرابطة المحمدية للعلماء. ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، (صص٧٢ - ٧٣).

وابن عذاري المؤرخ الخبير، بعد أن ذكر النص السابق الذي استدللنا به على هذه المعطيات، أدرج بعده فقرة تؤكد على حال المغرب الأقصى من الشرذمة والانقسام، بما يشبه دولة الطوائف في الأندلس فيقول: «وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم، وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم، إلى أن تغلب كل شخص منهم على موضعه، كما فعل ملوك طوائف الأندلس، فمرَّ عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد منصرفه من الأندلس، فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض، يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة إمام. فكان من عبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم: «ألا تعرفون الله ربكم ومحمدًا رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، فقالوا له: نعم عرفنا الله ربنا ومحمدًا نبينا ﷺ، فقال لهم عبد الله: فما لكم بدّلتم وغيّرتم؟ هلا قدمتم عليكم إمامًا يحكم بينكم بشريعة الإسلام وبسنة النبي عليه السلام؟ فقال له بعض أشياخ المصامدة: لا يرضى أحد منا ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيلة»[(١)].

١- (١) دخول عبد الله بن ياسين أرض الصحراء وابتداء أمره بها:

استقبلت قبائل كدالة ولمتونة يحيى بن إبراهيم ومعه عبد الله ابن ياسين الجزولي بالفرح والاستبشار. وكان الجهل بأمور الدين ينتشر بينهم فرآهم يتزوجون بأكثر من أربع حرائر، فشرع يعلمهم القرآن والأحكام ويسوسهم بآداب الشرع. وجعل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ومنعهم عن كثير مما

---

(١) ابن عذاري، م.س.، (ج٤، صص٩ - ١٠).

ألفوه من الأمور الفاسدة وشدد في ذلك، فأعترضوا عليه واستصعبوا ما يعلمهم عليه وتركوا الأخذ عنه. فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم عنه، رحل إلى بلاد السودان وكانوا قد دخلوا في الإسلام يومئذ. فرافقه يحيى بن إبراهيم في رحلته هذه رغبة منه أن ينتفع بعلمه. ودخل معهما سبعة نفر من كدالة، فابتنى عبد الله رابطة هناك، وأقام في أصحابه يعلمهم وينشغلوا بالعبادة، فتسامع الناس بهم وأنهم اعتزلوا بدينهم يطلبون جنات النعيم والنجاة من النار، فكثر عددهم بمن يفد عليهم، فصار عبد الله بن ياسين يقرئهم القرآن ويعلمهم الشريعة ابتغاء مرضاة الله تعالى، ويرغبهم في ثواب الله ويحذرهم من عقابه حتى أحبوه. وبعد مدة قصيرة اجتمع له من التلاميذ نحو ألف رجل. فقام فيهم خطيبًا وأمرهم بالتقوى ونهاهم عن المنكر، ثم رغبهم في جهاد من خالفهم من قبائل صنهاجة، لما في ذلك من ثواب جزيل، وشوقهم إلى الجنة وخوفهم من النار. فأجابوه إلى ما دعاهم إليه طائعين. فبدأ أولًا بغزو قبيلة كدالة فهزمهم، وذلك سنة (**٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م**). ثم قاتل قبيلة لمتونة فانتصر عليهم وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة. ثم غزا قبيلة مسوفة فقاتلهم حتى خضعوا له فما كان من صنهاجة إلا أن سارعت بالتوبة والمبايعة، وأقروا له بالسمع والطاعة(١).

١- (٢) رئاسة يحيى بن عمر اللمتوني:

بعد وفاة يحيى بن إبراهيم الكدالي، صمم عبد الله بن

(١) الناصري، م.س.، (ج١، صص١٧٩ - ١٨٠).

ياسين على اختيار رجل يقود المرابطين في دعوتهم وحربهم لعدوهم. وكان يرغب أن يكون من قبيلة لمتونة، لمحبتهم للدين وإقبالهم على طاعة الله. فجمع رؤساء القبائل من صنهاجة، وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتوني. وحقيقة كان عبد الله بن ياسين هو رأس الأمر فهو الذي يعطي الأوامر ويطاع[١].

١- (٣) رئاسة أبي بكر بن عمر اللمتوني:

واستتب الأمر لعبد الله بن ياسين في تطويع قبائل البربر، بعدة حملات جرى فيها قتال، وكان النصر لجيش المرابطين. ثم لما توفي يحيى بن عمر، صار أخاه أبا بكر بن عمر أميرًا على المرابطين بتعيين من عبد الله بن ياسين، وذلك سنة (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م)، فغزا بلاد السوس والمصامدة. وكان على مقدمة جيش المرابطين يوسف بن تاشفين اللمتوني ابن عم أبي بكر بن عمر، ففتحوا معاقل السوس وخضعت لهم قبائله[٢].

وتوفي عبد الله بن ياسين بجراحات أصابته في إحدى معاركه مع البرغواطيين سنة (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م)، بعد حياة قضاها في التعليم وإصلاح عقائد الناس، ونشر الإسلام إلى كل مكان استطاع التوسع فيه[٣]. ثم اتفق أشياخ المرابطين على يوسف بن تاشفين بطلب من ابن عمه الذي اضطر أن يغادر إلى الصحراء، لأمر خشي فيه من فتنة بين القبائل، بعد أن علم باختلال الأمور

---

(١) نفسه، (ج١، ص١٨١).
(٢) نفسه، (ج١، صص ١٨٢ - ١٨٤).
(٣) نفسه، (ج١، صص ١٨٤ - ١٨٧).

فيها. فعاد يوسف من سجلماسة بنصف جيش المرابطين بعد ارتحال أبي بكر بن عمر بالنصف الآخر، وذلك في سنة (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م). وفي السنة التالية بنى مدينة مراكش، وفتح مدينة فاس ثم استكمل فتوحه فشملت سبتة وطنجة[١].

١- (٤) أول أمر المرابطين بالأندلس:

قصد المعتمد[٢] يوسف بن تاشفين طالبًا معونته ونجدته لمجابهة الأوروبيين في الأندلس سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)، فأسرع أمير المسلمين المذكور بإستجابته، واعتبر نفسه أول منتدب لنصرة هذا الدين، فجمع ما قدر على استنفاره من جند وقواد ووجوه قبائل البربر، وعبر البحر بجيش عظيم. ولقي في طريقه بعض ملوك الأندلس، كصاحب غرناطة وصاحب المرية وغيرهم.

*** وقعة الزلاقة:**

واجتمع للمعتمد أيضًا جيش ضخم من أقطار الأندلس. وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات، وأمد يوسفُ بن تاشفين ملوك الجزيرة بما قدر عليه من خيل ورجال وسلاح، فتكامل عدد جيش المسلمين نحو عشرين ألفًا، وكان الملك الفونس السادس قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه، وكان

(١) الناصري، م.س.، (ج١، صص ١٨٨ - ١٩٦). وانظر: ابن الأثير، م.س.، (ج٩، صص٦٢١ - ٦٢٢). ولكن ابن الأثير يذكر أن الذي ذهب إلى الحج من قبيلة جدالة وبعد حجه التقى بالقيروان أبا عمران الفاسي رجل اسمه جوهر. وقد اعتمدنا ما ذكرته المصادر المغربية انه يحيى بن إبراهيم. (ج٩، صص٦١٨ - ٦٢٠).

(٢) وكان أميرا على إشبيلية وما حولها.

يهدف من ذلك قطع مراد المرابطين عن شبه جزيرة الأندلس، أما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الإتاوة، وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم.

ولما تمت المواجهة بين الجيشين، هال يوسف ما رآه من كثرة عدد جيش الفونس وجودة سلاحه. فجمع أصحابه وذكرهم بالآخرة والثواب الجزيل في حماية بيضة الإسلام، فظهر منهم مِنْ صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون. فلما كان يوم الجمعة اختلط الفريقان، ودارت الهزيمة على العدو، وتبعهم المسلمون يفتكون بهم، ونجا الفونس في عدد قليل من أصحابه. فكانت وقعة الزلاقة (كما سميت) معركة فاصلة، بل كان فتحًا مشهودًا له في ربوع الأندلس، نصر الله به الإسلام والمسلمين. وذلك سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٧م). فسر أهل الأندلس بهذا الفتح، ودعوا ليوسف على المنابر[١].

*** نكبة بني عباد ونهاية ملوك الطوائف:**

رجع يوسف بن تاشفين إلى مراكش بعد معركة الزلاقة، وفي نفسه من أمر الأندلس ما يجعله أن تكون من جملة أعماله، فصمم أن يرسل مجموعات من جيش المرابطين للرباط في ثغورها ومجاهدة العدو، فكتب إلى المعتمد بذلك، فأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد وكان مبدؤها سنة (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)، بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة[٢].

(١) المراكشي، م.س.، (صص٩٧ - ١٠١).
(٢) نفسه، (ص١٠٣).

فتم القبض على المعتمد، ودانت ليوسف بن تاشفين الأندلس بكاملها تحت سيطرة أصحابه من المرابطين، وقاموا بحماية الثغور والدفاع عن المسلمين، ما صدق بهم الظنون وأثلج الصدور وأقر العيون، فزاد حب أهل الأندلس لهم، واشتد خوف ملوك الروم منهم، ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش والخيل إثر الخيل، وقد قام بذلك بعدما رأى ما وصل إليه ملوكهم من إهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة(١).

١- (٥) ولاية أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين وتسلط الفقهاء:

بعد وفاة يوسف قام بالأمر من بعده ابنه علي، وصار أمير المسلمين وهو ما كان يلقب به والده، وتذكر المصادر إيثاره لأهل الفقه والدين وخصوصًا ما يتعلق بفروع المذهب، فشاورهم في كل اموره، حتى كانت لهم الصدارة في المجتمع(٢).

واللافت للنظر أن بعض المصادر كانت تؤكد على رواج كتب الفقه في فروع مذهب مالك دون مزيد اعتناء في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ، كما ذكر المراكشي: «فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح

(١) نفسه، (ص١٢٢).
(٢) نفسه، (صص١٢٩ - ١٣٠).

علم الكلام وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين»[١]. وبعد اطلاعي على تراجم العلماء وجدت الكثير منهم في علوم القرآن والتفسير كعبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية الأندلسي (٤٨١هـ/١٠٨٨م - ٥٤٢هـ/١١٤٧م)، فكل حياته كان في دولة المرابطين، فكانت وقعة الزلاقة قبل ولادته بعامين، ووالده أبو بكر غالب بن عبد الرؤوف كان أشعريًا، أخذ الإجازة من الأذري تلميذ الباقلاني بكتاب «التمهيد»[٢]، وتلقى كتاب «الإرشاد» لأبي المعالي الجويني مرات عديدة[٣]، وكان قد اعتنى بولده عبد الحق عناية بالغة.

وكان عبد الحق يحب الجهاد ويرابط على ثغور الأندلس مع جيوش المرابطين، فكان والده يحزن لفراقه، وقد صار كبيرًا في السن مريضًا يحتاج إليه، يذكر ذلك ابن الأبار بقوله: «وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين، فلأبيه أبي بكر غالب في إحداها يتشوقه بأبيات، قال أنشدنا أبو بكر غالب ابن عطية لنفسه وكتب بها إلى ابنه أبي محمد عبد الحق:

يا نَازِحَ الدَّارِ لَم يَحْفِلْ بِمَنْ نَزَحَت
دُمُوعُهُ طَارِقَاتِ الهَمِّ والفِكَرِ

(١) نفسه. (ص١٣١).
(٢) الأذري أحد رجلين من تلاميذ الباقلاني أرسلهما إلى القيروان. و«التمهيد» كتاب صنفه الباقلاني في العقيدة.
(٣) عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية المحاربي الأندلسي، فهرس ابن عطية، تحقيق محمد أبي الأجفان ومحمد الزاهي، ط٢، دار الغرب الإسلامي (صص٧٥ - ٧٧).

غَيَّبْتَ شَخْصَكَ عَنْ عَيْني فَما أَلِفَتْ
مِنْ بَعْدِ مَرْءَاكَ غَيْرَ الدَّمْعِ وَالسَّهَرِ
قَدْ كَانَ أَوْلَى جِهَادٍ في مُوَاصَلَتي
لا سِيما عِنْد ضَعْفِ الجِسْمِ وَالكِبَرِ
اعْتَلَّ سَمْعي وَجَال اَلضَّرُّ في بَصَري
بِاللهِ كُنْ أَنْتَ لي سَمْعي وَكُنْ بَصَري»[١]

ثم إن كثيرًا من علماء الأشاعرة كان في عهد المرابطين، مع إنتاج فكري يتعلق بالعقيدة الأشعرية في مؤلفات كثيرة[٢].

ويلخص عبد الواحد المراكشي تراجع الدولة المرابطية بقوله: «واختلّت حال أمير المسلمين - رحمه الله - بعد الخمسمائة اختلالًا شديدًا، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد.. واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور.. وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيَّد تغافله ويقوى ضعفه وقنع باسم إمرة المسلمين وبما يرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهرًا عنه ذلك، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس، وكادت تعود إلى حالها الأول لا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس»[٣].

---

(١) ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي أبي علي حسين بن محمد (ت ٥٩٤هـ/ ١١٢٠م)، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب اللبناني بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، (ص٢٦٦).
(٢) سنعرض نماذج عن هؤلاء العلماء في الفصل الثاني من هذا الباب.
(٣) المراكشي، م.س.، (ص١٣٥).

٢- بداية الدولة الموحدية:

تبرز المصادر التي أرخت لظهور محمد بن تومرت وقيام دولة الموحدين، اضطرابًا في رواية الحدث، وقد يكون السبب أن نقل الخبر استند إلى بعض المقربين من السلطة الحاكمة من فقهاء وغيرهم، أو ما أُثر من شائعات انتشرت بين العوام من غير ضبط؛ وعلاج ذلك في توضيح الأمور من خلال استقراء الأحداث الحاصلة، ودراسة القرائن التي تحيط بها. والحوادث مثل ذلك كثيرة في التاريخ، ومدار الأمر على من ينقل الخبر، وقد قيل: وما آفة الأخبار إلا رواتها. ونستشهد بالطريقة الذي اتبعها المحدّثون في نقل الخبر أمثال الحافظ ابن عساكر الدمشقي في كتابه تبيين كذب المفتري، حيث يسند الخبر إلى رواته ويوثقهم، وهذا كان شائعًا في الضبط. وليس هنا المجال في تعداد الأمثلة.

وبذلك نفهم حال مالك بن وهيب، الذي كان أقرب لعلوم الفلسفة من العلوم الفقهية، الذي كان في مجلس علي بن يوسف المرابطي في مراكش، وناقش ابن تومرت في بداية أمره، وطلب من الحاكم قتله[١]، وهذا يؤكد أن الاستناد إليها ليس دقيقًا لأنه كان من منهج آخر غير منهج الأشعري، كان يعتمد على ما يقوله الفلاسفة في أمور.

ونأخذ دليلًا مما قاله ابن أبي جمرة في الدفاع عن عقيدة ابن أبي زيد القيرواني ويؤكد أنه كان على التنزيه، ويختم كلامه بهذه العبارة: «فافتروا على الإمام هنا كما افتروا على الآخر

(١) المراكشي، نفسه، (صص١٣٩ - ١٤٠).

هناك»[١].

وموضوع المصادر لا شك أشكالية تؤثر على صدق الخبر في بعض المصادر التي أرخت لابن تومرت أو للأشعري أبي الحسن نفسه وللأشعرية علماء وعقيدة[٢].

ويقول صاحب كتاب «كشف الخفا»: «ومن المؤسف حقًا أننا وجدنا البعض من بني جلدتنا يدأبون ويجتهدون في السعي لطمس الحقائق التي تخالف ما هم عليه، وبشتى السبل. فتارة يحرقون كتب المخالفين، وتارة بتشويهها وطمس معالمها وما فيها من الحقائق، وتارة بإتلاف المخطوطات الأصلية لكتب أهل الحق، وتارة بإعادة طبعها بنيّة تحريفها وتزويرها وحذف بعض ما فيها واستبداله بما يعتقدون، وتارة بإخراج بعض الكتب مختصرة ممسوخة بحجة إعطاء القارئ ما في الكتاب من ملخص جامع مانع»[٣]. وقد جرى من قبل مجسمة العصر الوهابية تزوير وتزييف كبير لكتب العلماء، الذين خالفوا منهجهم، في كثير من كتب العقائد والأصول والتفاسير، التي صُنِّفت على التنزيه المعروف عند أهل السنة[٤].

وتداركًا لهذا الاضطراب، وهذا التوجه ارتأينا أن نقسم

---

(١) ابن أبي جمرة الأندلسي، م.س.، (ج١، ص٣٦).

(٢) ينتقل هذا النهج الذي يخاصم ويعادي الأشعرية من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان، فيهاجم ويشوه نهج الاعتدال السليم، النهج الوسطي الذي هو بين الإفراط والتفريط. الذي أرشد النبي ﷺ أمته على الالتزام به.

(٣) علي مقدادي الحاتمي، كشف الخفا عن عبث الوهابية بكتب العلما، ط١، دار النور المبين للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٩، (صص٧ - ٨).

(٤) نفسه، (ص٣٣).

المصادر إلى ثلاثة أنواع:

- قسم أول يحترم ويوقر ما قام به ابن تومرت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسعي لتعليم العقيدة السليمة، ودافع عنها في وجه من اتهمها بأنها على الاعتزال والجهمية أو أنها خليط بين مجموعة فلسفات ومذاهب.
- قسم ثان لم يعمل على الدفاع عن الأصول العقدية، وانساق وراء بعض الحوادث من غير ذكر مصدر الخبر إلا ما ندر.
- قسم ثالث أظهر عدم رضاه بل عداءه واستياءه لما قام به ابن تومرت ودولة الموحدين جملةً وتفصيلًا، مستغلين بعض المساوئ التي لا يرضى بها عاقل من ظلم أو كثرة قتل ليعكسوا ذلك هجومًا على عقيدة أهل السنة والجماعة، لسبب واحد وهو أن نهجهم العقدي يختلف عن نهج العقيدة الأشعرية.

٢- (١) بداية ظهور محمد بن تومرت:

محمد بن عبد الله بن تومرت رجل من أهل سوس من قبيلة هرغة، رحل سنة (٥٠١هـ/ ١١٠٧م)، إلى المشرق لطلب العلم، نزل بغداد، والتقى بعدد من العلماء، فتلقى من أبي بكر الشاشي وألكيا الهراسي أصول الفقه وأصول الدين، وسمع الحديث من المبارك بن عبد الجبار، وقبل رجوعه إلى المغرب مرَّ بالأسكندرية، فالتقى بأبي بكر الطرطوشي وتلقى منه أثناء إقامته[١].

---

(١) المراكشي، م.س.، (ص١٣٦).

ويبدو أن ابن تومرت قد تأثر بأبي بكر الطرطوشي، الذي كان قد صنف كتاب «سراج الملوك» في السياسة الشرعية، وكتابًا آخر بعنوان «الحوادث والبدع»، الذي ينكر فيه ما شاع بين الناس من بدع مخالفة للأحكام الشرعية[١]، فصار يحضر مجلسه «ما يتجاوب مع نفسه التي اشتد فيها العزم على مقاومة ما خالف الشريعة من عادات القوم في أي مكان يحل به»[٢].

ولكن بسبب قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس أخرجه متولي الإسكندرية منها. ثم رحل إلى المغرب، وفي كل مكان نزل فيه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حتى في السفينة التي استقلها، فتعرض للمضايقة من بعض من فيها حتى رموه في البحر، فسبح وقتًا ثم رفعوه إشفاقًا عليه. وعندما وصل بجاية، بدأ بجمع الناس ووعْظِهم وتدريسِهم، فأحبه الناس ومالوا إليه، وأيضًا أخرجه والي المدينة منها. فوصل ملالة و التقى فيها عبد المؤمن الذي كان يهم بالرحلة إلى المشرق لطلب العلم، فأقنعه بالبقاء معه وبتلقي العلم منه فصاحبه في بقية رحلته إلى المغرب[٣].

وكانت حركة ابن تومرت قد أثارت من يناهض العقيدة الأشعرية والأشاعرة، فأشاعوا أنه كان يشتغل بالسحر والشعوذة، وأنه كان قد قرأ كتاب الجفر[٤]، فعند ترجمته في

---

(١) عبد المجيد عبد المجيد النجار، ابن تومرت حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب، ط١، رسالة دكتوراه من جامعة الأزهر، القاهرة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. (ص٨٤).

(٢) نفسه، (ص٨٦).

(٣) المراكشي، م.س.، (صص١٣٦ - ١٣٧).

(٤) وهو كتاب اشتهر بين الشيعة.

سير أعلام النبلاء، يذكر الذهبي عن لقاء ابن تومرت بعبد المؤمن، قوله: «قد وجدت العلم والشرف، اصحبني؛ ونظر في حليته، فوافقت ما عنده مما قيل: إنه اطلع على كتاب الجفر»[(١)]. فتتبع عبد المجيد النجار هذه الأسطورة، معتبرًا أن ابن تومرت كان يحتاج في خطته إلى مساعدة رجال أقوياء لتنفيذها. واعتبر ذلك «من فراسة ابن تومرت لا من الأسرار المخبوءة»[(٢)].

مضى ابن تومرت في طريق عودته من المشرق أربع سنوات حتى وصل إلى مراكش، وفي كل مكان كان حلَّ فيه، لم يتوقف عن الوعظ والتعليم وإرشاد الناس وإنكار المنكر. وما نستطيع أن نذكره عن الفائدة في تجواله هذا أثناء عودته إلى بلاده، أنها كانت بمثابة التعرف وجمع المعلومات على الواقع الذي مر عليه. وبذلك استخلص شيئًا عن الحالة الدينية وما يتلقاه الناس من المدرسين، وكذلك عن الحالة الاجتماعية والثقافية، وبعد هذه المعلومات استطاع أن يضع خطته للانقضاض على الدولة المرابطية. فكانت السنوات الأربع التي قضاها في طريق عودته إلى المغرب أمَّارًا بالمعروف نهَّاءً عن المنكر بدون كلل ولا ملل. ففطن واستعلم من خلال لقائه بالعامة، في الأسواق والشوارع، ماهم عليه من حال الجهل بالأمور الدينية، حتى وصلوا إلى حالة يظهر فيها الفسوق جهارًا فصار يلقي دروس العلم والوعظ في المساجد، لتعليمهم ونزع الجهل عنهم بالعقيدة والفقه والسلوك الإسلامي السليم. وفي

---

(١) الذهبي، م.س.، (ج١٩، ص٥٤٣).

(٢) عبد المجيد النجار، ابن تومرت حياته وآراؤه، (صص٩٤ - ٩٥).

حركة ابن تومرت هذه، كان لا بد أن يلتقي أهل العلم من العلماء والفقهاء ويبحث معهم الأمر الذي وصل إليه المجتمع، بدون إغفال اللقاء مع وجوه السلطة الحاكمة من ولاة وأمراء، حتى أمير المرابطين نفسه في مراكش عاصمة الدولة المرابطية، فكان يكلمهم صراحة عما وصلت إليه البلاد، بسبب الجهل بأمور الدين[١].

٢- (٢) ابن تومرت يظهر علم الكلام في فاس:

قصد ابن تومرت مدينة فاس بعد خروجه من تلمسان، فجعل يدعو الناس إلى الالتزام بشرع الله تعالى، ويعلم علوم العقيدة على طريقة الأشعري. ولا شك أن حركته هذه أثرت في أهل فاس، مما دفع واليها إلى أن يدعو الفقهاء لمناظرة ابن تومرت، وقد كان له الباع الكبير في إقامة الحجة بالأدلة، فلم يستطيعوا مواجهته، فأخرجه الوالي من المدينة[٢].

٢- (٣) انطلاق دعوة الموحدين:

يمكن اعتبار انطلاق دعوة الموحدين، عند ابتداء المواجهة بين ابن تومرت وسلطانهم علي بن يوسف بن تاشفين في دار الإمارة في العاصمة مراكش، وكانت قد سبقت المعلومات التي تتحدث عن نشاطه وحركته في تعليم الناس العقيدة وتجييش النفوس ضد السلطة الحاكمة إلى عليّ الذي جمع له عددًا ممن

---

(١) عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري، ط٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن فيرجينيا، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (ص١١٢).

(٢) المراكشي، م.س.، (ص١٣٩).

تمرّس في علم الفروع، وكان بينهم مالك بن وهب من أهل الأندلس، وعنده معرفة ببعض علوم الفلسفة كما ذكر المراكشي، فسمع مالك هذا كلام ابن تومرت وأدرك شدة ذكائه وجرأته في الكلام، فشعر أن حركته التي يقوم بها تشكل خطرًا على سلطة المرابطين، فأشار فورًا على الأمير بقتله، فرفض الأمير، وهو الذي يؤثر عنه زهده وكثرة عبادته، ثم أشار عليه بسجنه، وأيضًا لم يقبل عليٌّ بذلك، ولكن أمر بإخراجه من مراكش. فتوجه ابن تومرت عندئذ إلى ناحيةٍ من بلاد السوس تعرف بتينمل. وهي منطقة جبلية حصينة وعرة المسالك، فجمع فيها أصحابه، وبدأ يدرس العقيدة الأشعرية بلغتهم البربرية، وكان يتقنها فازدادوا تعلقًا به[١].

ولا نوافق المراكشي ما قاله إن ابن تومرت وافق المعتزلة في نفي الصفات، والمراكشي في تأريخه مشى مع الاتهامات التي كانت تقال في ابن تومرت، فنسب إليه الاعتزال والقيام بالسحر والشعوذة، وهذا الكلام رد عليه بعض الباحثين، واعتبر أنه لا يتسم بالدقة، ومتأثرًا بأخبار بعض العوام الذين لعلهم انساقوا وراء الأخبار التي شاعت على ألسنة الناس.

٢- (٤) الحرب بين المرابطين والموحدين:

جند ابن تومرت رجال المصامدة، ليشكل منهم قوة كبيرة لمواجهة المرابطين، وضمَّ إليهم من أهل تينمل من وافق دعوته، وجعل عبد المؤمن أميرًا على هذا الجيش، وكان ذلك سنة (٥١٧هـ/ ١١٢٣م). وبعدة عدة وقائع توالت الانتصارات

---

(١) نفسه، (صص١٣٩ - ١٤٠).

على جيش المرابطين[(١)].

بعد وفاة ابن تومرت سنة (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م)، تمت المبايعة لعبد المؤمن بن علي من بعده، يذكر المراكشي أنه «قد سمى المصامدة بالموحدين لتسمية ابن تومرت لهم بذلك، لأجل خوضهم في علم الاعتقاد»[(٢)].

٢- (٥) نهاية المرابطين:

توفي علي بن يوسف بن تاشفين سنة (٥٣٧هـ/ ١١٤٢م)، وبعد وفاته استولى عبد المؤمن على آخر معاقل المرابطين مراكش وهي العاصمة التي فيها دار الإمارة. مكث بعده ولده تاشفين في حكم مندثر وسلطة بائدة، إلى وفاته سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٥م). وكانت الدعوة على المنابر لبني العباس طيلة ست وسبعين سنة، وهي الفترة التي حكم فيها المرابطون، من بدء حكمهم في مراكش إلى زواله[(٣)].

وبعد سيطرة عبد المؤمن على المغرب الأقصى، بقي له منطقتان، يستطيع استخدام جيشه القوي لإخضاعهما وإدخالهما تحت سلطانه، وهما:

- شرقًا، بجاية وما تلاها من بلاد تستغرق المغرب الأدنى والأوسط.
- وشمالًا، الأندلس إلى ثغورها الشمالية مع نصارى أوروبا.

ففي سنة (٥٤٠هـ/ ١١٤٦م)، خرج بجيش ضخم إلى بجاية

(١) نفسه، (ص١٤٤).
(٢) نفسه، (ص١٤٥).
(٣) نفس المرجع والصحيفة، (ص١٥٢).

«فدخلها. . وملك قلعة بني حماد وهي معقل صنهاجة الأعظم، وحرزهم الأمنع، فيها نشأ ملكهم ومنها انبعث أمرهم»[١]. وهذه المنطقة ستشكل له قاعدة يرتكز إليها لينطلق بعد سنوات لاستكمال سيطرته على النواحي الشرقية، إفريقية وما جاورها.

وكان جدهم الأكبر حماد ومن عقبه من أبنائه وأحفاده من شيعة بني عبيد وأتباعهم والقائمين بدعوتهم، ومن بلادهم أعني صنهاجة قامت دعوة بني عبيد وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها، فلم يزل ملك بني حماد هؤلاء مستمرًا. . إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكه بأسره وضمه إلى مملكته أبو محمد عبد المؤمن بن علي في التاريخ الذي تقدم. . ولما ملك عبد المؤمن بجاية والقلعة وأعمالها رتب من الموحدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها.

٢- (٦) عبور الموحدين إلى الأندلس:

في آخر عهد الدولة المرابطية، اختل الأمر في الأندلس وكادت ترجع إلى حالة شبيهة بما كانت عليه زمن سقوط الأمويين فيها، فضعف الرباط على الثغور، وتمكن نصارى أوروبا من احتلال أجزاء منها. ولما اشتد عود الدولة الموحدية في المغرب الأقصى، دخل في سلطانهم كثير من نواحي الأندلس، «كالجزيرة الخضراء ورندة ثم أشبيلية وقرطبة وغرناطة»[٢]

فما كان من عبد المؤمن إلا أن جهز جيش الموحدين قاصدًا

(١) نفس المرجع والصحيفة، (ص١٥٢).
(٢) نفسه، (ص١٥٦).

السيطرة على الأندلس. فبعد عبوره جبل طارق أطلق عليه «جبل الفتح». فبايعه كثير من وجوه الأندلس على الطاعة له والانضمام إلى سلطانه، فقام بترتيب الأمور، و«ملأ ما ملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلًا ورجالًا من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند»[(١)].

٢- (٧) امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق:

جهز عبد المؤمن في سنة (٥٥٣هـ/ ١١٥٨م) جيوشه وتوجه نحو الشرق قاصدًا إفريقية، فأخذ تونس عنوة، ثم قام بحصار المهدية مدة وافتتحها، بعد أن أعطى الأمان للنصارى الذين بداخلها، بشرط خروجهم منها. وسار إلى قابس فهزم الروم الذين كانوا فيها وفتحها. وبفتحه طرابلس الغرب وما حولها من بلاد يكون قد تم لعبد المؤمن ملك إفريقية كلها وضمها إلى ملكه، مخرجًا الروم منها. يذكر المراكشي: «فملك في حياته من طرابلس المغرب، إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة، وأكثر جزيرة الأندلس، وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله، منذ اختلت دولة بني أمية إلى وقته»[(٢)].

٣- الدولة الموحدية وتوسيع انتشار الأشعرية:

لا ريب في أن الأشعرية كانت موجودة في الغرب الإسلامي منذ البدايات الأولى في القيروان، وهذا ما أطلقنا عليه عبارة إرهاصات ظهور المذهب الأشعري هناك، لقد حقق ذلك رسمًا لنهجٍ توسّع وانتشر على أيدي علماء المذهب المالكي، الذين

---

(١) نفسه، (ص١٦٥).

(٢) نفسه، (صص١٦٨ - ١٦٩).

امتزج نشاطهم في تعليم مذهب مالك بتعليم عقيدة سلف الأمة القائمة على التنزيه، وهذا الأمر لا إشكال فيه، بغض النظر عن المصادر التاريخية التي أرخت للمرابطين وأرخت لابن تومرت، لأني أؤكد أن ذلك يحتاج إلى مراجعة، على ضوء التراجم التي أرخت لعلماء المالكية الذين كانوا أساطين هذه المدرسة التي حفظت فقه مالك وعقد الأشعري وصوفية الجنيد السالك، ويؤيد ما ذكرناه قول باحث تعمق في دراسة حركة ابن تومرت، فيذكر عبد المجيد النجار: «التمهيد للأشعرية الذي سبق ابن تومرت [تمثل] في اطلاع كثير من أهل المغرب على هذا المذهب، مما أنشأ في النفوس استعدادًا لتقبلها، خاصة وأنها في حقيقتها ليست إلا تطويرًا لمذهب السلف في الاعتقاد أضيف إليه العنصر العقلي في الاحتجاج والتأويل، فلما كانت الأذهان عامرة بالأصل تقبلت هذا التطوير بما سبق لها من العهد به طيلة ما يقارب القرنين»[(١)].

وما نذكره يؤكده أيضًا مصنفات الكثير من العلماء في متون العقيدة الأشعرية، والمنهج الذي سلكه علماء تفسير القرآن وشراح الحديث، وبما أن البحث يتعلق بالقرنين الخامس والسادس الهجريين/ ١١ و١٢م، ستكون أغلب النماذج (التي سنعرض لها في الفصل التالي) من هؤلاء العلماء الذين كانوا في فترة الحكم المرابطي.

وقد كان الموضوع العقدي هوسبب انطلاقة دعوة ابن تومرت، فسرى ذلك النهج على من جاء بعده، وحملوا لواءه وقاموا بحمايته، «فأصدر عبد المؤمن مرسومًا يأمر فيه عامة

---

(١) عبد المجيد النجار، المهدي ابن تومرت حياته وآراؤه، (ص٤٤١).

الناس بأن يشتغلوا بقراءة مؤلفات المهدي في العقيدة.. ويلزم العامة ومن في الديار بقراءة العقيدة التي أولها (اعلم أرشدنا الله وإياك) وحفظها وتفهمها»[١]، وهي نفسها المشهورة «بمرشدة ابن تومرت».

٣- (١) مرشدة ابن تومرت:

مرشدة ابن تومرت متن قصير يختصر فيه عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام الأشعري رحمه الله، وهي على صغر حجمها، انتشرت في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، وليس فيها ما يخلّ ولا يقدح فيها أي أشعري، فتلقفها المشايخ والمعلمون والمؤدبون، يعلمون فيها طلاب العلم في المدارس والكتاتيب والمساجد، وفائدتها وبركتها عمت الكبار والصغار. وقد قام بمدحها أهل العلم الذين ينزهون الله عن مشابهة المخلوقين في سائر الأقطار. «وكان لها الدور الأكبر في إشاعة الأشعرية بين أهل المغرب.. فقد شاع ذكرها بين الناس عامتهم وعلمائهم، وجرت بها الألسنة حفظًا وشرحًا، وصارت على مر الأيام الخلاصة للتصور العقدي الذي تجري به الأذهان ويلقن للناس»[٢].

٣- (٢) الموقف من ابن تومرت والمرشدة:

غير أن هناك من يقدح في أهل التوحيد المنزهين، ويأبون إلا أن يقيسوا الخالق على المخلوق، فلا يعتقدون موجودًا إلا متحيزًا في مكان، وهذا من صفات الجسمية ولوازمها. كما

(١) نفسه، (صص٤٤٣ - ٤٤٤).
(٢) نفسه، (ص٤٤٧).

حصل مع الأشاعرة القدماء من افتراآت عليهم، وتشويه لمؤلفاتهم، وإيذائهم لأهل العلم من الأشاعرة، فقد آذوا القشيري والشيرازي والطبري، بل أن ابن فورك سعى به المجسمة الكرامية عند الملك محمود بن سُبُكْتِكِيْنَ، ولما لم تنجح خطتهم دسوا له السم، فقُتل مسمومًا رحمه الله.

وقبل أن نذكر مَنْ أشاد بالعقيدة المرشدة، سنبدأ بذكر من خاصمها وقبحها. فابن تيمية الحراني يمثل المناوئين القدماء من المشبهة من كرامية ورافضة ومجسمة الحنابلة. فنسب إلى ابن تومرت التشيع والاعتزال وأنه من الذين ينفون صفات الله[١]. وتبعه في ذلك الذهبي فقال: «وألف لهم كتاب «أعز ما يطلب»، ووافق المعتزلة في شيء، والأشعرية في شيء، وكان فيه تشيع»[٢].

وقد وجدت كتابا بعنوان «مسألة في المرشدة» ينسب لابن تيمية الحراني[٣]، يقول مَنْ نَشَره: «إنه كان مخطوطة»، فيصور الصورة الأولى والصورة الأخيرة منها. والكتاب يقع في ٤٠ صحيفة تتخلله عدة أوراق بيضاء، وفيها نصوص مضطربة، ينسب لابن تيمية مما ذكره في كتابه «مجموع الفتاوى». فيها ترجمة ابن تومرت من الذهبي في سير أعلام النبلاء[٤]، ثم ما قيل عنه إنه نص المخطوطة. وعدا ذلك لم يذكر ابن تيمية التي

(١) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، درء تعارض العقل والنقل، ١٠ أجزاء، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م، (ج٢، ص١٧٤).

(٢) الذهبي، م.س.، (ج١٩، ص٥٤٨).

(٣) أحمد بن تيمية الحراني، مسألة في المرشدة،تحقيق: علي رضا بن عبد الله، دار الوطن للنشر، ط١، الرياض سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٤) ابن تيمية، مسألة في المرشدة، (صص٦ - ص١٤).

نُسبت إليه من أين استقى معلوماته وما هو سنده فيها؟ ثم يكيل كومًا من الاتهامات التي تُظهر أن ابن تومرت كان كاذبًا ومخادعًا وسفاكًا للدماء بغير حق، مثل أنه كان يكلم الموتى وهم في قبورهم، يقول: «واستجاز أن يظهر لهم أنواعا من المخاريق، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواما، ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلب منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله ﷺ. . فإذا اعتقدوا أولئك البربر أن الموتى يكلمونه، ويشهدون له بذلك، عَظُمَ اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره. ثم إنّ أولئك المقبورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهروا أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا وأنه يجوز له إظهار الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه»(١). ثم اختياره شخصًا معلمًا حافظا للقرآن جعله يكتم معرفته بالعلوم(٢)، ثم يطلب منه أن يظهر ما عنده زاعمًا أن ملائكة من السماء نزلت إليه فصار حافظًا للقرآن، وصار يستطيع أن يميز من هم أهل الجنة ومن هم أهل النار، حتى طلب منه أن يفعل هذا التمييز فجمعهم فريقين وقتل الذين هم خبثاء(٣)، والذهبي في ترجمته لابن تومرت يجعلهم سبعين ألفا(٤)، ثم بفقرة صغيرة اتهمه بأنه يستحل ما تستحله الجهمية المعطلة والفلاسفة والمعتزلة.

---

(١) ابن تيمية، مسألة في المرشدة، (صص٢٠ - ٢١).

(٢) الذهبي يقول، يريد بذلك الونشريسي الذي اصطحبه في رحلته لما رجع من المشرق. انظر: الذهبي، م.س.، (ج١٩، ص٥٤٦).

(٣) ابن تيمية، مسألة في المرشدة، (صص٢١ - ٢٢).

(٤) الذهبي، م.س.، (ج١٩، صص٥٤٦ - ٥٤٧). وتجده في مسألة في المرشدة، (ص١٠) وقد عرجنا على هذه المسألة في نقد المصادر في تقديم هذا البحث.

وهذه الاتهامات التي وصف بها ابنُ تيمية ابنَ تومرت وكذلك الذهبي انطلت على كثيرين، حتى صار يرددها بعض الذين أرخوا لدولة الموحدين. ثم يذكر بأسلوب فيه خلط لآيات القرآن ومتون الحديث، بما يزعمه أنه ردود على الجهمية والمعتزلة، كل ذلك ليثبت أن ابن تومرت كان معتزليًا إذ يقول: «الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيدًا.. وصاحب «المرشدة» لقب أصحابه موحدين اتباعًا لهؤلاء»(١). وهذا الخلط أسلوب استعمله المجسمة في افترااتهم على الأشاعرة.

ومن الغريب، أن تجد من يصنف كتابًا يزعم فيه أن أئمة المذاهب الأربعة على عقيدة التشبيه والتجسيم، وأن الإمام الأشعري نفسه قد مر بحياته بتوبتين: توبة من الاعتزال إلى طريقة ابن كلاب في الكلام، ثم التوبة الثانية يزعمون أنه اعتنق عقيدة السلف [على منهجهم في التجسيم] وترك الكلام، واستندوا إلى كلام لابن تيمية نفسه وإلى التحريف والتشويه الذي حصل لكتاب الإبانة للأشعري. والأمثلة كثيرة.

ويظن أحدُ الباحثين - وظنه من باب الاحتمال بعبارة «قد يكون» - أن ابن تومرت بعمله الدؤوب الذي ملأ حياته وعقله وشعوره «قد يكون بدأ يخالطه وَهْمٌ بأن الله قد هيَّأه لأمر عظيم في هداية الناس، ثم بدأ هذا الشعور يتطور في نفسه حتى أصبح اقتناعًا بأنه هو المهدي.. فتكون المهدية إذًا وليدَةَ وهمٍ وليس وليدة غش وخداع»(٢).

(١) ابن تيمية، مسألة في المرشدة، (صص٢٣ - ٣٤).
(٢) عبد المجيد النجار، المهدي ابن تومرت حياته وآراؤه، (ص١٣٧).

وما نراه أن إنسانًا وُصف بالعلم والإخلاص والعمل الدؤوب لتحقيق ما يريده يبعد أن يكون ادّعى أو وهم، وما نُسِب إليه من أمور مسيئة فالغالب أنه نتيجة لتحكم المصادر في عرض الموضوع.

ونقطة ثانية تتعلق بما وُصف به من سلوك طريق الشعوذة لإظهار أمور خارقة للعادة، فيرجح عبد المجيد النجار في ذلك، أنه مما بالغ به المناوئون للحركة الموحدية الذين تحاملوا لعرضها بالصورة القاتمة، «خاصة وأن هذه الشناعات لم يوردها في صيغة التصديق إلا مؤرخون معروفون بمناهضة الدعوة الموحدية.. أو من نقل عنهم»[١].

ويكفي ما ذكرناه في إبطالها من عرض ذلك في مصدر غير موثوق، له مآرب وأغراض في تشويه عقيدة الأشاعرة، وهو ما ذكرته آنفًا في ما عرضه ابن تيمية في «مسألة في المرشدة» والتحامل الذي يقوم به من اتبعه من المجسمة القدماء والمعاصرين في مواجهة أهل السنة والجماعة.

وتاج الدين السبكي الذي عرض شيئًا من ترجمة ابن تومرت بنقله عن المُراكشي، ووصفه بأنه «كان أمَّارا بالمعروف نهَّاء عن المنكر، خشن العيش كثير العبادة، شجاعًا بطلًا قوي النفس صادق الهمة، فصيح اللسان كثير الصبر على الأذى.. وينصر الكلام على مذهب الأشعري»[٢]. لم يصفه بالمخارق والغش والخداع وقتل الآلاف من الناس، حتى ما نقله عن

(١) نفس المرجع والصحيفة.
(٢) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٣، ص٣٦٤).

المراكشي أنه كان «بارعا في خط الرمل ووقع بجفر»، أردفها بعبارة: «فيما قيل»[(١)]، وهي عبارة يستعملها المحدثون والفقهاء في الغالب للتضعيف وليس للجزم بوقوعها.

وينصف عبد المجيد النجار ابن تومرت بقوله: «وما نسبه إليه بعض المؤرخين من المقاتل الرهيبة والحيل والمخاريق، إذ يغلب على الظن أنها مكذوبة عليه[(٢)]، وقد ذكر أن المراكشي وابن خلدون اللذين اعتبرهما «من أكثر المؤرخين اعتدالًا في موقفهما من الموحدين لم يذكرا هذه الأحداث» [يعني المخاريق والخداع][(٣)].

فَعَرْضُ ذلك، يجعلنا نشك في المصادر التي حصل بها اضطراب وخلط في الأخبار، وهذاالاضطراب لا شك أنه دليل الضعف.

والذي ينظر فيما كتبه ابن تومرت في «المرشدة» وفي «أعز ما يطلب» يرى عقيدته سنية بعيدة عن الاعتزال، وكذلك بعيدة عن مذهب التشيع، ومجرد أن يلقبه أحد تلاميذه بالإمام المعصوم أو المهدي فهذا لا يجعله متشيّعًا.

وتاج الدين السبكي وهو أحد الذين ذكروا ترجمة ابن تومرت، لم ينسب إليه ما يشينه في أمر الاعتقاد، ولا تجاوز ذلك لأمور لم تبلغه بالسند الموثوق، حتى لا يحمّله ما لم يقله

---

(١) نفسه، (ج٣، ص٣٦٧).

(٢) عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت، (ص١٣٤).

(٣) عبد المجيد النجار، المهدي ابن تومرت، م.س.، هامش رقم ٢٢، (ص١٣٧).

أو يفعله، فانطلاقًا من ذكر عقيدته المرشدة نستطيع أن نبين أن عقيدته أشعرية بامتياز. حتى أنها كانت تُدرَّس في بعض المدارس، ومنها المدرسة الصلاحية في بيت المقدس، وهذا الموضوع كان السبب والصلة التي ذكر فيها [أي التاج السبكي في الطبقات] ابن تومرت وعقيدته، بل ذكر أيضًا من كان يعادي هذه العقيدة، وهذا يفهم منه وجود مجموعة كانت تعمل على تشويه صورة ابن تومرت وتشويه العقيدة التي صنفها، ووصفها بأنها المضلَّة. ويظهر أيضًا من خلال هذا النص مشاركة الذهبي لمنهج المناوئين للعقيدة الأشعرية بأسلوب ليّن، وفي ذلك يمكن أن نسوق أكثر من مسألة في هذا الموضوع.

يعرض تاج الدين السبكي في كلامه عن فخر الدين بن عساكر(١)، أنه كان يدرّس العقيدة المرشدة في بيت المقدس وفي دمشق: «وكان بينه وبين الحنابلة ما يكون غالبًا بين رعاع الحنابلة والأشاعرة، فيذكر أنه كان لا يمر بالمكان الذي يكون فيه الحنابلة، خشية أن يأثموا بالوقيعة فيه»(٢).

ثم يذكر أنه وجد كتابًا بخط الحافظ صلاح الدين خليل بن

---

(١) عبد الرحمٰن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الدمشقي، الملقب فخر الدين، المعروف بابن عساكر، شيخ الشافعية بالشام، وفقيه زمانه، وكان محدثًا صالحًا زاهدًا، منقطعًا للعلم والعبادة، وجمع بين العلم والعمل، وهو من أسرة اشتهرت بالعلم والفضل والحفظ، وهو ابن أخي الحافظ أبي القاسم علي بن عساكر صاحب «تاريخ دمشق» و«تبيين كذب المفتري فيما نسب للإمام أبي الحسن الأشعري»، وتوفي سنة (٦٢٠هـ/١٢٢٣م). الزركلي، الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، (ج٣، ص٣٢٨).

(٢) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، ص٣٤٠).

كيكلدي العلائي[١] رحمه الله، يروي فيه حادثة حصلت في بيت المقدس، في زمن احتلالها من قبل الصليبيين، في مدرسة كان يدرِّس فيها فخر الدين بن عساكر، ومما نقله السبكي عن العلائي: «رأيت بخط الشيخ شمس الدين الذهبي، أنه شاهد بخط سيف الدين أحمد بن المجد المقدسي: لما دخلتُ [أي المقدسي] بيتَ المقدس والفرنج إذ ذاك فيه، وجدتُ مدرسة قريبة من الحرم - قلت أظنها الصلاحية - والفرنج بها يؤذون المسلمين ويفعلون العظائم، فقلت سبحان الله، ترى أي شيء كان في هذه المدرسة حتى ابتُليت بهذا، حتى رجعتُ إلى دمشق فحُكِيَ لي أنَّ الشيخ فخر الدين ابن عساكر كان يقرئ بها المرشدة، فقلتُ [والكلام ما زال للمقدسي]: بل هي المضلة. انتهى ما نقلته [أي السبكي] من خط العلائي رحمه الله»[٢].

ثم يتابع ذِكْرَ ما نقلَه بخط العلائي، كلامًا يدافع فيه عن العقيدة المرشدة ويمدحها، فقال: «ونقلت من خطه أيضا: وهذه العقيدة المرشدة، جرى قائلها على المنهاج القويم، والعقد المستقيم، وأصاب فيما نزَّه به العليَّ العظيم. ووقفت على جواب لابن تيمية سئل فيه عنها ذكر فيه: أنها تنسب لابن تومرت وذلك بعيد من الصحة أو باطل [وهذا نقل العلائي

---

(١) صلاح الدين خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي الشافعي الأشعري. عمل مدرسا في المدرسة الصلاحية في القدس وتوفي فيها سنة (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م). ودفن بمقبرة باب الرحمة. الزركلي، م.س.، (ج٢، ص٣٢١).

(٢) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، ص٣٤٠).

لكلام ابن تيمية] لأن المشهور أن ابن تومرت كان يوافق المعتزلة في أصولهم. وهذه مباينة لهم انتهى. وأطال العلائي في تعظيم المرشدة والإزراء بشيخنا[١] الذهبي وسيف الدين ابن المجد، فيما ذكراه»[٢].

ويدافع تاج الدين بعد هذا النقل مؤيدًا العلائي في كلامه عن صواب ما في المرشدة من نصوص عقدية، بقوله: «فأما دعواه أن ابن تومرت كان معتزليًا فلم يصح عندنا ذلك، والأغلب أنه كان أشعريًا صحيح العقيدة أميرًا عادلًا داعيًا إلى طريق الحق. وأما قول السيف ابن المجد: «إن الذي اتفق إنما هو بسبب إقراء المرشدة» فمن التعصب البارد والجهل الفاسد، وقد فعلت الفرنج داخل المسجد الأقصى العظائم، فهلّا نظر في ذلك نعوذ بالله من الخذلان»[٣].

ثم يسوق نص العقيدة المرشدة بتمامها، ورأيت أن أنقلها للفائدة، وهي:

«اعلم أرشدنا الله وإياك، أنه يجب على كل مكلف أن يعلم أن الله عز وجل واحد في ملكه، خلق العالم بأسره، العلوي والسفلي والعرش والكرسي والسموات والأرض وما فيهما وما بينهما، جميع الخلائق مقهورون بقدرته، لا تتحرك ذرة إلا

---

(١) يقول تاج الدين السبكي عن الذهبي شيخنا لأنه كان شيخه في الحديث، لكن عليه انتقادات كثيرة صرح بها السبكي في الطبقات لأنه في ترجماته كان لا يعطي الأشاعرة حقهم ويجعل عند بعضهم عُلقة أوشيئا لتشويه سمعته والتشويش على أتباع الأشعرية.

(٢) نفسه، (ج٤، ص٣٤٠).

(٣) نفسه، (ج٤، صص٣٤٠ - ٣٤١).

بإذنه، ليس معه مدبر في الخلق، ولا شريك في الملك، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، عالم الغيب والشهادة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، فعال لما يريد، قادر على ما يشاء، له الملك وله الغنى، وله العز والبقاء، وله الحكم والقضاء، وله الأسماء الحسنى، لا دافع لما قضى ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه بما يشاء. لا يرجو ثوابًا ولا يخاف عقابًا، ليس عليه حق ولا عليه حكم [يلزمه]، وكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. موجود قبل الخلق، ليس له قبل ولا بعد ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا كل ولا بعض. ولا يقال متى كان ولا أين كان ولا كيف. كان ولا مكان كوّن الأكوان ودبر الزمان، لا يتقيد بالزمان، ولا يتخصص بالمكان، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يلحقه وهم، ولا يكتنفه عقل، ولا يتخصص بالذهن، ولا يتمثل في النفس، ولا يُتصور في الوهم، ولا يتكيف في العقل، لا تلحقه الأوهام والأفكار، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾[1]، ويقول بعدها: «هذا آخر العقيدة وليس فيها ما ينكره سني»[2].

ويذكر صاحبُ «مرآة الزمان» سبطُ ابن الجوزي عقيدة ابن

---

(١) سورة الشورى، آية (١١).

(٢) التاج السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، ص٣٤٢).

تومرت مختصرًا من المرشدة ومقالاته الأخرى، فقال: «..ثم ذكر فصولًا في دَفْعِ التَّشْبيه والتكييف والتعطيل، وأَثْبَتَ التَّوحيد والتَّنزيه، ثم قال: عَرَفه العارفون بأفعاله، ونفوا التكييف عن عِزَّته وجلاله. ثم قال: وما وَرَدَ من الآيات المتشابهات كآيات النُّزول ونحوها فيجب الإيمانُ بها مع نفي الكيفية.. ثم قال: وهو عالم بِعلْم واحد، قادِرٌ بقُدْرةٍ واحدة. ثم أَثْبَتَ القَدَر، وقال: وجميعُ المخلوقات صادِرَةٌ عن قَضَائه وقَدَره، قَدَّرها في أزلِيَّته من غير زيادةٍ ولا نُقْصان، لا تبديلَ في المقدور، ولا تحويل في المحتوم، أوجدها بغير واسطة ولا بعِلَّة، وليس له شريكٌ في إيجادها.. ثم أثبت رؤية الله تعالى في الجَنَّة، وذَكَرَ آياتِ النَّظر والأحاديث، ثم قال: من غير تشبيه ولا تجسيم»[1]. وفيما ذكره سبط ابن الجوزي تأكيد على أن ابن تومرت لم يكن معتزليًا بل كان أشعريًا سنيًا.

ويصنف تاج الدين السبكي في كتابه «معيد النعم ومبيد النقم» العقيدة المرشدة مع أمهات كتب العقيدة الأشعرية، فقال: «وهؤلاء الحنفيّة والشافعيّة والمالكية وفضلاء الحنابلة - وللَّه الحمد - في العقائد يدٌ واحدة كلهم على رأي أهل السنَّة والجماعة، يدينون اللَّه تعالى بطريق شيخ السنّة أبي الحسن الأشعري رحمه اللَّه، لا يحيد عنها إلَّا رَعَاع من الحنفية والشافعية، لحقوا بأهل الاعتزال، ورَعاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرَّأ اللَّه المالكية فلم نرَ مالكيًّا إلَّا أشعريّ

(١) يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله أبو المظفر المعروف بسبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ٢٣ جزءا، ط١، دمشق، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، (ج٢٠، صص٢٦٢ - ٢٦٣).

العقيدة. وبالجملة عقيدة الأشعريّ هي ما تضمنته عقيدة أبي جعفر الطحاويّ التي تلقَّاها علماء المذاهب بالقبول، ورضوها عقيدة. وقد ختمنا كتابنا جمع الجوامع بعقيدة ذكرنا أن سلف الأمة عليها. وهي وعقيدة الطحاويّ وعقيدة أبي القاسم القشيري والعقيدة المسماة بالمرشِدة مشتركات في أصول أهل السنَّة والجماعة»[(١)].

ولا نشك أن ابن تومرت قد جعل المرشدة في منهجه التعليمي للعامة من الناس كبارًا وصغارًا بسبب سهولتها وبساطة عباراتها. يقول ابن خلدون: «ثم ارتحل المهدي إلى إيجلي من بلاد هرغة، فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة (١١٢١م). وبنى رابطة للعبادة اجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلّمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري»[(٢)].

ويذكر محقق كتاب ابن تومرت «أعز ما يطلب»: «إن دعوة الموحدين وتمسكهم بمبدأ الجهاد أزعجت نصارى الغرب، ودخلهم الخوف من هذه الحركة الموحدية، فأرادوا أن يفهموا أصولها وآراءها وعقائدها ليتسنى لهم الرد عليها، ومحاربتها بالفكر وبالسيف. فكان مِن مارك الطُلَيْطِلي أن ترجم عقيدة التوحيد أو المرشدة إلى اللغة اللاتينية بأمر من رئيس أساقفة طليطلة، والرئيس الديني الكاثوليكي لإسبانيا، وبإلحاح من رئيس شماسة طليطلة، قال مارك الطليطلي المترجِم: «لذلك قد قمت بترجمة كتيب ابن تومرت بعد أن انتهيت من ترجمة

(١) تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، (ص٦٤).
(٢) ابن خلدون. م.س.، (ج٦، ص٣٠٣).

القرآن، لكي يتسنى للمسيحيين أن يأخذوا منها أكبر قدر من المعلومات، يتمكنون بها الرد على المسلمين ومحاربتهم»[١].

وقد حرص صلاح الدين بعد زوال ملك العبيديين في مصر على الاعتناء بتعليم العقيدة الأشعرية لعامة الناس كبارًا وصغارًا. ففضلا عن تعليمها في المدارس، أصدر الأمر للمؤذنين على أن يقرأوا العقيدة المرشدة لابن تومرت على المآذن وقت السحر[٢].

وإذا كانت العقيدة المرشدة اتُخِذَتْ مادة للتدريس في المدارس في دمشق، وبيت المقدس، وقُرِئَتْ على المآذن وقت التسبيح في مصر بعد انتزاعها من يد العبيديين. وبعد النظر في المصادر لوحظ أن وفاة ابن تومرت كانت سنة (٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) و بحياته كانت تقرأ المرشدة، وزوال حكم العبيدين في مصر على يد صلاح الدين كان في سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧١م)، وصارت تقرأ المرشدة على المآذن وقت التسبيح، نقل ذلك المقريزي بقوله: «فواظب المؤذنون على ذكرها في كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا»[٣]، وقد توفي المقريزي سنة (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)؛ وفخر الدين ابن عساكر كان

---

(١) عمار طالبي. محقق كتاب أعز ما يطلب لمحمد بن تومرت (مقدمة المحقق)، صدر عن وزارة الثقافة الجزائرية بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية سنة ٢٠٠٧، (ص٢٠). ترجمة من النص اللاتيني المخطوط بمكتبة مازر بصقلية والمنشور بمجلة الأندلس ج ١٦، مدريد غرناطة، ١٩٥١، (ص٢٦٨)، ورقم المخطوط (٧٨٠).

(٢) انظر: المبحث الثاني: في أهم الوقائع السياسية في المشرق في القرنين ٥و٦هـ/ ١١ و١٢م، من الفصل الأول من الباب الأول من هذ البحث.

(٣) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (ج٤، ص٩٠).

حيا قبل سنة (٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م) وكان يدرسها في بيت المقدس ودمشق، وصلاح الدين العلائي توفي سنة (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م) وخبرُ تدريسها نقلها من المعاصرين، ولا يبعد أن يكون تدريسها مستمرًا في المدارس العتيقة والكتاتيب.

وفي ذلك إشارات لأمور عدة منها:

* أنها تلخص العقيدة الأشعرية تلخيصًا لطيفًا يساعد على تعليم الناشئة أصول العقيدة التي يحتاج إليها لصحة العبادة.
* شهادة بعض علماء الأمة: فخر الدين بن عساكر، صلاح الدين العلائي، سبط ابن الجوزي، تاج الدين السبكي الذي قال فيها: «وليس فيها ما ينكره سني»(١)، وكلامه هذا يؤكد على إجماع الأمة على تلقيها بالقبول.
* وهذا يؤكد أن ابن تومرت لم يكن معتزلي الاعتقاد ولا متشيعًا.
* وأن انتشار هذه العقيدة شرقًا وغربًا يؤكد على وحدة هذه الأمة في أصول الاعتقاد.
* ويؤكد أن الذي حارب العقيدة الأشعرية وشوش عليها قديمًا هم وأمثالهم يشوشون عليها ويخاصمون معتقديها حديثًا.

وفي خلاصة سريعة، فإن من نتائج قيام دولة الموحدين تثبيتَ العقيدة الأشعرية إلى يومنا هذا. يقول عبد المجيد النجار: «وفي المجال العقدي، حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم، حيث أقلع أهل المغرب عن الفهم الذي كان يعتمد

---

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، ص٣٤٢).

إمرار النصوص على ظواهرها، واعتنقوا فهمًا جديدًا يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية بسبب موافقة التقرير العقدي لابن تومرت في أغلبه للمذهب الأشعري، وقد قامت رسالته المبسّطة الموجزة في العقيدة وخاصة رسالة «المرشدة» بالدور الكبير في ذلك، حيث أصبحت مقررًا للحفظ والدراسة في كثير من مناطق المغرب على مر الأيام. أما فيما يتعلق بعقيدة المهدية وما يتفرع عنها فإنها لم تجد سبيلًا إلى عقول أهل المغرب، بل لقيت صدودًا حتى من قبل بعض أمراء الموحدين أنفسهم، فآلت إلى الانحسار شيئًا فشيئًا، حتى انتهت إلى الزوال، ولم يبق لها بالمغرب أثر يذكر حينما عمت بصفةٍ نهائيةٍ العقيدةُ الأشعريةُ»[1].

فليس غريبًا أن يحصل ضجيج وافتراآت مختلفة على أصحاب العقيدة الأشعرية. وقد بينا أن المصادر التي تكلمت عَلَى ابن تومرت ونشوء الدولة الموحدية تنقسم إلى ثلاثة أقسام، وأحد هذه الأقسام يحمل في أس منهجه عدم قبول العقيدة الأشعرية؛ لأن أساس منهجه في الاعتقاد قياس الخالق على المخلوق، وتشبيه الله بخلقه، ويعمل على مواجهتها ومواجهة رجالها باستمرار. والأمثلة عديدة على مر العصور.

وفي موضوع ابن تومرت قد ذكرنا أن صلاح الدين العلائي قال: رأيت بخط شمس الدين الذهبي أنه شاهد بخط سيف الدين أحمد ابن المجد المقدسي يقول عن العقيدة المرشدة:

---

(١) عبد المجيد النجار، تجربة الإصلاح. م.س.، (ص١٣٩).

بل هي المضلة. وهذا دأب المجسمة والمشبهة لأنهم لا يوافقون على تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين[١].

وبعد أن بينا بوضوح مضمون عقيدة ابن تومرت الأشعرية، وأن المرشدة مماثلة لبقية أمهات المتون التي صنفت للعقيدة الأشعرية، وأن المنهج العقدي الذي سلكه ابن تومرت لا غبار عليه من حيث أصول الدين، لابد أن نميز بينها وبين الإجراءات السياسية التي اتخذها لتمكين سلطته. وسواء كانت الأخبار التي نقلت عنه صحيحة أم مدسوسة أم أن بعضها صحيح وبعضها مدسوس مبالغ فيه، فهذا الأمر لن نُمْضِيَ عليه وقتًا طويلًا، ولا نريد أن نُحَمِّلَ ابنَ تومرت ما لا يحتمله. لكن ما يمكن قوله: إنّ الدولة التي أسسها ابن تومرت وعبد المؤمن ابن علي الكومي أصبحت في مَصَافِّ الدُوَل الكبرى في التاريخ. أضف إلى ذلك الوصول إلى وحدة العالم الإسلامي العقدية بين شرقه وغربه، فما مضى القرن السادس إلا والأمة وَحَّدَتْها عقيدةٌ واحدة ولو لم تكن تحت سلطانٍ واحدٍ.

لذلك، فإن الذين لن يرضوا بهذه العقيدة ستحاول أبواقهم التعرض لهذا الإنجاز[٢]، وفعلًا فقد قالوا وهم من المعاصرين

(١) تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، (ج٤، ص٣٤٠).
(٢) وقد تعرض عبد المجيد النجار لهذا الهجوم وهذا الشتم في صحيفة سعودية، فيقول في هامش رقم (١) في (ص١٣١) من كتابه تجربة الإصلاح في حركة المهدي بن تومرت: «من الغريب أن تبقى آثار من هذه المواقف المتوترة المبنية على الهوى إزاء ابن تومرت وتجربته إلى اليوم، ومن ذلك ما أثاره نشر تعريف بأطروحتنا عن ابن تومرت بجريدة المدينة السعودية من رد فعل أحد الصحافيين يسمى أحمد الرفاعي تكثل في تعقيب غريب ينحو فيه باللائمة الشديدة التي تبلغ درجة التأثيم على كاتب الأطروحة والمشرف عليها، واللجنة التي=

الذين بثوا حسراتهم على المواقع الالكترونية واصفين ما جرى من انتشار العقيدة الأشعرية مع اتساع دولة الموحدين، وأن هذا الانتشار مهد لسيادة هذه العقيدة في بلاد المغرب قاطبة حتى وقتنا الراهن[(١)]. حماها الله وحفظها من شر الدسائس والمتطرفين.

والذي يبرئ ساحة ابن تومرت في موضوع تعليم الأصول الدينية السليمة، عاملان:

- العامل الأول هو مصنفاته التي ألفها في العقيدة والأصول والفروع.
- والعامل الثاني ظهور كبار علماء الأشاعرة في الدولة الموحدية كاستمرار للتواصل العلمي للعلماء الذين كانوا قبلهم.

= ناقشتها والجامعة التي احتضنتها لأن هذا الرجل موضوع الأطروحة دجال دموي إرهابي نازي خميني بربري!!. انظر هذا التعقيب بجريدة المدينة بتاريخ ٢٧ جانفي (كانون الثاني ١٩٨٢)، وانظر ردنا عليه في جريدة الصباح التونسية بتاريخ ٤ مارس (آذار ١٩٨٢).

(١) انظر حوارهم في موقع ملتقى أهل الحديث، فقد قال أحدهم: «أما دولة الموحدين فهي دولة الزندقة والضلال. مؤسس دولتهم هو الزنديق محمد بن تومرت الذي ادعى المهدوية وكان دجالا خبيثا، ألف كتبا في العقائد على مذهب الأشعرية، مخلوطة بالزندقة والرفض وغير ذلك من البدع التي لم تكن موجودة في بلاد المغرب حتى أدخلها هو، وألزم الناس بها. وقد خفف من جا ء بعده من ملوك الدولة مثل عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف وابنه يعقوب المنصور من هذه البدع، لكن أصبح المذهب الرسمي للدولة المغربية منذ ذلك الحين هو المذهب الأشعري، بعد أن كان المغرب سنيا محضا. رابط الموقع: من الشاملة: أرشيف ملتقى أهل الحديث ٢، تم تحميله: في ٧ رمضان ١٤٢٩ هـ ٧ سبتمبر ٢٠٠٨م. وترقيم الصحيفة في الشاملة: (أرشيف ملتقى الحديث. ٢٠/ ١١٠).

الفصل الثاني

نماذج من علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي

المبحث الأول: نماذج من علماء الأشعرية في المغرب الأقصى

المبحث الثاني: نماذج من علماء الأشعرية في الأندلس

المبحث الثالث: نماذج من علماء الأشعرية في المغرب الأدنى

تمهيد

سجل الباحث خالد زهري ملاحظة جديرة بالاهتمام، في موضوع المصادر التي أثارت ترددا عند بعض الباحثين في فهم المرحلة المرابطية، لخصها بالفقرة التالية:

«من أبرز ما وُصفت به المرحلة المرابطية.. من الزاوية العقدية والفكرية، أنها ابتعدت عن التأصيل، وتعصبت للفروع الفقهية، وأنها ولت ظهرها لعلم الكلام بما فيه «الكلام الأشعري»، مع التعصب لمذهب السلف[1]، ومحاربة كل ما سواه من المذاهب السنية.

بيد أن هذه الأحكام الجاهزة، تجعل الباحث الناقد يتردد كثيرًا في قبولها، لأن تاريخ المرابطين كُتب من لدن طرفين مختلفين، كلاهما كان عدوًا لهم:

أولهما: الموحدون الذين لم يألوا جهدًا في طمس كل ما هو مشرق في حضارة الملثمين.

وثانيهما: المستشرقون - خاصة «دوزي» و«جولدتسيهر» - الذين قدموا تفسيرًا إيديولوجيًا لتاريخ المرابطين، وتعمدوا تشويه هذا التاريخ، وامتزجت قراءاتهم بالتأويلات الفاسدة، والإسقاطات الإيديولوجية، فشكلت عائقًا معرفيًا حقيقيًا»[2].

---

(١) وقد بينا معنى السلف في مباحث سابقة أي على معنى التفويض مع تنزيه الله تعالى عن الشبيه وهو ما عنوا به: «أمروها كما جاءت بلا كيف».

(٢) خالد زهري، م.س.، (صص٣٥٥ - ٣٥٦).

ينبه المنصفون من البحاثة، إلى ضرورة التروي قبل إصدار الأحكام، واعتماد الدراسة العميقة للنشاط العلمي، لأن الباحث في تراجم الرجال يجد في هذا العصر زخمًا كبيرًا لعلماء الأشعرية مع إنتاج لا يُنكر من حيث تصنيف المؤلفات العقدية، ليس فقط فيما يخص متون العقيدة المتخصصة في الأشعرية، بل سريان نهج هذه العقيدة في تفسير القرآن الكريم وشروح الحديث النبوي الشريف، وفي نهج الطرق الصوفية.

فقد انتشر علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي طيلة القرنين الخامس والسادس الهجريين/ ١١ و١٢م، في العواصم العلمية التي اشتهرت في دولتي المرابطين والموحدين وليس فقط في عصر الموحدين، حيث شهد هذان القرنان نهضة علمية، مهدت لما بعدها في نشر العلوم الدينية على منهج الأشعرية في تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين.

وسنعمل على تحديد عدة موضوعات جرى فيها الخوض في الجدل الكلامي، التي أثارته الفرق التي خالفت أهل السنة والجماعة. وسنعتمد على أربع مجموعات من الفرق التي حملت الأفكار الرئيسة للانحراف، بمعنى تفرعت عنها كثير من الفرق التي دارت في فلكها، تردد أفكارها سواء بزيادة أو نقصان.

كما سنعتمد في هذا المبحث على إدراج أهم المسائل التي عمل الأشاعرة على ردها، والطريقة التي سنتبعها هو سرد المسألة المنحرفة، ونبين الرد عليها من أقوال علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي.

وسنبين المسائل التي نشرها أهل البدع وحصل الأذى الكبير

منهم، وخصوصًا في ثلاثة مواضيع تتعلق بشبهات المجسمة، والمعتزلة، والخوارج. وهذه الفرق لديها انحرافات تنتشر في عصرنا الحالي، ولكلٍ خصائص ومزايا وشبهات تؤثر على عقيدة الأمة.

فالمجسمة ظهرت سطوتهم في تكفير الأمة تكفيرًا شموليًا، للأمور التالية:

- الأول: يعتبرون أن الذي ينزه الله تعالى عن الشبيه والمكان هو معطل ينفي وجود الله، لأنهم يقيسون الخالق على المخلوق، فيتخيلون ويتوهمون أن الموجود لا بد أن يكون متمكنًا في مكان والذي ينفي المكان عنه يكون معطلًا له.
- والثاني: يعتبرون أن كل من يزور قبر النبي ﷺ، أو أي ولي من أولياء الله تعالى مشرك حلال الدم، لأنهم يعتبرونهم قبوريين يعبدون من فيها.

أما المعتزلة، فقد فظهرت عقائدهم عند بعض العصريين، ما بين من ينتسب للمشيخة، وبين من ينتسب لبعض الأحزاب المتطرفة في اعتقادهم لمسألة خلق الأفعال.

أما الفريق الثالث فيتعلق ببعض مسائل الخوارج، التي ظهر رواج بعض أفكارهم في هذا العصر، خصوصًا أفكار فرقة البيهسية من الخوارج، فيكفرون الحكام الذين يحكمون بالقانون الوضعي.

وأحب أن أبين أن بحثي هذا الذي يتعلق بالقرنين الخامس والسادس الهجريين/ ١١ و١٢م، هو زمن يسبق ظهور ابن

تيمية، الذي نظم قواعد عقيدة التجسيم في مجموعة مصنفات، فصارت أفكاره مصدرًا رئيسًا لمجسمة العصر، منذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب[1] مؤسس فرقة الوهابية، التي انتشرت في كثير من البلدان، وخرّجت آلاف المتطرفين بسبب بدعتهم المتطرفة التي تخالف عقيدة أهل السنة والجماعة.

وسنقوم بعرض نماذج مما قام به بعض علماء الأشاعرة في الغرب الإسلامي في هذين القرنين الخامس والسادس الهجريين، لبيان عملهم في تصحيح عقائد الناس في تربية الصغار والكبار، لتحصيل مجتمع آمن سليم متضامن يفكر باعتدال ويواجه التطرف، وهذا الذي يحصن المجتمعات من الآفات الناتجة عن الإفراط والتفريط.

وقد لمع نجم علماء المالكية في كل العصور السياسية، التي تلت زوال حكم العبيديين وفي كل الفنون، ولم يكن مستغربًا أن يكون سِلك العقيدة الأشعرية هو الذي جمعهم في أسانيد واضحة، تلقت من بعضها بوضوح عقيدةَ التنزيه. وهذا يظهر من الفهارس التي صنفها العلماء لأسانيدهم من مشايخهم الذين تلقوا عنهم، مثل فهرس ابن عطية، والغنية في مشايخ القاضي عياض، ومن كتب التراجم المختلفة التي ترجمت لعلماء المالكية في الغرب الإسلامي.

---

(١) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان (١١١٥هـ/ ١٧٠٣م - ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م)، للتعريف عنه، أنصح بقراءة: «فتنة الوهابية» من تأليف الشيخ أحمد زيني دحلان، مفتي الشافعية بمكة في أواخر السلطنة العثمانية (ت١٣٠٤هـ)، و«مذكرات مستر همفر» (أو إعترافات الجاسوس البريطاني) وهي وثيقة تُنسب إلى جاسوس بريطاني يدعى همفر (في القرن الثامن عشر)، وكتاب «الوهابية» لسامي قاسم المليجي نشرته مكتبة مدبولي، ٢٠٠٨م.

وقد عُرِفَت أشعرية هؤلاء العلماء من خلال التصانيف التي ألّفوها، فيتميز منهم من صنف في المتون العقدية، ومنهم من عُرف تمسكهم بمنهج الأشعرية، من خلال الفنون التي صنفوا فيها، لأن ذلك نهج ينسكب في كل فن من فنون العلوم الشرعية، سواء كان في التفسير، أو القراءات، أو شروح الحديث النبوي الشريف، أو في العلوم الشرعية الأخرى وعلوم اللغة العربية.

وكما ذكرنا سابقا فإن الأمر يتعلق بأصول العقائد الإسلامية، ويمكن القول بعبارة أخرى: القواعد التي تتعلق بتنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، والتي تميز الفرقة الناجية عن بقية الفرق التي دخلتها البدع المخالفة في الاعتقاد، وهي كما اصطلحوا على تسميتها بـ«أهل السنة والجماعة».

ويحسن أن نبين هنا، أنّ ما يتعلق بالمتشابه من الآيات والأحاديث الثابتة التي توهم التجسيم، فالمنزهون فيها فريقان:

- فريق يفوض المعنى إلى الله تعالى، مع قيد يلتزمه وهو عدم اعتقاد الجسمية ولوازمها كما قال السلف «أمروها كما جاءت بلا كيف».
- وفريق يؤوّل النص المتشابه، بإخراجه عن ظاهره إلى معنى تقتضيه لغة العرب، على ما يليق بالله تعالى.

فالعلماء منزّهون (بكسر الزاي) من الفريقين، وهم لا يخالفون القواعد العقدية لأهل السنة والجماعة، أي لا يخالفون أصول الاعتقاد في المدرسة الأشعرية، لأن المقرر عند أهل السنة الطريقتان على شروطهما السليمة. ولن ندخل

في الاختلافات بين بعض علماء الأشعرية واجتهاداتهم في طرقهم الكلامية، بل ما نريده من هذا الفصل هو تبيان نماذج من زبدة ما توصل إليه علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي، والتأكيد من أقوالهم أنهم كانوا على عقيدة التنزيه، عقيدة رسول الله محمد ﷺ، وصحابته والسلف الصالح ومنهم الإمام مالك بن أنس وبقية أئمة المذاهب الأربعة رضي الله عنهم. وقد حاولت في عرض أقوال هؤلاء العلماء، أن أعمل على ترتيبهم بحسب عملهم في من صنف في متون العقائد، ثم من اشتهر بالقراآت والتفسير، ثم الذين قاموا بشرح الحديث النبوي الشريف. ثم عدلت عن ذلك إلى العرض بحسب الترتيب الزمني وبحسب أسانيدهم، وقد وجدت في هذه الطريقة ما يؤكد على أمرين:

- أن المرحلة المرابطية كانت غنية جدا بروافد النتاج العقدي الأشعري، من بداية ظهور الدولة (سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) إلى انتهائها وزوالها (سنة ٥٤١هـ/ ١١٤م)، من عبد الله بن ياسين ومرورًا بأبي بكر المرادي الحضرمي، وأبي الحجاج الضرير، وأبي الوليد الباجي، والطرطوشي، وعياض اليحصبي، وأبي بكر بن العربي. وتواصل هذا السند بابن خمير السبتي، وأبي عمرو عثمان السلالجي، وغيرهم كثير.

- وأن التواصل في أسانيد العلماء منع من أن تؤثر فيهم سياسة هذه الدولة أو تلك، وكأن المظاهر المختلفة في الشأن السياسي، لم تؤثر على السلوك العلمي الذي كان عليه علماء الأمة من الأشاعرة، بل أن عمل أولئك الأئمة كان يدعم على المستوى العام، صيانة المجتمع عقديًا من تحريف أصحاب

البدع المتطرفة، ولا شك أن ذلك كان على مر العصور إلى يومنا هذا.

وسأعمد إلى عرض نماذج من هؤلاء العلماء بحسب النواحي التي اشتهروا بالسكن والعمل فيها من بلاد الغرب الإسلامي، الذي قسمناه إلى ثلاث نواحٍ أساسية جرت عليها الأحداث وأثرت فيما بينها، مع اختلافٍ السياسات التي كانت تتوالى على هذه البلاد، والتي كانت ترافقها مناوشات حصل بعدها تمركز سلطة وحدت شعبها وأرضها تحت سلطان واحد، سواء في عهد المرابطين أو في عهد الموحدين.

وهذه النواحي الثلاث هي: المغرب الأقصى، والأندلس، والمغرب الأدنى. والعلماء الذين اعتمدناهم كنماذج هم بحسب النواحي التي ذكرناها، على الوجه التالي:

- **المغرب الأقصى:**

* أبو بكر المرادي الحضرمي محمد بن الحسن (ت٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م).

* أبو الحجاج الضرير يوسف بن موسى الكلبي السرقسطي (ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦).

* القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م).

* أبو عمرو عثمان السلالجي (سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م).

* ابن خمير السبتي عليٌّ بن أحمد أبو الحسن (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

- **الأندلس:**

* القاضي أبو الوليد الباجي سليمغان بن خلف (ت٤٧٤هـ/ ١٠٨١م).

* القاضي أبو بكر بن العربي محمد بن عبد الله المعافري (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م).

* أبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد القرشي (المتوفى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م).

- **المغرب الأدنى:**

* الإمام أبو عبد الله المازري محمد بن علي التميمي (المتوفى ٥٣٦هـ/ ١١٤٣م).

المبحث الأول:

نماذج من علماء الأشعرية في المغرب الأقصى

١- محمد بن الحسن أبو بكر المرادي (ت٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م):

تحدث صاحب «التشوف إلى رجال التصوف» عن المرادي في ترجمته لأبي الحجاج الضرير يوسف بن موسى الكلبي، الذي كان تلميذًا للمرادي قائلًا: «أخذ عن أبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي من علوم الاعتقادات، وكان مختصًا به، وكان المرادي أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى، فنزل بأغمات وريكة، فلما توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء حمله وولاه القضاء، فمات بأزكي من صحراء المغرب سنة تسع وثمانين وأربعمائة (١٠٩٦م)»[١]. ويبدو أن بداية حياة أبي بكر المرادي كانت في القيروان ونال تعليمه الأولي فيها، قبل تعرضها للغزو الهلالي. يذكر ابن بشكوال: «دخل الأندلس وأخذ عنه أهلها، وكان نبيلًا عالمًا بالفقه، إمامًا في أصول الدين، له في ذلك تصانيف حسان مفيدة، وله حظ وافر من البلاغة والفصاحة.. ثم دخل قرطبة سنة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، واختلف إلى أبي مروان ابن سراج في سماع التبصرة لمكي بن أبي طالب»[٢].

---

(١) ابن الزيات التادلي، م.س.، (ص٧٤).

(٢) ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك، الصلة، في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم. تحقيق: إبراهيم الأبياري،=

ويبدو أن أسرة المرادي انتقلت من القيروان إلى الأندلس بسبب الأوضاع السياسية المضطربة التي حلت بإفريقية، ثم كان استقرارها في المغرب الأقصى، وقد تشبث به أبو بكر واصطحبه إلى الصحراء بعد أن ترك الملك لابن عمه يوسف ابن تاشفين[(١)].

١- (١) في الرد على المجسمة:

كان المرادي عالمًا عاملًا ينشر علمه بين الكبار والصغار، وعقيدته المنشورة التي بين أيدينا يبدو كأنها كانت مختصرًا سهلًا ليكون بين أيدي المبتدئين، بسبب صغر حجمها واقتصارها على أهم المباحث العقدية. وهذا دأب من يعمل لتصحيح عقائد الناس لتُقبل أعمالهم التعبدية، كغيره من علماء الأشاعرة، الذين يعتبرون الدين عقيدة وعملًا، ومن شفقتهم على المتعلمين، كانوا يعلمونهم كيف تصح عبادتهم للنجاة في الآخرة.

والمرادي كعالم أشعري، آثرنا أن نبين بعض النماذج التي يحصّن فيها أفراد المجتمع.

= ٣ أجزاء، ط١، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، (ج٣، ص٨٧٣). وانظر: العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. ١٠ أجزاء، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (ج٤، ص١٢). وخليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات. ٢٩ جزءا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م، (ج١، ص٢٩١).

(١) جمال علال البختي، في تقديمه لكتاب: عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي. (صص٥٦ - ٧٦).

*** الله سبحانه وتعالى موجود بلا مكان:**

استعمل المرادي أسلوبًا سهلًا للأفهام، لتعليم أن الله تعالى لا يشبه مخلوقاته. من ذلك: «اعلم أنه لا يُسأل سبحانه بكيف (لأنه لا مثل له)، ولا بما (لأنه لا جنس له)، ولا بمتى (لأنه لا زمان له)، ولا بأين (لأنه لا مكان له)»(١). وهذه أسئلة المراد منها معرفة ماهية وأوصاف الأجسام المخلوقة، والله تعالى يستحيل أن يكون مثلها.

*** لا يجوز أن يكون الخالق جسمًا:**

ويؤكد المرادي بأن الله تعالى موجود بلا مكان، لأن المكان هو الحيز الذي يملؤه الجسم والله سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(٢) فقال: «لا يجوز أن يكون الخالق سبحانه جسمًا، لأن الجسم معناه المؤلَّف، ولو كان بعضه أبعاضًا مبعضة لتمانعت أبعاضه.. ولا يجوز أن نسميه جسمًا وإن لم يكن مؤلفًا، لأن هذا خلاف الشرع واللغة»(٣)، يقصد بهذه العبارة أنه لا يجوز إطلاق اسم الجسم على الله تعالى ولو لم يفهم الناطق بها التأليف والتركيب، وذلك يوافق كلام أبي الحسن الأشعري الذي تعرض لهذه المسألة في كتابه «اللمع» فقال مجيبًا على مسألة بدأ بها (فإن قال قائل): «وإن أراد لـمَ لا

---

(١) محمد بن الحسن أبو بكر الحضرمي المرادي، عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي، منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية الرابطة المحمدية. ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢، (ص٢٤٥).

(٢) سورة الشورى، آية (١١).

(٣) أبو بكر المرادي، م.س.، (ص٢٤٦).

تسمونه جسمًا وإن لم يكن طويلًا عريضًا مجتمعًا؟ [يتابع أبو الحسن مجيبا] فالأسماء ليست إلينا، ولا يجوز أن نسمي الله تعالى باسم لم يسمِّ به نفسه، ولا سمّاه به رسوله ﷺ، ولا أجمع المسلمون عليه ولا على معناه»(١).

ويتابع المرادي في بيان استحالة أن يكون الله تعالى جسمًا مؤلفًا من أجزاء فيقول: «ولا يجوز أن يكون جزءًا، لأن الجزء تحيط به الأجزاء فيختص بالمكان، ويحتاج إلى كَوْن، والكون يدل على الحدث(٢)، وبالضرورة يُعلم أن الجزء يجوز عليه الحركة(٣)، وهي من أدلة الحدوث الظاهرة»(٤).

*** تأويل المتشابه:**

واستعمل المرادي في تعليمه التأويل للآيات والأحاديث المتشابهة خوفًا من إفساد عقائد الناس ووقوعهم في أفخاخ التجسيم، فذكر في متن عقيدته: «والمتشابه من الكلام: ما لا يستقل بنفسه في البيان عن معناه ولو حُمل على عمومه. فما ورد في الكتاب والسنة من ذلك، وكان له ظاهر في التشبيه، ووصف الله سبحانه بأوصاف التجسيم، وجب صرفه عن ظاهره.

---

(١) أبو الحسن الأشعري، كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، القاهرة، ١٩٥٥م، (ص٢٤).

(٢) لأن الحدث لا بد له من مرجح رجح وجوده على عدمه وهذا يستحيل على الله تعالى.

(٣) لأن الجسم موصوف بالعرض مثل الحركة والسكون فكل جسم لا يخلو أن يكون متحركا أو ساكنا، قال الأشعرية وهذا من أدلة الحدوث، فالله تعالى يستحيل أن يوصف بالعرض.

(٤) أبو بكر المرادي، م.س.، (ص٢٤٧).

مثال ذلك من القرآن:

* قوله تعالى ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[(١)]، معناه: جاء حكمه وعدله بين خلقه، إذ لا يجوز حمل ذلك على الحركة لدلالته على حدوثه.
* وقوله تعالى ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾[(٢)]، معناه: هدَّه الله من قواعده، فانخسفت أعاليه.
* وقوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[(٣)]، معناه: بالعلم والرعاية[(٤)].

ومثاله من السنة:

* قوله عليه السلام: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**» الحديث[(٥)] ومعنى ذلك: ينزل ملك من ملائكته. وقد رُوي من طريق ثابت (يُنزِل) بضم الياء، أي يُنزِل غيرَه[(٦)].. وفائدة الحديث الإخبار عن فضل آخر الليل، والترغيب في قيامه، والدعاء فيه. فأما الحركة فلا تجوز عليه سبحانه، لأنها من أدلة الحدوث. وقال مالك: «ينزل أمره، فأما هو

(١) سورة الفجر، آية (٢٢).
(٢) سورة النحل، أية (٢٦).
(٣) سورة الحديد، آية (٤).
(٤) أبو بكر المرادي، م.س.، (صص٢٥٢ - ٢٥٣).
(٥) الإمام مالك بن أنس، الموطأ. جزءان، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، رقم الحديث (٥٧٠)، (ج١، ص٢٩٣).
(٦) أبو بكر المرادي، م.س.، (ص٢٥٥).

تعالى فلا ينزل»[١].

* وقوله عليه السلام: «**اكلفوا من العمل ما لكم به طاقة، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا**» الحديث[٢]، معناه لا يقطع الثواب حتى تقطعوا العمل[٣].

وفي معالجة المتشابه من النصوص يذكر المرادي الطريقتين اللتين استعملهما العلماء: التأويل، والتفويض، بقوله: «واعلم أن الآي [والأحاديث] المتشابهة يجب إخراجها عن ظواهرها وحملها على غير ذلك من محتملاتها، ويرجع في ذلك إلى المقصود من معانيها. ومن شيوخ الحديث من قال: أجروها على ما جاءت عليه ولا تنظروا لها في تأويل، ولا تحملوها على ما في ظواهرها من التجسيم الذي لم يقصده الرسول عليه السلام»[٤].

لكنه يعود فيؤكد على اختيار طريق التأويل، لأنه أقوى حتى لا تتزلزل عقائد العوام، فيذكر: «تأويلُها أولى، لئلا تسرع إلى ظواهرها من التجسيم قلوبُ الجهال وألسِنةُ أهل الضلال»[٥].

١- (٢) في الرد على المعتزلة:

ضمَّن المرادي أيضًا متنه في العقيدة ردودًا على ما روَّجته

(١) نفسه، (ص٢٥٦). يعني: يستحيل عليه الانتقال من مكان إلى مكان لأنه ليس جسما، فهو موجود بلا مكان.
(٢) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود. ٤ أجزاء، دار الكتاب العربي، بيروت، رقم الحديث: (١٣٧٠)، (ج١، ص٥١٩).
(٣) أبو بكر المرادي، م.س.، (ص٢٥٩).
(٤) يعني كما قال السلف: أمروها كما جاءت بلا كيف.
(٥) أبو بكر المرادي، م.س.، (ص٢٦١).

المعتزلة وشوَّشت به عقائد بعض المسلمين، وسنذكر مثالين فيما وضعه المرادي.

*** رؤية الله تعالى في الآخرة:**

ذكر المرادي: «فإذا ثبت أن الرؤية جائزة في العقل[(١)]، فإنها قد وجبت في الشرع. والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[(٢)]، وهذا إذا حمل على الحقيقة كان كافيا في وجوب الرؤية. وليس لمخالفنا أن يحمله على مجاز ولا على تأويل بغير دليل، لأن الرؤية قد ثبت جوازها، وخرجت عن المستحيل.

*** كلام الله تعالى صفته غير مخلوق:**

وهذه مسألة من مسائل القدرية القدماء أعاد إحياءها المعتزلة في أوج قوة العصر العباسي الأول، فانزلق إليها بعض الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق، دون أن يعتقدوا اعتقاد المعتزلة الكفري، وهي مسألة دقيقة، يمكن أن تُفهم كالتالي: أهل السنة يعتقدون أن الله تعالى موصوف بصفات أزلية أبدية ليست هي عين الذات وليست هي غيره ومنها صفة الكلام، وأن الله تعالى يتكلم بلا حرف ولا صوت وكلامه ليس لغة عربية ولا سريانية ولا عبرية ولا غيرها من اللغات، أنزل القرآن وحيًا على رسوله الكريم محمد ﷺ فكتبه الصحابة وحفظوه في صدورهم وقرأوه بألسنتهم، فالكتابة التي في المصحف، والقراءة التي بألسنتهم هو أحرف وأصوات ولكنها

---

(١) أي في حكم العقل. لأن الله تعالى موجود لا يشبه الموجودات صح أن يُرى.
(٢) سورة القيامة، آية (٢٢ - ٢٣).

ليست عين الكلام الأزلي بل هو عبارة عنه، كما لوكتبت على اللوح كلمة «الله» فهذا لا يعني أن الله تعالى حال في هذه الحروف على اللوح، حاشا لله.

والمعتزلة لا يعتقدون بأن الله موصوف بصفات، واعتبروا كلام الله تعالى مخلوقًا في غيره، وقد روي عن أسد بن الفرات أنه قرأ الآية ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾[1] فقال عند ذلك أسد: «ويل لأهل البدع هلكت هوالكهم، يزعمون أن الله، جل وعز، خلق كلامًا يقول ذلك الكلام المخلوق: (أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا)»[2].

فهؤلاء الخلفاء لما أيدوا المعتزلة في قولهم القرآن مخلوق كانوا يعنون بذلك المصحف والأوراق والأحرف، أما المعتزلة فكانوا ينفون الصفة الأزلية الثابتة لله تعالى ويعتبرون أن الله خلق كلامه في شيء مخلوق.

فعلماء الإسلام قبل ظهور الأشعري بكّتوهم وتحملوا الأذى من سجن وتعذيب وقتل، ومر في هذه المحنة كثير، منهم أحمد بن حنبل في بغداد، وسحنون في القيروان، لذلك قام الأشعرية في الرد عليهم في متونهم، واعتبروا ذلك أصلا من الدين. وأبو بكر المرادي من هؤلاء.

*** الله خالق كل شيء ومنها أفعال العباد:**

يرد المرادي بدعة المعتزلة هذه بقوله: «كل حيوان أو جماد

(١) سورة طه، آية (١٣ - ١٤).
(٢) المالكي، م.س.، (ج١، صص٢٦٤ - ٢٦٥).

أو فعل من أفعال العباد فالله سبحانه خالقه، ولا يخلق المخلوق شيئًا على حال، وإنما مكتسب لما يفعله الله فيه.

والدليل على ذلك:

- أن إخراج الأعراض والأجسام إلى الوجود بمعنى واحد، وهو جعلها أنفسًا. فلو صح من المخلوق فعل الحركات والسكنات لصح منه فعل الألوان والروائح والجواهر وسائر المحدثات، فلما امتنع منه ذلك امتنع منه ما كان في معناه.
- ويدل على ذلك أيضًا أن الفاعل لا بد أن يكون مريدًا لفعله، ولا بد للمريد من العلم بما أراده، وقد وجدنا الإنسان يكتسب من الحركات ما لا يعرف عدده، ولا يحصّل أوقات وجوده وعدمه، فدل ذلك على أنه من فعل غيره.
- ويدل على ذلك أيضًا أن الخالق تعالى قادر على أفعال العباد، لأنه قادر على أمثالها، وإذا كان عليها قادرًا وخرجت إلى الوجود، تعلقت بها قدرته، وذلك موجب لكونه فاعلًا لها»[١].

وهكذا رد المرادي بعبارات بسيطة على ما كانت تروجه المعتزلة، وهو يدرك أن فهم تلك المسائل تتطلب أن يتلقى المتعلم متنا في العقيدة يتضمن أصول الاعتقاد.

٢- أبو الحجاج الضرير يوسف بن موسى الكلبي السرقسطي (ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦):

تلقى من أبي مروان بن سراج وأبي علي الجياني وغيرهما.

(١) أبو بكر المرادي، م.س.، (ص٢٧٣).

وكان عالما متقدما في علم التوحيد، وهو آخر مَنْ يعرف من العلماء الذين تلقوا عن أبي بكر المرادي وكان تلميذه المواظب عنده، وله أرجوزة مشهورة في العقيدة ومصنفات أخرى. انتقل إلى مراكش وسكن حضرة السلطان(١).

اشتهر أبو الحجاج بالعلم والزهد، وروي أن السلطان أرسل إليه مالًا ففرقه على المساكين، وعندما طلب منه البعض أن يبقي لنفسه شيئًا، فكان جوابه: «لا حاجة لي به، فإن فلانًا من إخواني في الله تعالى، يحرث لي قوتي، ويبعث إلي أضحية في كل عام فتصنع امرأتي من صوفها عباءة لي ألبسها»(٢).

وأبو الحجاج الضرير كان أحد شيوخ القاضي عياض الذي ترجم له في الغنية، بأنه كان نظارًا على مذهب الأشاعرة ومن علماء الكلام، إضافة لإتقانه علوم الآلة من نحو وصرف، وكان يتردد بين المغرب والأندلس، وذكر عياض أنه: «كان آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب. قرأت عليه أرجوزته الصغرى.. في الاعتقادات وحدثني بالكبرى وبكتاب التجريد لأبي بكر المرادي، وأجازني أرجوزته الكبرى وجميع تواليفه ورواياته، منها تآليف الفقيه أبي بكر المرادي شيخه وعنه كان أكثر أخذه»(٣).

ترك أبو الحجاج الضرير أرجوزة في العقيدة بعنوان «التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد»، جاليًا بذلك كل الشكوك التي

---

(١) ابن بشكوال، م.س.، (ج٣، ص٩٧٨).
(٢) ابن الزيات التادلي، م.س.، (ص٧٤).
(٣) عياض اليحصبي، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، (ص٢٢٦).

سرت عن العصر المرابطي، ويلفت الانتباه ما ذكره عياض: «كان آخر المشتغلين بعلم الكلام بالمغرب»، نفهم من ذلك أنه كان هناك من يعتقد اعتقاد الأشاعرة إنما لم يكن متبحرًا في علم الكلام، لكن ما رأيناه من ردود أبي الوليد الباجي على ابن حزم، وردود أبي بكر بن العربي على ابن قتيبة، يجعلنا نقف عند هذا الكلام؛ يقول محقق كتاب «التنبيه والإرشاد»: «إن الكتاب المخطوط الذي بين أيدينا يعتبر المنفذ الوحيد إلى عَلَم شامخٍ، من أعلام العقيدة الأشعرية بالمغرب الأقصى، في مرحلة حامت ولا تزال حولها الكثير من الشكوك»[١].

لا نشك أن هذا «العَلَم الشامخ» هو واسطة العقد في الفترة المرابطية، فهو تلميذ أبي بكر المرادي الذي توفي سنة (٤٨٩هـ/ ١١٠٦م) وأستاذ القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي الذي توفي سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)، بينما أبو الحجاج الضرير توفي سنة (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)، وكل هؤلاء الأعلام الكبار عاشوا في الفترة المرابطية.

٢- (١) في الرد على المجسمة:

ويتميز أبو الحجاج الضرير بأنه صنف متنًا كبيرًا في العقيدة، تضمن الأبواب والفصول التي تستعمل لتعليم أصول الدين على الطريقة الأشعرية، بأسلوب سهل لحفظ المتعلمين، وتمكينهم بالأدلة العقلية والنقلية.

---

(١) محققو كتاب التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد: سمير فوبيع ومحمد العمراني ونور الدين شعيبي. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م (ص٢٧).

*** الله ليس جسما فهو موجود بلا مكان:**

يبين الضرير فيما يستحيل عليه سبحانه من الصفات وأن الله لا يشبه مخلوقاته:

وَيَسْتَحِيلُ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ
كَذَاتِ مَخْلُوقٍ كَذا صِفَاتُهُ
وَيَسْتَحِيلُ الكَوْنُ فِي مَكَانِ
عَلَيْهِ إِذْ لَيْسَ بِذِي أَكْوَانِ
وَلَا لَهُ حَدٌّ وَلَا مِثَالُ
وَلَا تَغَيُّرٌ وَلَا زَوَالُ(١)

ويؤكد بقوله «ولا له حدّ «أن الله تعالى ليس حجمًا، لأن المحدود عند علماء التوحيد هو ماله حجم، والحجم يأخذ حيِّزًا من الفراغ، وهذا الحيز هو المكان الذي يتمكن فيه. يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من زعم أن إلهنا محدود فقد جهل الخالق المعبود»(٢).

*** تأويل المتشابه:**

ويقول في باب ذكر المتشابهات:

---

(١) يوسف بن موسى المعروف بأبي الحجاج الضرير، التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد، تحقيق: سمير فوبيع ومحمد العمراني ونور الدين شعيبي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، (ص١٠٩).

(٢) أحمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالحافظ أبي نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ أجزاء، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (ج١، ص٧٣).

فَــكُــلُّ مَــا ظَــاهِــرُهُ الــتَّــشْــبِــيــه
وَمَــا يُــنَــافِــي الــمَــجْــدَ وَالــتَّــنْــزِيــه
فَــحُــكْــمُــهُ الــوَقْــفُ أَوِ الــتَّــأْوِيــلُ
كِــلَاهُــمَــا قَــالَ بِــهِ جَــلِــيــلُ
وَكُــلُّــهُــمْ قَــالَ بِــتَــرْكِ الــظَّــاهِــر
لِأَنَّــهُ يَــدْعُــو الــجَــهُــولَ غَــامِــر
وَمَــالَ شَــيْــخُــنَــا إِلَــى الــتَّــأْوِيــلِ
لِأَنَّــهُ أَسْــعَــدُ بِــالــدَّلِــيــلِ[1]

في هذه الأبيات، يذكر أبو الحجاج أن النصوص الشرعية الواردة في كتاب الله تعالى، وحديث رسوله الثابت ﷺ، إذا كان ظاهرها يوهم تشبيه الله تعالى بخلقه، وهذا ما عناه بقوله: «وما ينافي المجد والتنزيه»، فالحكم في ذلك في أحد طريقين:

«الوقف» ويقصد به: إثبات النص لأنه ورد في الشرع، وتفويض معناه إلى الله تعالى خوفًا من حمله على غير المعنى المراد، ولكن في هذه الحال يجب اعتقاد نفي الكيف عن الله تعالى لأن الكيفية منفية عن الله تعالى وعن صفاته، لأن الكيفية هي صفات الأجسام. وهذا طريق السلف الصالح عندما قالوا: «أمروها كما جاءت بلا كيف». قال أبو سليمان الخطابي: «إن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه أن ربنا ليس بذي صورة ولا هيئة، لأن الصورة تقتضي الكيفية وهي عن الله وعن صفاته منفية»[2].

---

(١) أبو الحجاج الضرير، م.س.، (ص١١٢).
(٢) حمد بن محمد المعروف بأبي سليمان الخطابي، أعلام الحديث في شرح=

والطريق الآخر: التأويل، ويقصد به: إخراج النَّص عن ظاهره بإعطائه معنى تحتمله لغة العرب مع التنزيه التام عن مشابهة المخلوقين، وهذا يطلقون عليه مسلك الخلف، وكلا الطريقين صحيح، لأن «كلهم قال بترك الظاهر».

لكنه بعد هذا، يؤكد اختياره طريقة التأويل، اتباعًا لشيخه المرادي، فيذكرفي البيت التالي: «ومال شيخنا إلى التأويلِ»، يقصد بذلك أن ما تلقاه من شيخه أبي بكر المرادي العمل بالتأويل على مسلك الخلف خوفًا من تزلزل العقيدة عند العوام، فاستعمال الدليل يكبح أهل الأهواء ويلجمهم، وقد بيَّنّا ما قاله المرادي في هذا الموضوع وهو قوله: «واعلم أن الآي المتشابهة والأحاديث المشكلة يجب إخراجها عن ظواهرها وحملها على غير ذلك من محتملاتها، ويرجع في ذلك إلى المقصود من معانيها. ومن شيوخ الحديث من قال: أجروها على ما جاءت عليه ولا تنظروا لها في تأويل، ولا تحملوها على ما في ظواهرها من التجسيم الذي لم يقصده الرسول. وتأويلها أولى، لئلا تُسرِع إلى ظواهرها من التجسيم قلوبُ الجهال وألْسِنةُ أهل الضلال»(١).

ويعطي أبو الحجاج أمثلة لتأويل المتشابه من القرآن والحديث، فيقول:

= صحيح البخاري. ٤ أجزاء، ط١، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م، (ج١، ص٥٢٩). وأحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي، كتاب الأسماء والصفات. المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د. ت.، (ص٢٨٢).

(١) أبو بكر المرادي الحضرمي، م.س.، (ص٢٦١).

مِـــنْ ذَاكَ مَـــا وَرَدَ فِـــي الـــقُـــرْآنِ
مِـــنَ الـــمَـــجِـــيءِ وَمِـــنَ الإتْـــيَـــانِ
وَهُـــوَ يَـــرْجِـــعُ إِلَـــى الأَفْـــعَـــالِ
إِذِ الـــقَـــدِيـــم لَـــيْـــسَ ذَا انْـــتِـــقَـــالِ

وقوله «من المجيء» يقصد به الآية ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾[1]، فسرها ابن جزي الكلبي الغرناطي «تأويله عند المتأولين: جاء أمره وسلطانه.. وهذه الآية وأمثالها من المشكلات التي يجب الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل»[2]. ويقول البيهقي في الأسماء والصفات: «وأما الإتيان والمجيء، فعلى قول أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه: يحدث الله تعالى يوم القيامة فعلا يسميه إتيانًا ومجيئًا، لا بأن يتحرك أو ينتقل، فإن الحركة والسكون والاستقرار من صفات الأجسام، والله تعالى أحد صمد ليس كمثله شيء»[3].

وعن حديث النزول «**ينزل ربنا**» الحديث، يقول أبو الحجاج الضرير:

وَمِـــثْـــلُ ذَاكَ خَـــبَـــرُ الـــنُّـــزُولِ
وَجَـــاءَ مَـــعْـــنَـــاهُ عَـــنِ الـــرَّسُـــولِ
بِـــأَنَّـــهُ يَـــبْـــعَـــثُ مَـــنْ يُـــنَـــادِي
رُوِيَ عَـــنْـــهُ هَـــذا بِـــالإِسْـــنَـــادِ

(١) سورة الفجر، آية (٢٢).
(٢) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، (ج٢، ص٥٧١).
(٣) أبو بكر البيهقي، الأسماء والصفات، (ج٢، ص٤١٤).

وَجَـــاءَ يُـــنْـــزِلُ بِـــضَـــمِّ الـــيَـــاءِ
مَـــعْـــنَـــاهُ غَـــيْـــرُهُ بِـــلا امْـــتِـــرَاءِ[١]

يعني أن الله تعالى يستحيل عليه الحركة والانتقال من مكان إلى مكان، وقد ورد عن الإمام مالك بن أنس أنه أوَّل هذا الحديث فقال: «يتنزل أمره»، ففي كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» لابن عبد البر: «روى محمد بن علي الجبلي، وكان من ثقات المسلمين بالقيروان، قال: حدثنا جامع بن سوادة بمصر، قال: حدثنا مطرف عن مالك بن أنس، أنه سئل عن الحديث «**إن الله ينزل في الليل إلى سماء الدنيا**» فقال مالك: **يتنزل أمره**»[٢]. وفي «فتح الباري»: «وقد حكى أبو بكر ابن فورك أن بعض المشايخ ضبطه بضم أوله على حذف المفعول، أي يُنزل ملكًا، ويقويه ما رواه النسائي من طريق الأغر عن أبي هريرة وأبي سعيد بلفظ: **إن الله يمهل حتى يمضي شطر الليل، ثم يأمر مناديًا يقول هل من داع فيستجاب له الحديث**»[٣]. وبذلك أوله أبو الحجاج، لما قال «وَجَاءَ يُنْزِلُ بِضَمِّ اليَاءِ»، ثم يفسره بعجز البيت بقوله: «مَعْنَاهُ غَيْرُهُ بِلا امْتِرَاءِ»، يقصد بذلك أن الذي ينزل غير الله، وهذا مأخوذ من الرواية الأخرى للحديث الذي ذكرناه آنفًا برواية النسائي. ويورد ابن حجر

(١) أبو الحجاج الضرير، م.س.، (ص١١٣).
(٢) يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، مؤسسة قرطبة، ٢٤ جزءا، مؤسسة قرطبة للبحث العلمي وتحقيق التراث الإسلامي والترجمة، القاهرة، د. ت.، (ج٧، ص١٤٣). وأورد المرادي قول مالك أيضا في عقيدته. انظر: أبو بكر المرادي، م.س.، (ص٢٥٦).
(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، م.س.، (ج٣، ص٣٠).

تفسير أبي بكر بن العربي نقتطف منها هذه العبارة: « فأما قوله ينزل فهو راجع إلى أفعاله لا إلى ذاته»[(١)]. ويورد أبو الحجاج الكثير من الأمثلة عن المتشابهات في الآيات والحديث[(٢)].

٢- (٢) في الرد على المعتزلة:

*** رؤية الله تعالى في الآخرة:**

ينكر المعتزلة رؤية الله تعالى في الآخرة، وقد رد عليهم أهل السنة بالدليل العقلي وبما ورد في القرآن والحديث، وأبو الحجاج أفرد بابًا سماه: «باب في رؤية الله تعالى»، فقال:

وَرُؤْيَــةُ الــعِــبَــادِ لِــلْــمَــعْــبُــودِ
جَــائِــزَةٌ لِــعِــلَّــةِ الــوُجُــودِ[(٣)]

يذكر أبو الحجاج أن الرؤية من حيث حكم العقل جائزة، والعلة في ذلك الوجود، والله تعالى موجود ولكن وجوده ذاتي لم يسبقه عدم، فهو أزلي لا يحتاج لمرجِّح رجَّح وجودَه على عدمِه، لأنه الخالق ولا خالق سواه. وفي ذلك، يقول اللغوي الكبير الذي يلقّب بخاتمة اللغويين الحافظ الفقيه المحدّث محمد مرتضى الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين»: «والبارئ تعالى موجودٌ

---

(١) أبو بكر بن العربي، عارضة الأحوذي بشرح الترمذي، ١٤ جزءا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، (ج٢، ص١٩٨). وانظر: ابن حجر العسقلاني، م.س.، (ج٣، ص٣٠).

(٢) أبو الحجاج الضرير، م.س.، (انظر الصحائف: من ١١٤ إلى ١١٨).

(٣) نفسه، (ص١٦٥).

فصحّ أنْ يُرى»[١] وقال الفيومي اللغوي في المصباح المنير: «الوجود خلاف العدم»[٢]. يعني أن الموجود خلاف المعدوم.

ويتابع أبو الحجاج كلامه في هذه المسألة، فيقول:

وَاللهُ مَوْجُودٌ فَجَازَتْ رُؤْيَتُهْ
وَحَجَبَ الأَبْصَارَ جَلَّتْ قُدْرَتُهْ

ويورد ابن حجر العسقلاني: «وقال عياض رؤية الله سبحانه وتعالى جائزة عقلا، وثبتت الأخبار الصحيحة المشهورة بوقوعها للمؤمنين في الآخرة، وأما في الدنيا فقال مالك: إنما لم يُر سبحانه في الدنيا لأنه باقٍ والباقي لا يُرى بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورُزِقوا أبصارًا باقية، رأوا الباقيَ بالباقي»[٣].

وَهِيَ فِي المِيعَادِ لِلأَبْرَارِ
ثَابِتَةٌ بِالآيِ وَالأَخْبَارِ
وُجُوهُهُمْ إِلَى الإِلهِ نَاظِرَهْ
فِي دَارِ عَدْنٍ مُسْفِرَاتٌ نَاضِرَهْ

وبعد إيراد الحكم العقلي يؤكد الضرير رحمه الله أن رؤية الله في الآخرة للمؤمنين ثابتة في القرآن والحديث، فالله تعالى

---

(١) محمد بن محمد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين. ١٠ أجزاء، مؤسسة التاريخ العربي (صورة عن طبعة المطبعة الميمنية سنة ١٣١١هـ)، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، (ج٢، ص١١٨).

(٢) أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ٢٠٠١م، و ج د، (ص٢٤٨).

(٣) ابن حجر العسقلاني، م.س.، (ج٨، صص٦٠٧ - ٦٠٨).

يقول ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[(١)] علماء أهل السنة أخذوا الآية على ظاهرها، واعتبروا أنه لا حاجة لتأولها من غير مسوغ شرعي. وفي الحديث ورد: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**» الحديث[(٢)]، الرَّسولُ يُثبِتُ في هَذا الحَديثِ الرؤيةَ للهِ تَباركَ وتَعالى في الآخِرَةِ للمُؤمنينَ، أي أنه تعالى لا يكون في جهة ولا مكان، إنما هم في مكانهم في الجنة يرونه رؤية لا يكون عليهم فيها اشتباه، لا يشكّون هل الذي رأوه هو الله أو غيره، كما لا يشك مبصر القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب أن الذي رآه هو القمر. وفي رواية «**لا تَضامُّون في رؤيته**» أي لا تتزاحمون في رؤيته، وفي رواية «**لا تُضَامُونَ**» بِضَم التاءِ أي لا يَلحَقُكُم ضَرَرٌ عِندَ رُؤيَتكم لِرَبكم، حيثُ إنه لا يَحصُلُ بَينَهُم تَدافُع فلا يَلحَقُهُم ضَرر[(٣)].

*** الله خالق كل شيء ومنها أفعال العباد:**

ويقوم أبو الحجاج الضرير في الرد على المعتزلة الذين يقولون إن العبد يخلق فعله، فأفرد بابًا بعنوان: «باب في خلق الأفعال»، يقول رحمه الله:

«وَلَيْسَتِ الأَفْعَالُ خَلْقًا لِلْعِبَادْ
لِأَنَّ بَعْضَهَا لَهُمْ غَيْرُ مُرادْ

---

(١) سورة القيامة، آية (٢٢ - ٢٣).

(٢) الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح الإمام مسلم. ٨ أجزاء، ط١، دار المنهاج جدة ودار طوق النجاة بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٣م، حديث رقم (٢١١)، (ج٢، صص١١٣ - ١١٤).

(٣) الشيخ عبد الله الهرري، عمدة الراغب في مختصر بغية الطالب، (ص٦٤).

وَذَاكَ نَـحْـوُ فِـعْـلِ مَـنْ لَا يَـعْـقِـلُ
كَـالـطِّـفْـلِ وَالـمَـجْـنُـونِ أَوْ مَـنْ يَـغْـفُـلُ
وَكَـيْـفَ يَـخْـلُـقُـونَ مَـا لَـمْ يَـقْـصِـدُوا
تَـكْـوِيْـنَـهُ هَـذَا مُـحَـالٌ يَـبْـعُـدُ
فَـصَـحَّ أَنَّ خَـلْـقَـهَـا لِـلّـهِ
جَـلَّ عَـنِ الأَنْـدَادِ وَالأَشْـبَـاهِ
وَجَـاءَ فِـي وَصْـفِ الـقَـدِيـرِ الـحَـيِّ
بِـأَنَّـهُ خَـالِـقُ كُـلِّ شَـيِّ»[(١)]

هناك قاعدة عند أهل التوحيد، وهي أن من شرط التخليق العلم بما يخلق، يقول القرطبي في تفسير الآية ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾[(٢)]: «ولا بد أن يكون الخالق عالما بما خلقه وما يخلقه»[(٣)].

ويذكر عبد الملك الجويني هذه القاعدة في «الإرشاد»: «ومما تمسَّك به أئمتنا أن قالوا: «الأفعال المحكمة دالة على علم مخترعها، وتصدر من العبد أفعال في غفلته وذهوله، وهي على الاتساق والانتظام، وصفة الإتقان والإحكام، والعبد غير عالم بما يصدر عنه، فيجب أن يكون الصادر منه دالًا على علم مخترعه. وإنما يتقرر ذلك على مذهب أهل الحق،

(١) أبو الحجاج الضرير، م.س.، (ص١٦٨).
(٢) سورة الملك، آية (١٤).
(٣) محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (المعروف بتفسير القرطبي). ٢٠ جزءا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، (ج١٨، ص٢١٤).

الصائرين إلى أنَّ مخترع الأفعال الرب تعالى، وهو عالم بحقائقها»[١].

لذلك أعطى أبو الحجاج مثلا عن الطفل والمجنون والنائم مثلًا، إذا قاموا بفعل أشياء لم يقصدوا أن يفعلوها فإن ذلك لا يقال عنه إنهم خلقوا هذه الأفعال.

والدليل من القرآن ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٢]، فسرها ابن عطية الأندلسي[٣] في تفسيره «المحرر الوجيز»: «واختلف المتأولون في قوله ﴿وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فمذهب جماعة من المفسرين أنَّ (ما) مصدرية، والمعنى: أن الله خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وذلك موافق لمذهب أهل السنة في ذلك»[٤]. وقوله تعالى في آية أخرى ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[٥] فسرها النسفي: «أي خالق الأجسام والأعراض، لا خالق غير الله ولا يستقيم أن يكون له شريك

---

(١) عبد الملك بن عبد الله الجويني المعروف بإمام الحرمين، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق: أسعد تميم، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (ص١٧٥).

(٢) سورة الصافات، آية (٩٦).

(٣) أبو محمد عبد الحق بن أبي بكر غالب بن عبد الرحمٰن (يرجع نسبه إلى) ابن عطية المحاربي، من قبيلة قيس غيلان بن مضر من أهل غرناط، ولد سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م بغرناطة بالأندلس مع بداية عهد دولة المرابطين التي كانت تعرف بدولة الفقهاء وتوفي سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م.

(٤) عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٦ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢ه ٢٠٠١م، (ج٤، ص٤٧٩).

(٥) سورة الرعد، آية (١٦).

في الخلق فلا يكون له شريك في العبادة»(١).

٣- القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م):

ترجمته في الديباج المذهب: «هو أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون، سبتي الدار والميلاد، أندلسي الأصل. كان مولد القاضي عياض بسبتة سنة (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) وتوفي بمراكش سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م).. قال ولده محمد: كان أجدادنا في القديم بالأندلس ثم انتقلوا إلى مدينة فاس وكان لهم استقرار بالقيروان لا أدري قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك وانتقل عمرون إلى سبتة بعد سكنى فاس»(٢).

كان إمام وقته في الحديث، عالمًا بالتفسير، فقيهًا أصوليًا عالمًا بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، حافظًا لمذهب مالك رحمه الله تعالى شاعرًا وخطيبًا بليغًا، طلب العلم في الأندلس سنة (٥٠٧هـ/ ١١١٤م) فتلقى عن ابن حمدين، وأبي الحسين بن سراج، وعن أبي محمد بن عتاب وغيرهم، وأجاز له أبو علي الغساني. وأخذ بالمشرق عن القاضي أبي علي حسين بن محمد الصدفي وغيره، وعني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم، وأخذ عن أبي عبد الله المازري كتب إليه يستجيزه، وأجاز له الشيخ أبو بكر الطرطوشي. ومن

---

(١) عبد الله بن أحمد النسفي أبو البركات، مدارك التنزيل وحقائق التأويل. ٤ أجزاء، ط٢، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، (ج٢، ص٣٥٤).

(٢) إبراهيم بن علي المعروف بابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، جزءان، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، (ج٢، ص٤٦).

شيوخه: القاضي أبو الوليد بن رشد قال صاحب الصلة البشكوالية: وأظنه سمع من ابن رشد [الجد] وقد اجتمع له من الشيوخ بين من سمع منه وبين من أجاز له مائة شيخ، منهم أبو الحجاج الضرير.

وللقاضي عياض التصانيف المفيدة البديعة منها:

- إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم.
- كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ.
- كتاب مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم وضبط الألفاظ والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيفات وضبط أسماء الرجال.
- كتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحرير المسائل.
- كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك.
- كتاب الإعلام بحدود قواعد الإسلام.
- كتاب الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.
- كتاب بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد.
- كتاب الغنية في شيوخه.
- كتاب المعجم في شيوخ بن سكرة. وكتاب نظم البرهان على حجة جزم الأذان.
- كتاب مسألة الأهل المشروط بينهم التزاور.

وكتب كثيرة لم يكملها[١].

٣- (١) عياض والسلطة السياسية الحاكمة (المرابطية والموحدية):

وفي كتاب «شرح الإعلام بحدود قواعد الإسلام» للقباب الفاسي: «عاش القاضي عياض حياته وفيًا للدولة المرابطية، وكان أحد أعلام العلماء الذين طار ذكرهم واشتهر فضلهم في كنف هذه الدولة السنية المجاهدة، فلما لاحت في الأفق دعوة الموحدين، وأصبحوا يتمكنون من مقاليد الحكم بالبلاد المغربية، وقف القاضي عياض معارضًا لسياستهم بادئ الأمر، وامتنع عن بيعتهم، ثم اضطر بعد ذلك إلى مداراتهم إلى أن توفاه الله تعالى بعيدًا عن بلده سبتة، في أحضان الغربة، ولم يمت إلا بعد أن يشهد نهاية دولة المرابطين التي كان وفيًا لها، وميلاد دولة الموحدين الذي كان متوجسًا منها. وينقل القباب عن شهاب الدين الخفاجي (المتوفى سنة ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م): وما قيل إنه قُتل لا أصل له»[٢].

دخل القاضي عياض في طاعة الموحدين، لما ظهر أمرهم والتقى أميرهم في مدينة سلا، فأجزل صلته وأوجب بره، ثم رحل إلى مراكش حيث توفي بها غريبًا عن وطنه[٣].

---

(١) نفسه، (ج٢، صص٤٧ - ٤٩).

(٢) أحمد بن محمد المعروف بأبي العباس القباب الفاسي، شرح كتاب الإعلام بقواعد الإسلام، ط١، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث الرابطة المحمدية للعلماء، لأبي العباس أحمد بن محمد المعروف بالقباب الفاسي، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م، (ج١، صص١٧٣ - ١٧٤).

(٣) ابن فرحون، م.س.، (ج٢، ص٤٨).

وكان القاضي عياض جابه الموحدين عندما قاموا بغزو سبتة، ثم قاموا بمبايعة أميرهم لما استفحل أمره، والتقاه القاضي عياض في مدينة سلا. لكن لما حصلت الثورة التي قام بها محمد بن هود الناصري المعروف بالماسي، انتفض أهل سبتة مرة أخرى ضد الموحدين. وبعد هزيمة الماسي سنة (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، ندم أهل سبتة على ما فعلوه، وكتبوا بالبيعة إلى عبد المؤمن تائبين مما قاموا به، فعفا عنهم وعن القاضي عياض[١].

ويؤخذ من هذه الأخبار أن القاضي عياض كان وفيًا للدولة المرابطية، ثم بايع عبد المؤمن في نهاية الأمر قبل وفاته وبعد نهاية أمر المرابطين بمقتل أميرهم.

ولكن ما يهمنا في بحثنا أن القاضي عياض الأشعري العقيدة كان يدرس هذه العقيدة، وكانت تسري في منهاجه في كل المصنفات التي صنفها، وسنأخذ بعض الشواهد من أقواله التي سطرها في كتبه المختلفة، بالعناوين التي حددناها لإثبات أن عقيدته عقيدة التنزيه، واستمرارًا للشاهد الذي نريده، أن الأشعرية كانت تنشر تعاليمها في الدولة المرابطية مستمرة منذ الفتوح التي قام بها عبد الله بن ياسين، وستستمر بفضل هؤلاء العلماء، الذين جاؤوا بعدهم بانسياب طبيعي من غير أن يكون فيه طفرة غير منسجمة مع حال المجتمع.

سنعتمد في الاستدلال من أقوال القاضي عياض من مصنفاته مثل «الإعلام بحدود قواعد الإسلام»، وهو كتاب صنفه في

---

(١) الناصري، م.س.، (ج١، صص٢٥٣).

قواعد العقائد، وقد وجدنا شرحًا لهذا الكتاب، صاحبه أحمد ابن محمد المعروف بأبي العباس القباب الفاسي، وكذلك من شرحه لصحيح مسلم في «إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم»، وسنورد ذلك من غير إطالة بحسب النقاط التي حددناها في الرد على عقائد المجسمة والمعتزلة.

٣- (٢) في الرد على المجسمة:

*** الله تعالى ليس جسما:**

يتبع القاضي عياض مصطلحات علماء التوحيد في وصفه لله تعالى بقوله: (واحد غير منقسم في ذاته)[(١)]، وقد شرحها القباب الفاسي بقوله: «قال الأصوليون: يجب اعتقاد أنه سبحانه واحد بالذات، واحد بالصفات، واحد بالأفعال؛ ومعنى كونه واحدًا بالذات أنه لا ينقسم ولا يتبعض ولا يتجزأ، لأن هذا كله من صفات الأجسام، إذ التجزؤ والانقسام دليل الحدوث، لأن الجسم المركب من لحم وعظم وعصب مفتقرٌ في أصل وجوده إلى مركِّب يركِّبُه، وذلك الافتقار لازم الحدوث، والقدم ينافي الحدوث، جلَّ من ليس كمثله شيء عن صفات المخلوقين»[(٢)].

فالقاضي عياض ينفي الجسمية عن الله تعالى، باستعمال عبارات الأشاعرة التي شهروا بها، كمصطلح الجوهر والعرض، فيؤكد أنه تعالى «ليس بجوهر ولا جسم، ولا على

---

(١) عياض بن موسى اليحصبي السبتي أبو الفضل، الإعلام بحدود قواعد الإسلام، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، (ص٣٣).
(٢) القباب الفاسي، م.س.، (ج١، ص٢٦٠).

صورة ولا شكل، ولا له شبيه ولا مثيل»[١].

*** الله تعالى موجود بلا مكان:**

قوله (وأنه لا يحويه مكان في سماواته ولا أرضه، بل هو كما كان قبل خلق المكان)[٢]، يقول القباب الفاسي شارحا: «فقد كان الله ولا شيء معه كما جاء في الحديث، فهو الآن كما كان، إذ لا يصح عليه التغير ولا الانتقال»[٣] وبتعبير آخر: كان موجودا بلا مكان قبل خلق الأماكن، وبعد أن خلق الأماكن فهو الآن كما عليه كان بلا مكان، لأنه سبحانه لا يحتاجها، فهو تعالى ليس جسمًا يتحيز. يقول عبد القاهر البغدادي التميمي في «أصول الدين»: «ودليلنا على أنه سبحانه ليس في مكان قيام الدلالة على أنه ليس بجوهر ولا جسم ولا ذي حد ونهاية»[٤].أما الدليل من الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، قال رسول الله ﷺ: «**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ**» الحديث[٥].

*** تأويل المتشابه:**

يشرح عياض كلمة «يد» الواردة في الآيات والأحاديث على أنها صفة لله تعالى «ليست بجارحة ولا عضو ولا لها كيفية»[٦].

---

(١) عياض اليحصبي، الإعلام بحدود قواعد الإسلام، (ص٣٦).
(٢) نفس المصدر والصحيفة.
(٣) القباب الفاسي، م.س.، (ج١، ص٢٧٧).
(٤) عبد القاهر بن طاهر التميمي البغدادي، أصول الدين. ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، (ص٩٩).
(٥) البخاري، الجامع الصحيح. رقم الحديث (٣١٩١)، (ج٤، صص ١٠٥ - ١٠٦).
(٦) عياض اليحصبي، إكمال المعلم شرح صحيح مسلم. ٨ أجزاء، ط١، دار=

٣- (٣) في الرد على المعتزلة:

*** رؤية الله تعالى في الآخرة:**

وقول عياض في «الإعلام بحدود قواعد الإسلام»: (وأن المؤمنين يرون الله عز وجل بأبصارهم في الآخرة)[١]، شرحه أبو العباس القباب الفاسي بقوله: «هذا أيضًا مما أثبته أهل السنة وأنكره أهل البدع، وأقوى دليل لأهل السنة فيه سؤال موسى إياه، ومحال كل المحال أن يكون الكليم على علو مرتبته في الرسالة والقرب يجهل من صفات ربه ما يجوز عليه حتى يسأل منه محالًا»[٢]. وقد ذكرنا الدليل على جواز حصول ذلك من القرآن والحديث، وهذا كله من أدلة أهل السنة.

*** الله خالق كل شيء ومنها أفعال العباد:**

ويشرح القباب الفاسي هذه العبارة من «الإعلام» (وأنه مريد لكل كائن من خير أو شر، ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن)[٣]: «هذا مذهب أهل الحق، أن جميع الكائنات بمراد الله سبحانه، لأن الملك كله له، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، وذهبت طوائف من أهل الزيغ والضلال إلى أن الله سبحانه وتعالى لا يخلق الشر، ولا يخلق إلا الخير، فأثبتوا مع الله خالقًا غيره، تعالى الله عن ذلك، وهذا هو مذهب

= الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، (ج٨، ص٣١٩).

(١) عياض اليحصبي، الإعلام بحدود قواعد الإسلام، (ص٤١).

(٢) القباب الفاسي، م.س.، (ج١، ص٣٠٨).

(٣) عياض اليحصبي، الإعلام بحدود قواعد الإسلام، (ص٣٤).

المجوس الذين يقولون بإلهين، إله يخلق الخير وإله يخلق الشر»[١]، قال رسول الله ﷺ: «**القدرية مجوس هذه الأمة**» الحديث[٢].

٤- أبو عمرو عثمان السلالجي (المتوفى سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م):

اعتُبر أبو عمرو السلالجي إمام أهل المغرب في علم العقيدة. عزم على الرحيل إلى المشرق لتلقي المزيد من علوم العقائد، فقصد بجاية ليبحر منها إلى وجهته، فقام الوالي بسجن أولئك الذين يريدون السفر إلى المشرق، فهرب ليلًا من السجن مع صاحب له ورجع إلى فاس، فبلغه الخبر أن كل المسجونين الذين كان معهم قتلوا.

وبنو السلالجي، من أهل الثروة والعلم، من العرب القيسيين، سمي بالسلالجي نسبة لجبل سليلجو حيث كان سكناهم، «وكان يتردد إليه من فاس. وهو الذي أنقذ أهل فاس من التجسيم، وعنه نشأ في المغرب علم أصول الدين. وله «البرهانية» وضعها لامرأة أندلسية فقيهة اسمها «خيرونة» وهي من الصالحات، توفي بفاس سنة ٥٦٤هـ» [١١٦٩م][٣].

ويورد صاحب «التشوف» عن زهده قصة تظهر علو مرتبته، فقال: «وحدثني أحمد بن عيسى الأنصاري، قال: حدثني علي البرزالي خديم أبي عمرو قال: استدعيت أبا عمرو إلى منزلي

(١) القباب الفاسي، م.س.، (ج١، ص٢٦٥).
(٢) أبو داود السجستاني، سنن أبي داود، جزءان، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، (ج٢، ص٦٣٤).
(٣) إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، (ص٤٥).

وصنعت له طعامًا، فقدمت إليه طبق عنب، فأخذ منه حبة، فوضعها في فيه ساعة ثم أخرجها، وقلت له: كل، فأبى، فأقسمت عليه، فقال لي: لا تقسم علي، فلما رآني متغيرًا قال لي: من أين جاءك هذا العنب؟ فقلت له: أهداه لي بعض جيراني، فقال لي: ما حرفته؟ فقلت له خمار، يشتري العنب ويعصره ويبيعه مسكرًا. ثم قلت له: لم سألتني عن هذا؟ فقال لي: لما أخذت حبة من هذا العنب ووضعتها بين أسناني وجدتها أشد من الحجر، فأخرجتها من فمي ورددتها إلى الطبق»(١).

تلقى كتاب «التقريب والإرشاد» للجويني على العالم الصوفي المشهور بابن حرزهم(٢)، «يقول السلالجي: فأخذته عليه فكان يبصرني في مواضع منه، فما أكملته بالنظر عليه حتى استظهرته حفظا»(٣).

ثم لازم أبا الحسن علي بن أحمد اللخمي المعروف بابن الإشبيلي(٤)، فتلقى منه كتاب «الإرشاد» وفتح عليه ما انغلق

---

(١) ابن الزيات التادلي، م.س.، (ص١٣٤).

(٢) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم الفاسي: من ولد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه الشيخ الفقيه المحدث الحافظ الفاضل المحقق العالم العامل أخذ عن عمه أبي محمَّد صالح وابن العربي وغيرهما وعنه أبو يعزى يلنور وأبو مدين الغوث وانتفعوا به، توفي سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م. انظر: مخلوف، م.س.، (ج١، ص٢٣٤).

(٣) ابن الزيات التادلي، م.س.، (ص١٣٢).

(٤) ترجمته في كتاب الذيل والتكملة: علي بن محمد بن خليد اللخمي، سكن المرية ثم مراكش، أبو الحسن ابن الإشبيلي؛ أخذ عن أبي القاسم بن ورد واختص به؛ أخذ عنه أبو عمرو عثمان السلالجي وأبو القاسم عبد الرحيم=

عليه من معانيه. ثم صار يعلم في فاس واشتهر في تعليم العربية والنحو، فدُعي إلى مراكش ليعلم النحو لأبناء بعض رؤساء الموحدين(١). وصار مقربًا من السلطة الموحدية، بسبب شيخه اللخمي. «لذلك رأى أن يقدمه إلى السلطان ليثبت له كفاءته المهنية، وإخلاصه لمبادئ وأوامر دولته الفتية. ولكنه رجع إلى فاس للتفرغ للعبادة، وتدريس علوم العقيدة فيها»(٢).

ويَعتبر أحدُ الباحثين السلالجي مؤسس «المدرسة الأشعرية الصوفية بالمغرب الأقصى.. ولم يصلنا من أعمال ومؤلفات السلالجي غير العقيدة البرهانية»(٣).

ويُذكر أن كتاب «العقيدة البرهانية» كان بسبب امرأة تسمى «خيرونة»، وكانت من العابدات الزاهدات، فطلبت من أبي عمرو أن يكتب لها شيئًا من أمور الاعتقاد لتدرسه، فكان يكتب لها فصلا فصلا فتحفظه، فكان ذلك دأبها، فكتبتها وكُتبت عنها، ولُقّبت بـ«العقيدة البرهانية». قال اليفرني أحد

= ابن الملجوم؛ وكان حافظًا للفقه نافذًا في أصوله، متحققًا بعلم الكلام، وتوفي بمراكش سنة سبع وستين وخمسمائة (١١٧١م). محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، (ص٣٠٤).

(١) ابن الزيات التادلي، م.س.، (ص١٣٣).

(٢) جمال علال البختي، في تحقيقه لكتاب المباحث العقلية في شرح معاني العقيدة البرهانية لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن اليفرني (ت٧٣٤هـ/١٣٣٤م). ٣ أجزاء، ط١، منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية التابع للرابطة المحمدية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ج١، صص٢٥ - ٢٦).

(٣) نفسه، (ج١، صص٣١ - ٣٢).

شراح «البرهانية» أن تلميذ السلالجي أبا الحسن بن مؤمن، الذي قرأ عليه علم التوحيد، وعلم الحديث، والفقه، وغيرها من العلوم، أراد أن يرتبها، ويقدمها بصورة كتاب مصحوبًا بخطبة لينشر، «قال: فشاورت الشيخ أبا عمرو في ذلك فمنعني منه، وقال: لم أتعرض فيها أن تكون تأليفًا يُكتب ويَشتهر، وإنما كتبتها لخيرونة خاصة، فشاء الله أن تشيع، فاتركها كما هي، ولا تزد فيها شيئا، فتخرج عما قُصد بها»[1].

ويذكر البختي أن العقيدة البرهانية «لوجازتها واتفاقها مع الاتجاه العقدي الرسمي للمغاربة كان لها بالغ الأثر في سرعة انتشارها بالأوساط الخاصة والعامة بالمغرب.. لكونها تعطي تصورًا عامًا ودقيقًا عن أصول وأركان العقيدة، بحيث يخرج قارئها بنظرة وافية عما يجب أن يعتقده في حق الله تعالى وصفاته ورسله والأخبار الغيبية المرتبطة بالرسالة»[2].

٤- (١) نماذج من آراء السلالجي العقدية:

المدقق في عبارات العقيدة البرهانية يجد أنها تختصر قواعد العقيدة الأشعرية، وقد شرحها كثير من العلماء، وبسبب اختصارها كانت سهلة الحفظ للمبتدئين وللصغار كما للكبار. وتتميز أيضًا بأنها نصوص في فصول قصيرة، كل فصل منها

---

(١) علي بن عبد الرحمٰن اليفرني الطنجي أبو الحسن، المباحث العقلية في شرح العقيدة البرهانية. تحقيق وتقديم جمال علال البختي، ٣ أجزاء، ط١، منشورات الرابطة المحمدية مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، (ج١، صص١٨٥ - ١٨٧).

(٢) جمال علال البختي، المباحث العقلية..، م.س.، (ج١، صص٣٥ - ٣٦).

يحتوي على قاعدة ودليلها العقلي، فإذا فهمها المتعلم، ينتقل معه إلى قاعدة أخرى مبنية على ما تلقاه، وهكذا يصل المتعلم إلى بناء عقدي متين بالأدلة العقلية.

ولما عمدنا في بحثنا هذا أخذ عينات من كلام بعض مشاهير العلماء في الغرب الإسلامي في العقيدة الأشعرية، والسلالجي واحد منهم في العصر الموحدي، فسنقوم بعرض بعض ما قاله في الرد على المجسمة والمعتزلة.

٤- (٢) الرد على المجسمة:

*** في تنزيه الله تعالى عن الحيز والجهة:**

يتعرض السلالجي في متن «البرهانية» إلى مسألة عدم مشابهة الله تعالى لمخلوقاته، فيقول: «فصل، والدليل على أنه تعالى مخالف للحوادث: هو أن المثلين: كل موجودين متساويين في جميع صفات النفس، والربُّ تعالى مقدس عن جميع سمات الجواهر والأعراض، فوجب أن يكون مخالفًا لها»[١]. يعني أن الله تعالى منزه عن أن يتصف بصفات الجواهر والأعراض لأن الجواهر والأعراض، من خَلْق الله تعالى فيستحيل أن يشابه مخلوقاته، فلو كان يشبه مخلوقاته لكان له أمثال لا تحصى.

ثم يفسر ماهية الجوهر والعرض، فيقول: «وذلك أن الجوهر حقيقته: المتحيِّز، والمتحيز يجوز عليه الاختصاص ببعض الجهات والمحاذيات، وذلك يدل على حدوثه، والموصوف

---

(١) عثمان السلالجي، العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية. ط١، تحقيق: نزار حماد، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (ص٢٥).

بالقدم لا يتصف بما يدل على حدوثه»[١]. لأن المتحيز في جهة ومكان لابد أن يكون جسما له حجم، يعني لابد أن يكون هناك مخصِّص خصَّه بهذا الحجم، يعني هو محدَث مخلوق كان معدومًا ثم ظهر للوجود، والمحدَث لا يكون قديمًا أزليًا، لأن الأزلي واحد أحد، فرد صمد، لا أزلي سواه، وهو الإله المعبود بحق الذي لم يسبق وجوده عدم.

ويؤكد السلالجي أن الأعراض، يعني صفات الأجسام، لا تقوم بنفسها، بل إن قيامها بالجواهر والأجسام، فهي حادثة أيضا، فيقول: «فإن الجوهر هو القابل للأعراض، وذلك يدل على حدوثه، والموصوف بالقدم لا يتصف بما يدل على حدوثه. وأيضا، فإن الجوهر يجوز عليه التأليف والتركيب، وذلك يدل على حدوثه، والموصوف بالقدم لا يتصف بما يدل على حدوثه. وأما العَرَض، فحقيقته: ما يقوم بالجوهر، وذلك يدل على افتقاره إلى محل، والرب تعالى متعالٍ عن الافتقار على الإطلاق. . [لأن] الرب تعالى قديم، وما ثبت قدمه استحال عدمه»[٢].

وبعد أن ذكر البراهين العقلية على استحالة تحيز الإله في جهة ومكان، قال مقرِرًا: «فتقرر بمجموع ما ذكرناه تقدس الرب تبارك وتعالى عن سمات الحوادث، فوجب أن يكون مخالفًا لها»[٣].

في هذه السطور القليلة، برهان قطعيٌّ بكلام قليل يثبت فيه

---

(١) نفسه، (صص٢٥ - ٢٦).
(٢) نفسه، (ص٢٦).
(٣) نفسه، (ص٢٦).

أن الله تعالى لا يشبه خلقه. فأثبت رحمه الله ذلك بما تعارف عليه أهل السنة والجماعة أن الله تعالى موصوف بأنه مخالف للحوادث، وهذا مأخوذ من قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]. ولا نشك بتأثره فيما تلقاه من كتاب «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد» لإمام الحرمين الجويني الذي قال فيه: من صفات القديم تعالى مخالفته للحوادث، فالرب تعالى لا يشبه شيئًا من الحوادث، ولا يشبهه شيء منها[2].

وقد اعتمد في الدليل العقلي على أمرين:

- قول أبي المعالي الجويني: «ولا بد في صدر هذا الفصل من التنبيه على حقيقة المثلين والخلافين. فالمثلان كل موجودين سدَّ أحدهما مسدَّ الآخر»[3].
- والأمر الثاني: إن كل الحادثات لا تخرج عن كونها جواهر وأعراض، بعبارة أخرى أجسام وصفات الأجسام، قال الراغب الأصبهاني في «مفردات القرآن»: «الجسم: ماله طول وعرض وعمق، ولا تَخْرُج أجزاء الجِسْمِ عن كَونِها أَجسامًا وإِنْ قُطِعَ وجُزِّئَ»[4]، وقال مرتضى الزبيدي

---

(١) سورة الشورى: الآية (١١).

(٢) عبد الملك بن عبد الله الجويني الملقب بأبي المعالي والمعروف بإمام الحرمين، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. تحقيق أسعد تميم، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، (ص٥٤).

(٣) نفسه. (ص٥٧).

(٤) الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهاني، المفردات في غريب القرآن. دار قهرمان للطباعة والنشر والتوزيع، اسطنبول، ١٩٨٦، (الجيم مع السين)، (ص١٣١).

في «تاج العروس من جواهر القاموس»: «الجِسْمُ: جَماعَةُ البَدَنِ أو الأَعْضَاءِ»[(١)].

وقد قام شراح «البرهانية»، بتوسيع المقال وتفصيله لشرح العبارات المختصرة فيها، منهم: مظفر بن عبد الله المعروف بالمقترح (ت ٦١٢هـ/ ١٢١٥م)، وعلي بن عبد الرحمٰن اليفرني (ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٤م)، وسعيد بن محمد العقباني (ت ٨١١هـ/ ١٤٠٨م)، وغيرهم، وكلٌ له أسلوبه في شرح مبهمات هذا المتن العقدي. وعلى سبيل المثال، يقوم العقباني في تبيان معاني المتحيز وغير المتحيز: «فالمتحيز: ما يكون ذاته تشغل فراغًا وتعمره بحيث تمنع غيرها أن يشغل ذلك الفراغ مثل الحجر».

ثم قسم المتحيز إلى قسمين:

- «إما أن يكون في الدقة والصغر بحيث لا يمكن أن ينقسم أصلا، فهو الذي نسميه «الجوهر الفرد».
- أو يكون بحيث يمكن انقسامه، فهو الذي نسميه «الجسم».

أما غير المتحيز فيقسمه إلى قسمين:

- إما أن يحتاج إلى جسم أو جوهر يوجد فيه، ولا يمكن وجوده إلا في الجسم أو الجوهر.
- أو لا يحتاج إليهما.

---

(١) محمد بن محمد الحسيني المعروف بمرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس. ط٢، دار الهداية، الكويت، (ج٣١، ص٤٠٤). مادة (ج س م).

فإن احتاج فهو الذي نسميه «العرض»، مثل العلم الحادث، واللون، والحركة، والسكون. وإنْ لم يحتجْ إلى جسمٍ ولا جوهرٍ فهو الله تعالى وصفاته»[(١)].

يفهم من ذلك أن الله تعالى قائم بنفسه لا يحتاج إلى شيء من مخلوقاته، فهو غني عن الحَيّز والمكان والجهة. يعني كان سبحانه موجوًدا قبل خلق الأماكن بلا مكان، وبعد أن خلق المكان فهو كما كان بلا مكان.

ويقول العقباني: «وبهذا تعلم أنه سبحانه ليس على العرش ولا في مكان»[(٢)].

٤- (٣) الرد على المعتزلة:

*** الله تعالى موصوف بصفات أزلية أبدية:**

مما اتفق عليه المعتزلة، نفيهم صفات البارئ جل جلاله، حتى قالوا: انه ليس له سبحانه علم، ولا قدرة، ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر، وأنه لم يكن له في الأزل كلام[(٣)]، وغير ذلك.. وقد تكلم السلالجي في البرهانية عن ثبوت الصفات لله تعالى مبيِّنًا اعتقاد أهل السنة والجماعة في ذلك، خلافا لما ادعته المعتزلة، فقال بعد أن ساق الأدلة العقلية: «فثبت من ذلك أن الباري عز وجل حيٌّ بحياة قديمة، سميع بسمع قديم، عالم بعلم قديم، قادر بقدرة قديمة، سميع بسمع قديم، بصير

(١) سعيد بن محمد العقباني أبو عمرو، شرح العقيدة البرهانية. ط١، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (صص٤٦ - ٤٧).

(٢) نفسه. (ص٦٦).

(٣) أبو المظفر الإسفراييني، م.س.، (ص٦٣).

ببصر قديم، متكلم بكلام قديم»[١].

*** مسألة رؤية الله تعالى في الآخرة:**

اعتمد الأشاعرة قاعدة: أن علة الرؤية الوجود، فقال السلالجي في متنه: «فإذا رُئِيَ[٢] موجود لزم تجويز رؤية كل موجود»[٣]. شرحها أبو الحسن اليفرني: «اعلم أن جواز الرؤية.. صح إثباته من العقل والسمع معًا. أما الدليل العقلي: فهو دليل «الوجود». وهو الذي استدل به الشيخ أبو عمرو، وعليه اعتماد أكثر أئمة أهل السنة رضي الله عنهم ورحمهم، وتقريره أن يقال: الباري تعالى موجود، وكل موجود يصح أن يُرى، فالباري تعالى يصح أن يُرى»[٤].

٤- (٤) بيان أن عقيدة الأشعري هي عقيدة السلف:

قال في متن «البرهانية: «فهذه عقيدة أهل السنة والجماعة في سبيل الإيجاز، وما لا يسع أحدًا من العقلاء تركه إلا بعد إحاطة العلم بها، تلقّاها الخَلَفُ عن السَّلَف»[٥]. وإذا كان السلالجي كما قال عنه صاحب «بيوتات فاس الكبرى»: «منقذ

---

(١) أبو عمرو السلالجي، م س.، (ص٢٧).

(٢) وردت هذه الكلمة بهذا التشكيل «رِيءَ» في طبعة مؤسسة المعارف للطباعة والنشر بتحقيق نزار حمادي، (ص٢٩). ووردت بتشكيل «رُئِيَ» في مطبوعة مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، طبعة دار الأمان، بتحقيق جمال علال البختي، (ج٢، ص٩٧٧).

(٣) أبو عمرو السلالجي، م.س.، (ص٢٩).

(٤) أبو الحسن اليفرني، م.س.، (ج٢، ص٩٧٧).

(٥) أبو عمرو السلالجي، م.س.، (ص٣٢).

أهل فاس من التجسيم»[١]، فهذا تأكيد لفهم علماء أهل السنة والجماعة أن عقيدة سلف الأمة ليست عقيدة التجسيم. ومن ناحية أخرى فإن السلالجي لم يعرف عنه أنه صنف غير «البرهانية»، وهذا فيه إشارة أخرى أنه كان يمضي وقته في التعليم وفي تصحيح اعتقاد أفراد مجتمعه، وهذا مثال العالم العامل رحمه الله.

٥- أبو الحسن علي ابن خمير السبتي (المتوفى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م):

ترجمته في قلائد الجمان: «عليُّ بن أحمد بن خمير أبو الحسن السبتيّ، كان فقيهًا مالكيًا، شاعرًا مُفْلِقًا، أصوليًا عالِمًا، أديبًا لغويًا؛ توفي سنة أربع عشرة وستمائة [١٢١٧م]. أنشدني أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي بن عبد الواحد الأوسي السبتي بحلب المحروسة؛ قال: أنشدني الشيخ أبو الحسن علي بن خمير لنفسه: [من الطويل]

إذا شئت أن تبكي فريدًا من الهوى
فَتَنْدَبُه بَعْدَ النَّبيّ المُكرَّمِ
فحامِلُ علمٍ عالمٌ متورِّعٌ
حريصٌ على التَّحريضِ للمتعلِّمِ
وحاكِمُ عدْلٍ بالشَّريعة قائِمٌ
يقول بحكمِ اللهِ لا بالتحكُّمِ
وصاحِبُ مالٍ فاضلٌ متفضِّلٌ
يَجودُ به حقًا على كلِّ مُعْدَمِ

(١) إسماعيل بن الأحمر، م.س.، (ص٤٥).

وسـاهِـرُ لـيـلٍ شـافِـعٌ مـتـشـفِّـعٌ
بـكـلِّ نَـؤومٍ شـابـعٍ مُـتَـبَـشِّـمِ
وصـاحـبُ سَـيـفٍ لـلـعـدوِّ مُـرابِـطٌ
يَـسُـدُّ بِـه فـي كُـلِّ ثَـغْـرٍ مُـثَـلَّـمِ
هُـمْ خَـمْـسَـةٌ يُـبْـكَـوْنَ حَـقًّـا وَغَـيْـرُهُـم
إِلَـى حَيْـثُ أَلْقَـتْ حَـمْـلَهَـا أُمُّ قَشْعَـمِ»[١]

أحببت أن أنقل في ترجمته هذه الأبيات، التي تدل على شخصيةٍ من صفاتها الحزم والحسم، مما يعزز صورة العالم العامل الورع الفهيم، الذي يضبط آراءه بالقواعد الشرعية، وأساسها علم العقيدة.

٥- (١) دفاعه عن علم الكلام الأشعري:

ومن خلال مصنفه «مقدمات المراشد إلى علم العقائد»، استفاض ابن خمير في الدفاع عن علم الكلام، بحمية المدافع الحريص عن حصن حصين بوجه الخصوم، فاستعمل أسلوب المتكلمين الذين يرشدون تلاميذهم في أسلوب الحجاج والبيان للرد على أهل الأهواء، بطريقتهم التي فيها: إن قيل: كذا، فالجواب: كذا. وهذا أمر يبرع فيه العالم المتشبث بتوجهه العقدي، الذي صرح فيه ابتداء بالدفاع عن الكلام بالرد على المعترضين، أنه لم يكن في زمن الرسول ﷺ، ولا في زمن

---

(١) المبارك بن الشعار الموصلي المعروف بكمال الدين أبي البركات، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بـ«عقود الجمان في شعراء هذا الزمان. ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، (ج٤، ص٢٨٠).

الصحابة رضوان الله عليهم، ففي زمن الرسول عليه الصلاة والسلام «فلا حاجة لأحد في ذلك الوقت إلى هذا العلم ولا إلى سواه، قال تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[1].. وأما الصحابة بعده عليهم السلام فلا يخلو أن تقول: إنهم كانوا بعدما علمهم الله الكتاب والحكمة عالمين بدقائق التوحيد وحقائقه أم غير عالمين؟.

فإن قلت: إنهم كانوا غير عالمين فلقد تفوهت بعظيمة [ما ارتكبها إلا أهل الأهواء].. وإن قلت: إنهم يعلمون ذلك إلا أنهم لم يقعدوا لتدريسه، ولا تكلموا في الجوهر والعرض، ولا في العلل، والأحوال، والجزء، والطفرة، وما صنفه المتكلمون من دقيق الكلام وهذه غايتك. فكذلك كان ذلك، لأنهم كانوا يعلمون ذلك على أتم الوجوه.. فلم يكن لهم حاجة إلى ذلك، لأنهم تهمموا بجر الجيوش، وسد الثغور، وتعليم الأحكام الشرعية، والنظر في تفاصيل الحلال والحرام، وشروح الكتاب والسنة»[2].

ويحاجج خصمه الذي ينكر علم الكلام فيقول: «ثم أسألك: أكان بأيدي الصحابة رضي الله عنهم شيء مما بأيدينا من الدواوين في فنون علوم الشريعة ديوان أو مدرس يدرسها،

---

(١) سورة الجمعة، الآية (٢).

(٢) علي بن أحمد بن خمير السبتي أبو الحسن، مقدمات المراشد إلى علم العقائد في دفع شبهات المبطلين والملحدين، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، (ص٣٠).

ككتب الحديث والمدرسين له، وكتب القراآت والناقلين لها، وكتب الفقه والمدرسين لها، وكتب الإعراب والمعربين لها، وكتب اللغة والناقلين لها، وما يمت إلى الشريعة من أنواع العلوم غير ما ذكرناه؟ فإن قال: إنه كان ذلك فقد باهت. وإن قال: إنه لم يكن قلنا [لإقامة الحجة عليه]: فتعال نطرح كل ما بأيدينا من الكتب ونطرد الأئمة ونهدم المدارس على مذهبك فإنها بدع وافتيات، لأن كل ما ذكرناه لم يكن في عهد الرسول ﷺ ولا في زمن الصحابة بعده»، ويؤكد ذلك أن هذه المؤلفات لو لم تصنف لظهر الخلل وتفاقم لأنه ليس كل واحد من الناس مجتهدًا[1].

ويستمر في كلامه مدافعا عن أهمية علم الكلام للدفاع عن دين الله تعالى، ومتى ظهرت الحاجة إليه، فيذكر الأحوال التي مرت بها الأمة من الفتن التي حصلت عند وقعة صفين والجمل، ثم ظهور الخوارج والروافض، ثم ظهور فتنة القدرية. إلى أن بدأ أمر المعتزلة في الظهور زمن التابعين ممن اعتزلوا مجلس الحسن البصري عندما تكلم في إثبات رؤية الباري تعالى في الآخرة. ثم لم يزل الأمر يتفاقم والخطب يتلاطم، إلى أن دخل في دين الله تعالى غلف الأعاجم، وظهرت الحركات التي تمردت وسفكت الدماء لإظهار البدع كالخوارج والقرامطة والإسماعيلية وغيرهم من أهل الأهواء، وظهر ما قاله رسول الله ﷺ في ظهور الفرق الاثنتين والسبعين؛ وكان علماء الأمة رضي الله عنهم قبل انتشار البدع يدافعون عن الدين بطرائق شتى. «فلما تمكن إظهار هذه

---

(١) نفسه، (ص٣١).

الأهواء ودونت ونصب لها المدارس، وركنوا إلى ولاة جهلة فحموهم حتى ضُرب الإمام أحمد بن حنبل بالسوط لأن يقول بخلق القرآن»(١).

بعد كل هذه الوقائع، صار من الواجب «على أئمة السنة بنظرهم السديد أن يدونوا الحق ويدرسوه، إذ هم الخلف العدول الذين شهد لهم الرسول ﷺ بالعدالة قبل وجودهم، ويحموا دين الله بالحجج القاطعة»(٢).

ويصل ابن خمير بنقاشه وحجاجه ليؤكد أهمية ترتيب قواعد العقيدة، وأنها الأساس الذي يبنى عليه علم فروع الفقه، فقال: «وكان أول من تمكن من تأليفها ونشرها في عقب المائة الثالثة ودرسها الشيخ أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه، وهو من أولاد أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ ولهذا سمي أصحابه «الأشعرية».. وأن علم المعاملة فرع عن العلم بالتوحيد والنبوة اللذين صحت بهما المعاملة، ولا يصح أن يتفقه في فروع الدين من لا يعلم أصله»(٣).

بعد هذه المعلومات التي طرحناها لبيان المنهج الأشعري لابن خمير السبتي، نعرض شيئًا من مواقفه وأقواله في الرد على المشبهة المجسمة والقدرية.

٥- (٢) الرد على المجسمة في نفي الجسمية عن الله وتنزيهه عن المكان:

يعتمد ابن خمير مجموعة من الأدلة العقلية المتتابعة للوصول

(١) نفسه، (ص٣٣).
(٢) نفس المصدر والصحيفة.
(٣) نفسه، (ص٣٥).

إلى الرد على المشبهة، في تأكيد أن العالم جواهر وأعراض، بعد الاستدلال على حدوثها، وأن الله تعالى خالق هذه الجواهر والأعراض ولا يشبه شيئًا منها، فالمخلوقات حادثة وموجِدها قديم يستحيل عليه الحدوث، ولا مثيل له ولا شبيه، وهو تعالى «قائم بنفسه» وهو الاستغناء المحض.. فالبارئ تعالى مستقل بذاته، مستغن عن محل يحله ومكان يقله، وتقدير مكان متوهم له، ومخصص يقتضيه(١).

ثم على قاعدة فهم الجواهر والأعراض يصل إلى نفي الشبيه عن الله تعالى، «والعالم بأسره جواهر وأعراض تقوم بالجواهر، ثم إذا تألفت الجواهر سُميت أجسامًا لائتلافها. فأما الجوهر فهو مفتقِر إلى مخصِّص وفاعل يفعلُه ويفعلُ فيه أعراضَه.. وأما الجسم فهو المؤتلِف من جوهرين فصاعدًا، وحكمه حكم الجواهر، إلا أنه إذا ائتلف وُصِف مجموعه بطول وعرض وعمق وكبر وصغر، إلى غير ذلك»(٢).

ولفهم هذا الأمر فإن الأشاعرة أثبتوا حجمًا وصفوه بأنه جزءٌ بلغَ من القلة أنه لا يتجزأ يسمى الجوهر الفرد، ثم اعتبروا أن الجسم ما تألف من جوهرين فأكثر، وعند بعضهم ما له طول وعرض وعمق، فهو الحجم الذي له أبعاد، ويأخذ حيّزًا من الفراغ، هذا الحيز يشغل مكانه ولا يشغله غيره معه.

«وأما العرض فهو المعنى القائم بالجوهر»(٣)، أي صفة الجسم من لون وطعم ورائحة وحركة وسكون فهي لا تقوم بنفسها، إنما

---

(١) نفسه، (ص١٠١).
(٢) نفسه، (ص١٠٢).
(٣) نفسه، (ص١٠٢).

قيامها بالأجسام، فهي صفاتها والمعاني الحالة بها.

«ثم إن الجواهر متماثلة لأنفسها في التحيز وشغل الجهات.. وأما الأعراض فهي مختلفة الأجناس والأنواع».. [ويتابع القول رحمه الله] «ولو لم أفصل لك هذا التفصيل في الجواهر والأعراض، لاكتفيت في نفي المماثلة بما قدمت لك من الكلام في قطب الحقيقة التي هي وجوب الوجود الأزلي المعبر عنه بالقدم والبقاء، فيا بُعْدَ الجواز من الوجوب، والقدم من الحدوث. فهذه - رحمك الله - مقدمة يستغني بها المسترشد عن معالجة الكلام مع المجسمة في ادعاء الجسمية.. تعالى عن ذلك من ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾[(١)](٢)».

٥- (٣) تأويل المتشابه والرد على المشبهة:

ومشكلة أولئك المشبهة أنهم قاسوا الخالق على المخلوق، فإنهم رأوا المخلوق المحدث له طول وعرض وعمق، ويأخذ حيزًا من الفراغ، ويتمكن في مكان، ويتنقل ويتحرك وله أعضاء جوارح؛ فشبهوا الله تعالى بخلقه، ودلّسوا على العوام بألفاظ تجعلهم يظنون أنهم منزِّهون، ثم إنْ تمكنوا منهم أشْربوهم معتقدَهم بالتشبيه والتجسيم، وقد حصل أن المفسر اللغوي أبا حيان الأندلسي، كان قد مدح ابن تيمية شيخ المجسمة في عصره في قصيدة، ثم علم أنه مجسم بعد أن قرأ كتاب العرش له، يقول معاصروه: «فبقي يلعنه حتى مات»(٣).

---

(١) سورة الشورى: الآية (١١).

(٢) ابن خمير السبتي، م.س.، (صص١٠٢ - ١٠٣).

(٣) الزبيدي، م.س.، (ج٢، ص١٠٥).

وابن خمير رحمه الله كان من علماء أهل السنة والجماعة، الذين واجهوا المشبهة وبقية أهل الأهواء، بالأدلة العقلية والنقلية على طريقة الأشعري رحمه الله، وفي كتابه «مقدمات المراشد» أفرد فصلًا خاصًا للرد عليهم، فقال: «فإن قيل: فبِمَ ترد على المشبهة في آي وأحاديث ركنوا إلى ظاهرها في ادعاء التشبيه: كآية الاستواء، وآية المجيء، وآية الساق، واليد، والعين، والأعين، والجنب، وكذلك حديث النزول، وحديث القدم، والرجل، والضحك، والفرح.. إلى غير ذلك؟ قلنا: نرد عليهم من أربعة أوجه»[(١)]. وسأعمل على إيراد وجهين منها للاختصار:

«أحدهما: بما قدمناه من الأدلة على صحة المماثلة بين الخلق، واستحالة المماثلة بين الله تعالى وخلقه. فلو كان ما حملوه على ظاهره غير مؤول للزم أن يكون الباري تعالى شبحًا مؤلّفًا ذا أحياز وأبعاض، وكَوْنٍ في الأماكن بحركات وسكنات مخصَّصًا منحصِرًا.. وهذه من صفات الأجرام التي فرغنا من إثبات حدثها وصحة ازدواجها. فثبوت هذه الأوصاف لها يؤدي إلى أحد أمرين: إما الحدوث للقديم الذي قام الدليل على قِدَمِه، أو لقِدَم الحادث الذي أقمنا الدليل على حدثه، وهذه هي السفسطة، وقلب الحقائق، ورد أدلة العقول التي تدل بنفسها.. [وأخبر عن] استحالة ورود الشرائع بما يناقض أدلة العقول»[(٢)].

وبعد أن استعمل ابن خمير الدليل العقلي،

(١) ابن خمير السبتي، م.س.، (ص١٠٣).
(٢) نفس المصدر والصحيفة.

انتقل لتبكيتهم بالأدلة النقلية من كتاب الله تعالى، وهذه طريقة المتكلمين الأشاعرة التي برعوا في استخدامها للحفاظ على عقيدة المسلمين، ويحصل بذلك على نتيجتين: إقامة الحجة على الخصم، وتقوية وتمكين المتعلم المسلم في عقيدته الصافية من الكدر والانحراف، فيقول رحمه الله: «معارضتهم بآي تنقض عليهم كل ما تخيلوه من التشبيه، من مثل قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[١]، وهذه الآية محقت كل ظاهر يوهم التشبيه في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وصرفته إلى التأويل أو إلى معنى ليس معه تشبيه، وكل ما تخيلوه من حمل الآي [المتشابهة] على ظاهرها فهو مناقض لهذه الآية، فإنه لو كان تعالى - كما زعموا - لكان مِثلًا لكل شيء، لكون الجواهر متماثلة في التحيز والقبول، وكون الأجسام متساوية في التأليف والمساحة، تعالى عما يصفون»[٢].

ويتابع ابن خمير قائلًا: «ومنها قوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٣]، ويستحيل أن يكون الجسم في الأماكن المتباعدة في الزمان الواحد. وكذلك قوله سبحانه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[٤]، فإن صرفوا هذه الآيات إلى التأويل نقضوا مذهبهم في الاستواء بالذات وسوغوا التأويل، وإن أبقوها على ظاهرها ركبوا المحال، فإن الجسم لا يجوز أن يحل في أماكن متباعدة في زمن فرد. وكذلك قوله تعالى ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ

---

(١) سورة الشورى: الآية (١١).
(٢) ابن خمير السبتي، م.س.، (ص١٠٥).
(٣) سورة الحديد، الآية (٤).
(٤) سورة البقرة، الآية (١١٥).

ٱلْوَرِيدِ﴾[١]، فيجب على ظاهر هذه الآية أن يكون في جوف - كل إنسان - تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا»[٢].

وهذا رد مفحم وحجة بالغة على أهل التشبيه والتجسيم الذين يتمسكون بآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾[٣]، ليعتقدوا بأن معبودهم جسم كبير قاعد على العرش، قادهم وهمهم إلى ذلك، فالذي يعتقدونه غير موجود، والله تعالى يستحيل أن يكون جسمًا، لأن الجسم مركب مؤلف من أجزاء وأبعاض فهو مخلوق، وفوق العرش كما ورد في الحديث يوجد كتاب فيه «**إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»[٤]، فيكون هؤلاء المجسمة أثبتوا المماثلة بين الله وبين ذلك الكتاب، لأنهم جعلوا الله وذلك الكتاب مستقِرَّيْن فوق العرش فيكونون كذبوا قول الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[٥].

ثم يذكر ابن خمير في نهاية رده: «ففي كل وجه منه كفاية في الرد عليهم، على أنهم - بحمد الله - أقل وأحقر من أن يؤبه لهم أو يُكترث بأقوالهم. ولولا حثالة من حواشي المقلدة لهم في هذيانهم - ولكل ساقطة لاقطة - لكان الإضراب عنهم أولى»[٦].

---

(١) سورة ق، الآية (١٦).
(٢) ابن خمير السبتي، م.س.، (صص١٠٥ - ١٠٦).
(٣) سورة طه، الآية (٥).
(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، انظره في فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، رقم الحديث (٧٤٢٢)، (ج٩، ص١٥٣).
(٥) سورة الشورى: الآية (١١).
(٦) ابن خمير السبتي، م.س.، (ص١٠٦).

وقد سبق ابن خمير في قول هذه العبارة قبل مائة عام أبو نصر عبد الرحيم بن أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري (ت٥١٤هـ/ ١١٢٠م)، الذي كان شديدًا على مجسمة الحنابلة منافحًا عن الأشعرية، وعبارته: «وقد نبغت نابغة من الرعاع، لولا استنزالهم للعوام بما يقرب من أفهامهم ويتصور فى أوهامهم، لأجلَلْت هذا المكتوب عن تلطيخه بذكرهم؛ يقولون نحن نأخذ بالظاهر ونجري الآيات الموهمة تشبيهًا، والأخبار المقتضية حدًا وعضوًا على الظاهر»(١). وهذا يدل على تشابه علماء المشرق والمغرب في التمكن واللحمة في وحدة الاعتقاد، وكذلك في وحدة النظر إلى الأشياء التي تعكر صفو العقيدة الحقة، عقيدة الأمة المحمدية.

٥- (٤) الرد على المعتزلة والمجسمة في مسألة الكلام:

المجسمة أثبتوا صفة الكلام لله تعالى، لكن قالوا إن كلامه عز وجل حروف وأصوات، أما المعتزلة فقد نفوا الصفات عن الله تعالى، وزعموا أنه يخلق الكلام في شيء مخلوق لذلك قالوا بخلق القرآن، فانبرى ابن خمير رحمه الله في الرد عليهم معًا في فصل واحد، فقال: «فأما المجسمة فزعموا أن الله متكلم بحرف وصوت خلقه في ذاته فصيروه ظرفًا للحوادث، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وهؤلاء أَرَكُّ عقولًا وأحط أقدارًا من أن يراجعوا.. لأن أول ما يلزمهم أن يكون البارئ تعالى محدثًا، [لأنهم جوّزوا] كونه قابلًا للحوادث. وأما المعتزلة فلم يرضوا بهذه الرذيلة.. لكن وقعوا في محالات لا

(١) محمد بن محمد بن الحسيني الزبيدي الشهير بمرتضى، إتحاف السادة المتقين. (ج٢، ص٢٠٨).

مخرج منها، فقالوا: كلام الله تعالى مخلوق: حروف وأصوات. قلنا: الكلام الذي ادعيتم أنه حروف وأصوات إنما هو عبارة عن الكلام النفسي كما قال المحققون وصح عند أهل اللغة»[١].

المجسمة والمعتزلة من الفرق الاثنتين والسبعين، لكنهما ضدان في كثير من المسائل، لكن لا يعني أن أحدًا منهما ليس واقعًا في ما حذر منه الشرع، والمسألة التي ناقشها ابن خمير تتعلق في مسألة صفة الكلام للبارئ عز وجل، فالمجسمة لأنهم يعتقدون الجسمية في حق الله تعالى اعتبروا أنه محل للحوادث، فقالوا إن كلامه جل وعز حروف متعاقبة، وهذا يستحيل في حق الله تعالى، لأن الكلام بالحروف المتعاقبة لا تكون إلا للمخلوق؛ أما المعتزلة فاعتقادهم أن الله تعالى غير موصوف بصفات ومنها صفة الكلام، ولا يستطيعون أن ينكروا أن الله متكلم، فالله تعالى قال ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[٢] ويفسرها ابن عطية بقوله: وكلام الله للنبي موسى عليه السلام دون تكييف ولا تحديد، ولا تجويز حدوث ولا حروف ولا أصوات، والذي عليه الراسخون في العلم: أن الكلام هو المعنى القائم في النفس.. وكما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات، معلوم لا كالمعلومات، فكذلك كلامه لا كالكلام»[٣]، يعني أن كلامه الذاتي، بعبارة أخرى النفسي،

---

(١) ابن خمير السبتي، م.س.، (ص١٥٤).

(٢) سورة النساء، الآية (١٦٤).

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ٦ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، (ج٢، ص١٣٧).

صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى، لا يشبه كلام المخلوقين، فليس حروفا متعاقبة وليس صوتًا، وليس لغة من اللغات.

ثم يرد ابن خمير على المعتزلة، فيقول: «الكلام الذي تثبتونه للبارئ تعالى حروفًا وأصواتًا مخلوقة، لا يخلو أن يخلقها في نفسه، أو يخلقها لا في محل؛ فإن قالوا: يخلقها في نفسه، للزم ما ألزم المشبهة حرفًا بحرف(١)، وهم يأبون ذلك. وإن قالوا: يخلقها في غيره، وجب أن يكون ذلك الغير مُتكلِّمًا بها.. وإذا كان الغير متكلما بها لزم أن تقول الشجرة لموسى عليه السلام ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾(٢) و﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٣) وهذا ألزم لهم من حبل الوريد»(٤). وإن قالوا لا في محل، فمحال أيضًا من أربعة أوجه، فصَّلها في الرد عليهم، منتقلًا من باب إلى باب في المسألة(٥).

٥- (٥) الرد على المعتزلة في مسألة رؤية الله تعالى في الجنة بلا كيف:

يثبت ابن خمير السبتي، كغيره من الأشاعرة، رؤية الله تعالى في الجنة للمؤمنين، بلا كيف وبلا مقابلة وبلا مسافة بين الرائي والمرئي، يرونه سبحانه بأعين رؤوسهم وهم في مكانهم والله لا يحويه مكان، يقول ابن خمير: «وأما وقوع الرؤية من

(١) أي إذا اعتبروا أن المولى عز وجل محلا للحوادث، كما هو اعتقاد المجسمة.
(٢) سورة طه، الآية (١٤).
(٣) سورة القصص، الآية (٣٠).
(٤) ابن خمير السبتي، م.س.، (ص١٥٥).
(٥) نفسه، (صص١٥٥ - ١٥٧).

الأولياء لربهم في الجنة فصح من الكتاب والسنة والإجماع. فأما الكتاب فمن قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾[(١)]، نعت الوجوه بالنضرة، ووصفها بالنظر المعدَّى بـ«إلى»، الذي لا يكون إلا من نظر العين فهذا تصريح بإثبات رؤيته تعالى. وأما من السنّة فمن قوله ﷺ: «**ترون ربكم كما ترون القمر ليس دونه سحاب**» الحديث، وقوله «**كما**» راجعة للرائي [لا] للمرئي، يتعالى الله عن الجهات، فبشرنا عليه السلام ببشارتين: إحداهما: أنا نراه، والثانية: أنا نعلم عند رؤيته أنه هو [أي لا نشك في رؤيته سبحانه وتعالى]، وكذلك بشرنا ربنا ببشارتين: إحداهما: نضرة النعيم، والثانية: نظر العين إليه. وأما الإجماع، فهو إجماع السلف الكرام من الصحابة والتابعين لهم من أهل السنة، أن الله تعالى يُرى في الجنة بالأبصار.. حتى نبغت شرذمة الاعتزال، فأنكروا الرؤية وخرقوا الإجماع»[(٢)].

(١) سورة القيامة: الآيتان (٢٢ - ٢٣).

(٢) ابن خمير السبتي، م.س.، (صص١٦٥ - ١٦٦).

المبحث الثاني:

نماذج من علماء الأشعرية في الأندلس

١- القاضي أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف (المتوفى سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م):

سليمان بن خلف بن سعدون بن أيوب بن وارث الباجي أصلهم من بطليوس، انتقل أهله الى باجه الأندلس ثم سكنوا قرطبة، واستقر أبو الوليد بشرق الأندلس، أخذ بالأندلس عن ابن الرحوي وأبي الأصبغ بن أبي درهم وأبي محمد مكي وأبي شاكر القبري خاله، وغيرهم. رحل إلى المشرق سنة (٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) فمكث في الحجاز ثلاث سنوات في صحبة أبي ذر الهروي وكان يقوم بخدمته، ثم انتقل إلى بغداد، وأقام فيها ثلاث سنين يسمع الحديث من علمائها ويدرس الفقه، ولقي هناك كوكبة من العلماء منهم أبو الفضل بن عمروس إمام المالكية، وأبو إسحاق الشيرازي الشافعي، والصيمري رئيس الحنفية، وأبو بكر الخطيب. وتنقل بين الشام ومصر يسمع من المشايخ، وأقام سنة في الموصل يدرس الأصول على السمناني. وكان جملة مقامه بالمشرق نحو ثلاثة عشر عامًا. وحاز الرئاسة بالأندلس، وفيها تفقه عليه الكثير، وسمع منه الإمام أبو بكر الطرطوشي وابنه أبو القاسم. وكان أكثر تردده بشرق الأندلس ما بين سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية[١].

---

(١) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، (ج٢، صص٣٤٧ - ٣٤٨).

١- (١) مكانته من العلم:

كان أبو الوليد الباجي عالما بالأصول متكلمًا قوي الحجة نظارًا ومحدثًا يفهم الحديث متنًا وسندًا فصيح اللسان شاعرًا بليغًا، له تصانيف مشهورة، ولكن أبلغ ما كان فيها في الفقه وإتقانه، على طريق النظّار من البغداديين وحذّاق القرويين والقيام بالمعنى والتأويل.

وكان مُقِلًا من دنياه فعمل في سفره في حراسة درب، يستعين بضوئه على المطالعة. ولما جاء الأندلس، صار يعمل في ضرب ورق الذهب للغزل، ففي مجالسه كان يظهر في يديه أثر المطرقة وصدأ العمل، «إلى أن فشا علمُه وعُرف وشهرت تواليفه، فعرف حقه وجاءته الدنيا وعظم جاهه وقرّبه الرؤساء وقدّروه قدره، واستعملوه في الأمانات والقضاء وأجزلوا صلاته»[(١)].

وقد وجد بالأندلس صيتًا شائعًا وظاهريات منكرة لابن حزم الداودي، فتأثر به الناس إعجابًا، وله تصرف في فنون تقصر عنها ألسنة فقهاء الأندلس في ذلك الوقت، لقلة استعمالهم النظر وعدم تحققهم به، فلم يكن يقوم أحد بمناظرته، فعلا بذلك شأنه، وسلّموا الكلام له، على اعترافهم بتخليطه، فحادوا عن مكالمته. يذكر عياض: «فلما ورد أبو الوليد الأندلس وعنده من الإتقان والتحقيق والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما حصله في رحلته، أمله الناس لذلك، فجرت له معه مجالس كانت سبب فضيحة ابن حزم وخروجه من ميورقة،

(١) نفسه، (ج٢، صص٣٤٨ - ٣٤٩).

وقد كان رأس أهلها، ثم لم يزل أمره في سفال، فيما بعد. وقد ذكر أبو الوليد في كتاب الفرق من تأليفه من مجالسه تلك ما يكتفي به من وقف عليه»[١].

ألف أبو الوليد العديد من المصنفات، منها: في الفقه «المنتقى في شرح الموطأ» عشرين مجلدًا لم يؤلف مثله، وفي الحديث كتاب «اختلاف الموطآت». ومن كتبه في الأصول والكلام «كتاب التسديد إلى معرفة طريق التوحيد»، وكتاب «إحكام الفصول في أحكام الأصول»، وغير ذلك[٢].

ومن شعره المشهور:

«إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا
بِأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَه
فَلِمَ لَا أَكُونُ ضَنِينًا بِهَا
وَأَجْعَلُهَا فِي صَلَاحٍ وَطَاعَه

قال أبو علي الجياني: مولده في ذي القعدة سنة ثلاث وأربعماية (١٠١٣م)، وتوفي بالمرية سنة أربع وسبعين [وأربعمائة] (١٠٨١م) لسبع عشرة خلت من رجب.

وكان جاء إلى المرية سفيرًا بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام، ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملوك المغرب المرابطين على ذلك، فتوفي قبل تمام غرضه رحمه الله»[٣].

(١) نفسه، (ج٢، ص٣٥٠).
(٢) نفسه، (ج٢، صص ٣٥٠- ٣٥١).
(٣) نفسه، (ج٢، ص٣٥١). وانظر: ابن خلكان، م.س.، (ج٢، صص ٤٠٨ - ٤٠٩).

ولا شك أن الباجي يُعَدُّ ممن كان لهم الهمّة العالية والدور البارز في نشر المذهب الأشعري بالمغرب، «وكيف لا وقد تلقاه عن أعمدة هذا المذهب بالمشرق خلال رحلته»[١].

١- (٢) الرد على المجسمة:

يشرح القاضي أبو الوليد الباجي حديث **(ينزل ربنا)** في «المنتقى شرح الموطأ» بقوله: «قوله ﷺ ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى السماء الدنيا، إخبار عن إجابة الدعاء في ذلك الوقت وإعطاء السائلين ما سألوه وغفرانه للمستغفرين، وتنبيه على فضيلة ذلك الوقت، وحض على كثرة الدعاء والسؤال والاستغفار فيه. ومن هذا المعنى ما روي عنه ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى [في الحديث القدسي] إذا تقرب إلي عبدي شبرًا تقربت إليه ذراعًا وإذا تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا وإذا أتاني يمشي أتيت إليه هرولة، ولم يرد به التقرب في المسافة، فإن ذلك غير ممكن ولا موجود، وإنما أراد التقرب بالعمل من العبد، والقرب منه تعالى بالإجابة والقبول، ومن ذلك يقال فلان قريب من فلان، ويقولون في الرئيس هو قريب من الناس إذا كان كثير الإسعاف لهم والترحيب بهم، وهو مشهور في كلام العرب»[٢]، فأبو الوليد الباجي في هذا الحديث يعمد إلى التأويل ويخرج النص عن ظاهره.

---

(١) ابراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب: دخولها، رجالها، تطورها، وموقف الناس منها. ط١، دار قرطبة، الجزائر، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، (ص٣٠).

(٢) سليمان بن خلف الباجي الأندلسي، المنتقى شرح موطأ إمام دار الهجرة سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه. ٧ أجزاء، ط٢ مصورة عن طبعة مطبعة السعادة بمصر ١٣٣٢هـ، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (ج١، ص٣٥٧).

١- (٣) الرد على القدرية الذين يقولون لا قدر:

في باب القدر من «المنتقى شرح الموطأ» في شرحه لحديث «**كل شيء بقدر حتى العجز والكيس**»[١] الحديث، ينقل القاضي أبو الوليد عن الحسن الحلواني، قال: «أَمْلَى عليَّ عليُّ ابن المديني سألت عبد الرحمٰن بن مهدي عن القدر فقال: كل شيء بالقدر والطاعة والمعصية بقدر، وقد أعظم الفرية من قال إن المعاصي ليست بقدر.. ثم [يقول الباجي:] قال مالك: وما رأيت أهلَه من الناس إلا أهل سخافة عقول وخفة وطيش، [ويقول مادحًا علماء الأشعرية] اعتمدت في هذا الباب على إيراد أقوال الفقهاء والحديث لما في أقوال غيرهم من الغموض، وما في احتجاجهم مع المخالف من التطويل، وقد بلغ القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي في كتبه من هذا الباب ما لا مزيد عليه ولا حاجة بالطالب إلا اليسير منه، وكان الشيخ أبو ذر محمد بن أحمد الهروي مالكيًا، وكان على مذهبه، وممن أخذ عنه، وكان الشيخ أبو عمران موسى بن حاج الفاسي قد رحل إليه وأخذ عنه وتبعه، وكان الشيخ أبو محمد بن أبي زيد والشيخ أبو الحسن علي بن محمد القابسي يتبعان مذهبه، وقرأ عليه القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر، وهو ممن أخذ عنه واتبعه، وعلى ذلك أدركت علماء شيوخنا بالمشرق، وأهل هذه المقالة هم الذين يشار إليهم بأنهم أهل السنة»[٢].

---

(١) الموطأ برواية يحيى بن يحيى، رقم الحديث: (٢٦١٩)، (ج٢، ص٤٨٠).
(٢) أبو الوليد الباجي، م.س.، (ج٧، ص٢٠٤).

وينقل الباجي من الموطأ: «مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك أنه قال: كنت أسير مع عمر بن عبد العزيز فقال: ما رأيك في هؤلاء القدرية، قال: فقلت: رأيي أن تستتيبهم فإن قبلوا وإلا عرضتهم على السيف، فقال عمر بن عبد العزيز: وذلك رأيي، قال مالك: وذلك رأيي»[١] الحديث.

وفي شرح الباجي لهذا الحديث في «المنتقى»، يعطي تعريفا للقدرية القدماء وكيف تفرعت عنها المعتزلة، فيقول: «قول عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه ما رأيك في هؤلاء القدرية، اختلف أهل العلم فيما سموا به «قدرية»، فقال قوم من أهل العلم سموا بذلك لأنهم نفوا القدر، كما سُمّي داود بن علي الأصبهاني «القياسي» لأنه نفى القياس، وقال قوم سموا بذلك لأنهم ادعوا أن لهم قدرة على خلق أفعالهم، ونفوا قدرة الباري سبحانه عليها، قال عبد الملك بن الماجشون: ويدّعي القدري أن الأمر إليه، وأنه ما شاء فعل وأنه يريد أن يعصي، وأن الله تعالى يريد أن يطيع فيكون ما أراد هو ولا يكون ما أراد الله عز وجل[٢]. وأما المعتزلة فهم طائفة من القدرية، واختلف العلماء في تسميتهم بذلك فقالت طائفة سميت بذلك، لأن عمرو بن عبيد كان يلزم مجلس الحسن البصري، ثم إنه قال بالقدر ومعانٍ خالف فيها الحسن، ثم اعتزل هو ومن تبعه مجلس الحسن، فسموا بذلك معتزلة»[٣].

---

(١) مالك بن أنس، الموطأ، جزءان، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، حديث رقم (٢٦٢١)، (ج٢، ص٤٨١).

(٢) ومعلوم أن هذا كلام فاسد مخالف لشرع الله، لأن ما أراد الله كونه لا بد أن يكون، لا راد لما قضى، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(٣) أبو الوليد الباجي، م.س.، (ج٧، ص٢٠٥). والبحث في اعتقاد أهل السنة=

٢- القاضي أبو بكر بن العربي المعافري (المتوفى سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م):

محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن العربي المعافري، من أهل إشبيلية، يكنى أبا بكر، وصفه ابن فرحون بعبارة: «الإمام العلامة الحافظ المتبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها، وأبوه أبو محمد من فقهاء بلده إشبيلية ورؤسائها»(١). ووالده عبد الله كان قد تلقى العلم من أبي عبد الله بن منظور، وأبي محمد بن خزرج، وسمع بقرطبة من أبي عبد الله محمد بن عتاب، وأبي مروان بن سراج، وحاز على مناصب ورياسة عند أصحاب إشبيلية العبادية إلى أن زالت دولتهم، وفي سنة (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، خرج إلى الحج مع ابنه القاضي أبي بكر الذي كان يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وكان قد تأدب ببلده وقرأ القراءات، فلقي بمصر والشام وبغداد عددًا من العلماء منهم أبو نصر المقدسي وأبو سعيد الزنجاني وأبو حامد الغزالي وأبو سعيد الرهاوي وأبو القاسم بن أبي

= واختلاف المعتزلة والخوارج والمرجئة في ذلك بينه أبو الوليد عقب هذا الكلام. ولمزيد تفصيل، انظر: أبو المظفر الإسفراييني، م.س.، (صص٢١ - ٢٢). كان واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ومن تبعهما ممن أحدث أفكار القدرية المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، فقدقالوا بالمنزلة بين المنزلتين، وزعموا أن الفاسق الملّي لا مؤمن ولا كافر، وأن الفساق من أهل الإسلام اعتبروهم لا مؤمنين ولا كافرين، لكنهم مع الكفار خالدين في النار وغير ذلك من مقالات، وكان هذا الرجلان في مجلس الإمام المجتهد الحسن البصري (ت١١٠هـ/ ٧٢٨م) «فطردهم الحسن البصري من مجلسه فاعتزلوه بأتباعهم جانبا من المسجد، فسموا معتزلة».

(١) ابن فرحون، م.س.، (ج٢، ص٢٥٢).

الحسن المقدسي والإمام أبو بكر الطرطوشي وغيرهم. وفي سنة (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) حج وأخذ بمكة من أبي علي الحسين ابن علي الطبري وغيره. وفي بغداد صحب أبا بكر الشاشي وأبا حامد الطوسي وغيرهم من العلماء، فأخذ الفقه والأصول وسمع الحديث، وأتقن مسائل الخلاف والأصول والكلام، وفي طريق العودة إلى الأندلس، أقام بالإسكندرية عند أبي بكر الطرطوشي، فمات والده بها أول سنة (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م). وكان رجوعه إلى الأندلس سنة (٤٩٥هـ/ ١١٠٢م) وقدم بلده إشبيلية بعلم كثير[١].

وصنف ابن العربي المؤلفات الكثيرة المفيدة منها: أحكام القرآن، وكتاب المسالك في شرح موطأ مالك، وكتاب القبس على موطأ مالك بن أنس، وعارضة الأحوذي على كتاب الترمذي، والقواصم والعواصم، والمحصول في أصول الفقه، وسراج المريدين، وسراج المهتدين، وكتاب المتوسط، وكتاب المتكلمين. وممن أخذ عنه القاضي عياض عند مروره في سبتة، ولقيه أيضًا بإشبيلية وبقرطبة فناوله وكتب عنه واستفاد منه[٢].

بعد انتصارات الموحدين في الأندلس، جاء وفد بلادهم برئاسة القاضي أبي بكر بن العربي إلى مراكش لمبايعة عبد المؤمن، الذي كان منشغلا بحرب محمد بن هود الماسي، فأقاموا بمراكش نحو سنة ونصف ينتظرون رجوع عبد المؤمن حتى كان يوم عيد الأضحى من سنة (٥٤٢هـ/ ١١٤٧م)، ويقال

(١) نفسه، (ج٢، صص٢٥٣ - ٢٥٤).
(٢) نفسه، (ج٢، صص٢٥٤ - ٢٥٦).

إنّ عبد المؤمن سأل أبا بكر بن العربي عن محمد بن تومرت، هل كان لقيه عند الإمام أبي حامد الغزالي، «فقال: ما لقيته ولكن سمعت به، فقال له: فما كان أبو حامد يقول فيه قال كان يقول: إن هذا البربري لا بد أن سيظهر. . فانصرفوا عنه سنة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، فلما قربوا من مدينة فاس توفي الإمام أبو بكر بن العربي رحمه الله»[١].

٢- (١) الرد على المجسمة:

ظهر موقف أبي بكر بن العربي جليًا واضحًا من التأويل وإخراج النص عن ظاهره في مصنفاته. وسنبين بعض الأمثلة عن مواقفه هذه مما ورد في كتابه «عارضة الأحوذي بشرح الترمذي»، فقد رد تفصيلًا على المشبهة المجسمة في عدة مسائل يتمسكون بها لإثبات الجهة والمكان والجسمية لله جل وعز، رأينا أن نسوقها لما تعبر عن منهج ابن العربي في التأويل وتنزيه الله تعالى عن الشبيه والمثيل بحسب قواعد الأشعرية، فتراها انسكبت في عباراته وشروحاته نهجًا واضحًا لا لبس فيه.

*** في تأويل ما ورد من ألفاظ النزول والإتيان والمجيء وغيرها:**

وفي الحديث المشهور من طريق أبي هريرة وغيره، أن النبي ﷺ قال: «**ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى**

(١) الناصري، م.س.، (ج١، ص٢٥٦).

يضيء الفجر»[١] الحديث.. قال ابن العربي في شرحه للحديث: «واختلف الناس في هذا الحديث وأمثاله على ثلاثة أقوال: فمنهم من رده[٢]، ومنهم من قبله وأَمَرَّهُ كما جاء ولم يتأوله ولا تكلم فيه، مع اعتقاده أن الله ليس كمثله شيء[٣]، ومنهم من تأولَه وفسَّره[٤] وبه أقول لأنه معنى قريب عربي فصيح.. أما إنه قد تعدى إليه قوم ليسوا من أهل العلم بالتفسير، فتعدوا عليه بالقول بالتكثير قالوا في هذا الحديث دليل على أن الله في السماء على العرش من فوق سبع سموات قلنا هذا جهل عظيم»[٥]. وقوله: «ينزل» و«يجيء» و«يأتي» وما أشبه ذلك من الألفاظ التي لا تجوز على الله في ذاته معانيها فإنها ترجع إلى أفعاله[٦].

ويقول القاضي أبو بكر بن العربي في تفسير قوله تعالى ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾[٧]: «هذا اللفظ وأمثاله أضل الغاوين وحيَّر الشاذين، وقد قال ابن عباس: يأتي ثوابه

---

(١) محمد بن عيسى المعروف بأبي عيسى الترمذي، سنن الترمذي، ٥ أجزاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج٢، رقم الحديث (٤٤٦)، (ج٢، صص٣٠٧ - ٣٠٩).

(٢) وهم المبتدعة كما ورد في نقل ابن حجر العسقلاني عن ابن العربي في فتح الباري، (ج٣، ص٣٠).

(٣) وهذا قول: «السلف أمروها كما جاءت بلا كيف».

(٤) وهذه طريقة الخلف في التأويل بإعطاء النص المعنى الذي يتحمله باللغة مما يليق بالله تعالى.

(٥) أبو بكر بن العربي، عارضة الأحوذي بشرح الترمذي، ١٤ جزءا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، (ج٢، ص١٩٨).

(٦) أبو بكر بن العربي، عارضة الأحوذي، (ج٢، ص٢٠٠).

(٧) سورة البقرة، آية (٢١٠).

وعذابه. والحقيقة فيه، أن حقيقة الإتيان والمجيء حركة، وذلك وصف حدوث يتعالى عنه الرب. فإذا توقف المرء فيه، فقال: أنا لا أتأوله، كان قد امتنع من تنزيه الباري تعالى عن الحوادث، وذلك شك أو شرك. وإذا قال أنا لا أصفه بالحركة، ولكني أقول إنه إتيان لا كإتيان الناس، كان جهلا وتغريرا، أما الجهل: فلأن الإتيان ليس له إلا حقيقة واحدة هي الحركة، وأما التغرير: فلأنه إذا قال إتيان لا كالإتيان أدخل الحركة على الباري سبحانه في الإمكان[(١)]. وإنما يجب أن يقال فيه إنه صفة فعل من أفعال الباري ومخلوقاته، والوجه فيه أن كل شيء يريد سبحانه تشريفه وتكريمه أضافه إليه أو عبر بنفسه وضميره سبحانه عنه، وكل فعل يريد تعظيمه أو التخويف به عبر عنه بنفسه كقوله ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[(٢)]، وقوله ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[(٣)] وأورد مجموعة من الآيات، وقال: فالمقيّد يفسر المطلق»[(٤)].

وأيضًا في قوله تعالى عن سيدنا موسى عليه السلام

---

(١) أي بعبارته هذه: جعل الإتيان بالحركة ممكنا في حكم العقل وهذا مستحيل على الله سبحانه وتعالى لأن الحركة من صفات الأجسام.

(٢) سورة التوبة، آية (٢٤).

(٣) سورة النحل، (٢٦).

(٤) أبو بكر بن العربي، كتاب الأفعال، منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية الرابطة المحمدية، ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م. (صص١١١ - ١١٥).

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾[١] يقول: «يعني بالكرامة وإسقاط الواسطة في التكليم[٢]، وذلك قرب مكانة، فأما قرب المكان بتقليل المسافة، فذلك محال على الله»[٣]. يعني يستحيل أن يتحيز الله بالمكان أو يحل فيه، لأنه ليس جسمًا.

وفي تأويل المتشابه في قوله تعالى ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤﴾[٤] يفسر قوله تعالى ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ﴾: «أي تركنا جزاءكم كما تركتم طاعتنا. وفي قوله تعالى ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤﴾[٥] يفسر قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾: يعني نترك ثوابكم»[٦].

*** مسألة الاستواء:**

ثم يقوم القاضي ابن العربي بالرد المفحم المدعم بالأدلة العقلية والنقلية على أولئك القائلين بالجهة والمكان في حق الله تعالى، سنختصر منه شيئًا من باب الدلالة على عقيدته الأشعرية في مسألة «الاستواء». ففي «عارضة الأحوذي» وردًّا على احتجاج المجسمة بآية ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ٥﴾[٧]،

---

(١) سورة مريم، آية (٥٢).

(٢) قال العلماء: كلم الله موسى برفع الحجاب المانع عن سمع موسى فسمع كلام الله الذاتي الأزلي الأبدي الذي ليس بحرف ولا صوت.

(٣) أبو بكر بن العربي، كتاب الأفعال، (ص٢٣٤).

(٤) سورة السجدة، آية (١٤).

(٥) الجاثية، آية (٣٤).

(٦) أبو بكر بن العربي، كتاب الأفعال، (ص٣٠٣).

(٧) سورة طه، آية (٥).

يقول: «والذي يجب أن يُعتقد في ذلك، أن الله كان ولا شيء معه، ثم خلق المخلوقات من العرش إلى الفرش[١]، فلم يتعين بها، ولا حدث له جهة منها، ولا كان له مكان فيها، فإنه لا يحول ولا يزول، قدوس لا يتغير ولا يستحيل. وللاستواء في كلام العرب خمسة عشر معنى ما بين حقيقة ومجاز، منها ما يجوز على الله فيكون معنى الآية، ومنها ما لا يجوز على الله بحال وهو إذا كان الاستواء بمعنى التمكن أو الاستقرار أو الاتصال أو المحاذاة فإن شيئًا من ذلك لا يجوز على الباري تعالى، ولا يضرب له الأمثال به في المخلوقات»[٢]. وهذا كلام واضح في التنزيه اختصرنا خلاصته من جملة كلام أورد فيه أدلة عديدة.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[٣] يقول أبو بكر بن العربي: «أي فعل فعلًا ثم سماه استواء، وهي التسوية لها، قيل: قصد، وهو أمثل في التأويل، وقيل: استوى علا وقهر»[٤].

*** الله سبحانه وتعالى ليس جسمًا:**

يقول ابن العربي في كتابه «الأمد الأقصى» في صفة الله تعالى «الكبير»: «اعلموا أرشدكم الله، أنا إذا قلنا بقول أهل اللغة: إن الكبير هو: السابق المتقدم في الوجود بمدة

---

(١) في الكتاب المطبوع «من العرش إلى العرش» وأظنها غلطة مطبعية لأنه أراد بقوله هذا كل المخلوقات من أعلى وأكبر مخلوق في جهة فوق وهو العرش، إلى أسفل المخلوقات من جهة تحت وهو الفرش.
(٢) أبو بكر بن العربي، عارضة الأحوذي، (ج٢، صص١٩٩ - ٢٠٠).
(٣) سورة فصلت، آية (١١).
(٤) أبو بكر بن العربي، كتاب الأفعال، (ص٢٩٢).

محدودة[١]، فالباري تعالى هو الكبير بالحقيقة، لأنه قد قام الدليل على أنه سبحانه سابق للعالم بغير تحديد[٢]، إذ لا أول له، لأنه لو كان له أول لكان محدَثًا يفتقر إلى من يُحدِثه، فثبتَ أنه سَبَقَ وجودُهُ وجودَ العالم بغير تحديد. وإن قلنا: إن الكبير هو: المتقدم في الرتبة بجلال الذات وكمال الصفات، فالباري هو الكبير بالحقيقة في الوجهين جميعًا، فإن وجودَه أسبقُ، وذاتَه وصفاتِه أكمل. وأما كِبَرُ الجُثَّة بكثرة الأجزاء فمُحالٌ في حق الله تعالى، لأنه ليس بجسمٍ مؤلَّفٍ من مجموع جواهرَ وآحادِ أجزاءٍ، لاستحالة الحدوث عليه، ووجوب السَّبْقِ الذي ليس له أوَّلُ، واستحالة الفناء عليه»[٣].

وذلك لما ثبت وجوب القدم لله عقلا وجب له البقاء لأنه لو أمكن أن يلحقه العدم لانتفى عنه القدم، وانتفاء القدم عنه مستحيل فانتفى عنه إمكان الفناء[٤].

*** الله تعالى موجود بلا مكان:**

وفي تنزيه الله عن المكان، يقول أبو بكر بن العربي في

---

(١) هذا في ما يتعلق بالمخلوقات مثل أن يولد أَخَوَان والفارق بينهما سنة مثلا فالسابق بينهما هو الكبير.

(٢) قال بغير تحديد: لأن الزمان هو مقارنة متجدد بمتجدد، والله تعالى لا يجري عليه زمان، ولا يتغير من حال إلى حال، وليس محلا للحوادث.

(٣) أبو بكر بن العربي، الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، سِفران، ط١، دار الحديث الكتانية، طنجة، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، السفر الأول، (ص٣٨٩).

(٤) عبد الله الهرري، الدليل القويم على الصراط المستقيم. ط٣، شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٠ ٢٠٠٩م، (ص١٠٤).

تفسير اسم الله «العليّ»: «اختلفت عبارات الناس في تفسير العلي على أربعة أقوال:

- الأول: فقالت طائفة من المشبهة: علوُّه علوّ مكان، والمراد به كونه فوق العرش كالملك على الفراش، مكانًا بمكان، وتمكنًا بتمكن، تعالى الله عن ذلك [وهذا مخالف للدين لا شك].
- الثاني: قال أهل السنة: علوُّه علوّ مكانة، وهي استحقاقه لصفات الكمال، واستيجابه غاية المدح والتعظيم، من العلم الشامل، والقدرة الكاملة، والإرادة النافذة.. لا يعجزه شيء ولا يشبهه شيء.
- الثالث: قالت طائفة من العلماء: قد يكون العلوُّ القهرَ والغلبة.
- الرابع: قالت طائفة من العلماء: هو عالٍ بمعنى أنه منزَّه عن صفات الحدوث والتشبيه والتحديد.

[ثم يقول رحمه الله:] أما قول المشبهة إنه علو مكان، فقد ثبت فيه استحالة المكان عليه، فإنه خلق الجهة والمكان، وهو كما كان، لا يتغيَّر شريفُ صفاته بما أوجد من مخلوقاته»(١).

٢- (٢) في الرد على المعتزلة:

*** الله خالق كل شيء ومنها أفعال العباد:**

في هذه المسألة التي ضلَّ بها المعتزلة فيما نسبوا للعبد أنه يخلق فعله، يقول القاضي أبو بكر بن العربي: «إن الله خالق

---

(١) أبو بكر بن العربي، الأمد الأقصى. السفر الأول، (ص٢٨٢).

أعمال العباد كلها بقدرته خيرها وشرها، وهم يقولون [أي المعتزلة]: إن الله قدَّر الخير والشر، ولكنه لم يخلقه ولا أوجده، وإنما خلق للعباد قدرةً يخلقون بها ما يشاؤون، ولهذا سُمُّوا قدريَّة، لأنهم جعلوا القدرة والخلق لأنفسهم.. [ثم يقول]: وأما خلقه لها بقدرته وإرادته إياها، فخلقها بقدرته عندنا [أي أهل السنة] ولم يخلقها عندهم، وأرادها عندنا، ولم يُرِدْها عندهم، فالخلاف بيننا وبينهم [في هذه المسألة] في تعلُّق القدرة والإرادة بالشرور والمعاصي»[(١)].

٢- (٣) الرد على ابن حزم الظاهري:

وفي كتابه «العواصم من القواصم» يرد ابن العربي على ابن حزم الظاهري في عدة مسائل خالف فيها إجماع المسلمين، فيقول: «وكان أول بدعة لقيت في رحلتي [يقصد إلى المشرق] القول بالباطن [يعني الباطنية]، فلما عدت وجدت القول بالظاهر، قد ملأ المغرب بسخيف من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم [المتوفى سنة (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م)]، نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب إلى داود[(٢)]، ثم خلع الكل واستقل بنفسه، وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع، ويحكم لنفسه ويشرع وينسب إلى دين الله ما ليس فيه، ويقول على العلماء ما لم يقولوا، تنفيرًا للقلوب عنهم وتشنيعًا عليهم، وخرج عن طريق الشبهة

---

(١) نفسه، السفر الثاني، (صص٤٣ - ٤٤).

(٢) داود بن علي بن خلف البغدادي المعروف بالأصبهاني (ت ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م)، الملقب بالظاهري: أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام. تنسب إليه الطائفة الظاهرية، وسميت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسنة وإعراضها عن التأويل والرأي والقياس. انظر: ابن خلكان، م.س.، (ج٢، ص٢٥٥).

في ذات الله وصفاته، واتفق له أن يكون بين أقوام لا نظر لهم إلا المسائل، فإن طالبهم بالدليل كاعوا، فتضاحك القوم مع أصحابه منهم، وعضدته الرئاسة. . فكانوا يحمونه حفظًا لقانون الملك، ويحمونه لما كان يلقي إليهم من شبه البدع والشرك. وحين عودتي من الرحلة ألفيت حضرتي منهم طافحة، ونار ضلالهم لافحة، فقاسيتهم مع غير أقران، وفي عدم أنصار. . ولم يكن هناك من يقف الأمر على حد المناظرة، فينصر الحق ويظهر الصدق، فداريت الأيام ودارت الأيام»[١]. ثم يبين ابن العربي كيفية الجدل مع أولئك، ويبدأ ببيان بعض المسائل التي خالف فيها ابن حزم إجماع المسلمين مع الرد عليها.

يقول أبو بكر بن العربي: «هي أشدها، قول ابن حزم: إن الله قادر على أن يتخذ ولدًا وأن يخلق إلهًا إذا شاء ذلك وأراده، بقوله ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[٢] فانظروا إلى هذه الداهية العظمى، كيف جهل الجائز من المستحيل في العقل والمعقول المفهوم من الكلام دون ما لا يعقل، فإن هذا الكلام ليس له معنى مفهوم، إذ قوله: هل يقدر الله الذي لا يصح أن يوجد منه ولد، على أن يكون له ولد، فنقض آخر الكلام أوله، فلم يكن له معنى معقول في نفسه فيستحق به جوابًا، وكذلك قوله: هل يقدر الله على أن يخلق إلها. لأن الله هو الذي لا يصح أن يكون معه إله سواه، فنقض آخر الكلام أوله، ومن ينتهي إلى هذا الحد، فقد سقطت

(١) أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت.، (صص٢٤٩ - ٢٥٠).
(٢) سورة الزمر، أية (٤).

مكالمته»[١].

يؤكد ابن العربي في هذه المسألة الزلة التي وقع فيها ابن حزم، واستعمل في الرد عليه قاعدة من قواعد الأشعرية، وهي الأحكام العقلية، وتنقسم إلى ثلاثة:

- الواجب العقلي وهو ما يلزم من عدمه محال فهو الواجب الوجود وهو الله تعالى وصفاته.
- والمستحيل العقلي وهو ما يلزم من وجوده محال، كاستحالة وجود الشريك لله تعالى.
- والجائز العقلي وهو ما لا يلزم من وجوده محال ولا من عدمه محال، بتعبير آخر هو الممكنات العقلية التي يمكن وجودها تارة وإعدامها تارة أخرى وهو العالم بجواهره وأعراضه[٢].

اعتمادا على هذه القاعدة قال أبو بكر رحمه الله: «فانظروا إلى هذه الداهية العظمى، كيف جهل الجائز من المستحيل في العقل والمعقول المفهوم من الكلام دون ما لا يعقل»، فابن حزم في كلامه جعل المستحيل الذي لا يعقل وجوده جعله جائزًا يمكن وجوده في كلا العبارتين اللتين ذكرهما.

وتكلم في مسألتين غير هذه، «فقال [ابن حزم] منتهكًا للشريعة، مستخفًا بطرق الملة أن من ترك الصلاة متعمدًا حتى خرج وقتها، فقد سقط عنه فرضها.. فرد عليه ابن العربي من

---

(١) أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، (ص٢٥٩).

(٢) مظفر بن عبد الله المعروف بالمقترح المصري الشافعي، شرح العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية، ط١، دار مكتبة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م، (صص٢٩ - ٣٠).

وجوه، أحدها: أن نقول: إن الأمة أجمعت أيام عصر السلف الأول على وجوب قضاء الصلاة على المعتمد.. وذلك لحديث النبي ﷺ «**من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها**»[١] الحديث، [وقال رحمه الله]: ودخلتُ تلك الأمصار العظيمة، وجبتُ الآفاق القاصية نيفًا على عشرة أعوام، فما رأيت أحدًا تفوه بهذا الكلام، ولا وجدته مسطورًا في كتب أيمة الإسلام»[٢].

٣- أبو بكر الطرطوشي (المتوفى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م):

الإمام أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري المعروف بالطرطوشي، نشأ بالأندلس ببلده طرطوشة، ثم تحول لغيرها من بلاد الأندلس، صحب القاضي أبا الوليد الباجي بمدينة سرقسطة وتتلمذ عليه حتى سنة وفاته[٣] (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)، وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه، وأجاز له، «ويبدو احترامه الكبير لأستاذه الباجي، إذ ذكره تسع مرات بعبارة: أستاذنا القاضي أبو الوليد، أو القاضي أبو الوليد أو بصاحب المنتقى»[٤].

ويذكر الضبي: «أخبرني غير واحد عن الحافظ أبي بكر بن العربي قال: سمعت الحافظ أبا بكر الطرطوشي يقول: لم

(١) مالك بن أنس، الموطأ رواية محمد بن الحسن. ٣ أجزاء، ط١، دار القلم، دمشق، ١٤١٣هـ - ١٩٩١م، (ج١، ص٢٨٢).
(٢) أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم، (ص٢٥٩).
(٣) ابن فرحون، م.س.، (ج٢، ص٢٤٤).
(٤) عبد المجيد تركي، محقق كتاب الحوادث والبدع لأبي بكر الطرطوشي،ط١، دارالغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (ص١٢).

أرحل من الأندلس حتى تفقهت ولزمت الباجي مدة. فلما وصلت إلى بغداد دخلت المدرسة العادلية فسمعت المدرس يقول: مسألة إذا تعارض أصل وظاهر فأيها يحكم؟ فما علمت ما يقول ولا دريت إلى ما يشير حتى فتح الله وبلغ بي ما بلغ»[(١)].

قرأ الفرائض والحساب بوطنه، ورحل إلى المشرق سنة ست وسبعين وأربعمائة (١٠٨٣م) وحج ودخل بغداد والبصرة، وتفقه على أبي بكر محمد بن أحمد الشاشي المعروف بالمستظهري الفقيه الشافعي، وعلى أبي أحمد الجرجاني، وسكن الشام مدة ودرس بها مدة، وتقدم في الفقه مذهبًا وخلافًا، وفي الأصول وعلم التوحيد، وحصلت له الإمامة، ودرس هناك ولازم الزهد والانقباض والقناعة، مع بعد صيته وعظم رياسته[(٢)].

وعليه تفقه الإسكندريون ونجب عليه منهم عدةٌ، وألف تواليف حسانًا منها: تعليقه في مسائل الخلاف، وفي أصول الفقه، وكتابه في البدع والمحدثات، وكتاب الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي إتيانه واجتنابه، وفي بر الوالدين، وكتابه المسمى بالسعود في الرد على اليهود، وسراج الملوك في وعظ الملوك، ورسالة تحريم الغناء، واختصاره لكتاب الثعالبي في القرآن وغير ذلك.

واشتهر بزهده وتصوفه، فبعد خروجه من بغداد، دخل بيت المقدس ومنها قصد جبل لبنان وكان مشهورًا بسكنى العابدين

---

(١) الضبي، م.س.، (ص١٣٥).

(٢) عياض اليحصبي، الغنية، (صص٦٢ - ٦٣).

والزهاد من الصوفية، فأقام فيه مدة صحب فيها عبد الله السايح وهو من المنقطعين إلى عبادة الله تعالى، ثم هناك انتقل إلى مصر حيث أقام بالإسكندرية[١]. يذكر ابن خلكان: «وكان إمامًا عالمًا كاملًا زاهدًا ورعًا ديّنًا متواضعًا متقشفًا متقللًا من الدنيا راضيًا منها باليسير، وكان يقول إذا عرض لك أمران دنيا وأمر أخرى: فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى، وكان كثيرًا ما ينشد:

إِنَّ للهِ عِبَادًا فُطَنَا
طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
فَكَّرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا
أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا
صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا»[٢]

ومن أساليبه في التعليم، أنه كان يخرج مع تلاميذه في نزهة إلى الطبيعة حيث يعطي درسه هناك، ذكر أحد طلابه، ويدعى التجيبي، كان ملازمًا له يخدمه: «أن الطرطوشي كان صاحب نزهة مع طلبته، في أكثر الأوقات يخرج معهم إلى البستان، فيقيمون الأيام المتوالية في فرجة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدح في حق الطلبة، بل يدل على فضلهم وسلامة صدورهم. قال: وخرجنا معه في بعض النزه، فكنا ثلاثمائة وستين رجلًا، لكثرة

(١) عبد المجيد تركي، م.س.، (ص١٤).
(٢) ابن خلكان، م.س.، (ج٤، صص٢٦٢ - ٢٦٣).

الآخذين عنه، المحبين في صحبته، وخدمته»[١].

هذا، مما أغضب العبيديين الذين كانوا يحكمون مصر في تلك الفترة، فقد وشى القاضي ابن حديد، وكان الطرطوشي يذم بني حديد ويكرههم لأخذهم المكوس والإعانة على ظلم الناس. فأرسل الوزير العبيدي الأفضل إلى الطرطوشي فمشى إليه وأنزله في مسجد شقيق الملك بالقرب من الرصد وكان يكرهه، وحجر عليه استقبال طلبته، فلما طال مقامه به ضجر وقال لخادمه: إلى متى نصبر اجمع لي المباح، فجمع له فأكله ثلاثة أيام، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه: رميته الساعة، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل، وولي بعده المأمون بن البطائحي، فأكرم الشيخ إكرامًا كثيرًا، وصنف له كتاب سراج الملوك. وكانت ولادة الطرطوشي المذكور سنة إحدى وخمسين وأربعمائة تقريبًا. وتوفي ثلث الليل الأخير من ليلة السبت لأربع بقين من جمادى الأولى سنة عشرين وخمسمائة (١١٢٦م) بثغر الإسكندرية[٢].

وكان للطرطوشي تلاميذ كثر منهم من أصبح من المشاهير، أثروا في معاصريهم والذين جاءوا من بعدهم، أشهرهم: القاضي أبو بكر بن العربي، والقاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، ومحمد بن تومرت[٣].

---

(١) ابن فرحون، م.س.، (ج٢، ص٢٤٦).
(٢) نفسه، (٢٤٦ - ٢٤٧).
(٣) عبد المجيد التركي في تحقيقه لكتاب الحوادث والبدع للطرطوشي، (صص٢٢ - ٢٥).

وفي كتابه «الحوادث والبدع» أخبر الطرطوشي عن افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرق، الناجية منها واحدة وهي الجماعة، أو السواد الأعظم وهم غالب الأمة[(١)]. ثم ذكر في نهاية الحديث قول النبي ﷺ: «**وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله**»[(٢)].

٣- (١) الرد على المشبهة:

*** تنزيه الله عن المكان والزمان:**

ينهج أبو بكر الطرطوشي في تعليمه وتصنيفه طريقة أبي الحسن الأشعري في تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوق، وقد رأينا حرصه على تبيان ذلك من خلال تصانيفه مثل: الدعاء المأثور وآدابه، وسراج الملوك، وكتاب الحوادث والبدع، فهو ينزه الله تعالى عن أن يكون له مكان يتحيز به أو يحل فيه، وفي كلام عن إجابة الدعاء، في شرحه للآية الكريمة ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[(٣)]، يقول الطرطوشي رحمه الله: «لا تدل على القرب بالجهات والمساحات، بل إن قربه إجابة الدعوات، والتقدس عن الأمكنة والجهات.. وقطع الأطماع عن قرب المكان والمساحة، مع استحالته في حقه سبحانه، وبيَّنَ أنَّ قربه من العبد بتوفيق يبديه،

(١) وقد ذكرنا ذلك في مبحث الفرق من هذا البحث.

(٢) أبو داود السجستاني، سنن أبي داوود، جزءان، ط١، دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ج٢، حديث رقم (٤٥٩٧)، (ج٢، ص٦٠٨).

(٣) سورة البقرة، آية (١٨٦).

أو لطف ينشيه، فيوفق للدعاء ثم يجيبه من قريب.. فأما قرب الحق من العبد بالذات فتعالى الملك الحق عنه[(١)]، فإنه متقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار، ما اتصل به مخلوق، ولا انفصل عنه حادث مسبوق، جلت الصمدية عن قبول الوصل والفصل. فقرْبه كرامته وبعده إهانته.. فهو قريب لا بإلصاق، وبعيد لا بافتراق. وقرب هو جائز في حقه، يختص به من يشاء من عباده، وهو خصائص اللطف التي يختص بها من يشاء من عباده. وقرب هو محال في وصفه وهو تداني الذوات»[(٢)]. ثم يفصّل في أنواع القرب المعنوي من الله تعالى، بترك الصفات المذمومة والتخلق بالأخلاق المحمودة، ويذكر الطرطوشي كل ذلك بمسحة صوفية رقيقة.

وقد ذكر أبو بكر الطرطوشي عقيدته باختصار في مقدمة كتابه سراج الملوك، وسنقتطع بعض العبارات التي تدعم الهدف في بحثنا هذا.

يقول الطرطوشي في سراج الملوك: «وإن قلتَ: أين هو؟ فقد سبق المكانَ وجودُهُ». يعني أن الله تعالى لم يسبق وجودَه عدم، فهو الأول كما أخبر في كتابه الكريم قال جلَّ شأنه ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[(٣)]؛ وورد في الحديث الذي رواه

(١) يعني يستحيل القرب المادي بالمسافة على الله تعالى، لأن ليس جسما وهو خالق الأجسام.

(٢) أبو بكر الطرطوشي، الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي إتيانه واجتنابه، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، (صص٥٧ - ٦٠) (باختصار).

(٣) سورة الحديد، آية (٣).

البيهقي في الأسماء والصفات من طريق أبي هريرة «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[١] الحديث، وقد ذكرنا قبلُ حديثَ النبي ﷺ الذي رواه البخاري «**كان الله ولم يكن شيء غيره**» الحديث. فالله تعالى أزلي لا ابتداء له والمكان مخلوق حادث لم يكن مع الله، وبعد أن خلق المكان هوسبحانه كما كان قبل خلق المكان، لا يحتاج إليه، بعبارة أخرى غير مفتقر إليه، وهذا يُفهَم أيضًا من قول الطرطوشي رحمه الله: «فَمَنْ أَيَّنَ الأَيْنَ لم يفتقر وجودُه إلى أين، هو بعد خلق المكان غني بنفسه كما كان قبل خلق المكان»[٢].

والله تعالى لا يجري عليه زمان، لأن جريان الزمان يكون للحادث الذي كان معدومًا ثم وُجِد، فالزمان حادث مخلوق، والذي سبقَه عدم حادث مخلوق، والله تعالى منزَّه عن صفات الحدوث، يقول الإمام أبو بكر الطرطوشي: «وإن قلت متى كان؟ فقد سبق الوقتَ كونُهُ»[٣].

*** تنزيه الله عن الجسمية:**

ويذكر الطرطوشي ما يُستدل به في تنزيه الله تعالى عن الجسمية فيقول: «وإن قلت ما هو؟ فلا ماهية له. (ما) موضوعةٌ للسؤال عن الجنس، والقديم تعالى لا جنس له. لأن

---

(١) البيهقي، كتاب الأسماء والصفات. المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د. ت.، (ص٢٠).

(٢) أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، (ص٥).

(٣) نفسه، (ص٦).

الجنسَ مخصوصٌ بمعنًى داخلٍ تحت الماهية». وهذه الماهية تطلق على الحادثات التي تتصف بالأجسام وأعراضها، وهذه الأعراضُ صفاتُ الأجسامِ ويُطْلَقُ عليها «كيف»، ويؤكد الطرطوشي رحمه الله هذا المعنى بقوله: «وإن قلت كيف هو؟ فَمَنْ كيَّفَ الكيفيةَ لا يقال له كيف. ومن جازت عليه الكيفية جاز عليه التغيير». لأن الحادث يتغير من حال إلى حال، لذلك قالوا: التَّغَيُّر أقوى صفات الحدوث. وقال: «فالذي بالجسم ظُهورُه فالعَرَض يَلْزَمُه، والذي بالأداة اجتماعُه فقواها تَمْسِكُه، والذي يؤلِّفُه وقتٌ يفرِّقُه وقتٌ، والذي يُقيمُه غيرُه فالضرورةُ تَمَسُّه، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه، ومن آواهُ محلٌ أدركَه أينٌ، ومن كان له جنسٌ طالبَه كيفٌ»[1]. وهذا كلام سهل يفهمه من تعلم قواعد التنزيه.

*** معرفة الله أولًا:**

يقول الطرطوشي رحمه الله: «ثم كلفهم معرفته» لأن الذي لا يعرف ربه كيف تصح عبادته؟ يقول الغزالي: «لا تصح العبادة إلا بعد معرفة المعبود»[2]. ويقول ابن أبي جمرة في بهجة النفوس: «من لا يعرف معبوده كيف يصح له الإيمان به»[3]. وقال الله تعالى ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[4]، وفي الحديث الذي رواه البخاري أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ

---

(١) نفس المصدر والصحيفة.
(٢) عبد الله الهرري، الشرح القويم. (ص١١٣).
(٣) عبد الله بن أبي جمرة الأندلسي، م.س.، (ج١، ص٣٤).
(٤) سورة محمد: آية (١٩).

أَفْضَلُ فَقَالَ «**إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**»[١] الحديث. وهذه قاعدة أساسية اعتمد عليها الأشاعرة في قبول الأعمال الصالحة، لأنه لا تصح الأعمال التعبدية إلا بالإيمان الجازم بالله تعالى ورسوله محمد ﷺ.

ويضيف الطرطوشي: «وجعَلَ عِلْمَ العالمين بعجزِهم عنْ إدراكِه إدراكًا لهم»، وفي هذا المقام قال ابن جزي: «لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله»[٢]، أما معرفتنا نحن بالله فبمعرفة ما يجب له عقلًا، وما يستحيل عليه، وما يجوز عليه من إيجاد شيء وإعدامه. ويقول ابن أبي جمرة في بهجة النفوس: «لا يُدْرَكُ بالعقْل، ولا يُتَصَوَّر بالوهم، بل السبيل إلى معرفته العجزُ عن معرفته كما قال أبو بكر رضي الله عنه: سبحان من لا يوصل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته.. وقد قال الإمام مالك رحمه الله: كل ما يقع في القلب فالله بخلاف ذلك، لأن كل ما يقع في القلب إنما هو خلق من خلق الله فكيف يشبه الخالق المخلوق»[٣]. ثم يقول الطرطوشي متممًا كلامَه: «كما جعل إقرارَ المقِرّين بوقوف عقولهم عن الإحاطة بحقيقته إيمانًا لهم»[٤]. وهذا يؤكد على الأصل الذي اجتمع عليه أهل السنة والجماعة، أنه سبحانه وتعالى لا تدركه العقول ولا تبلغه الأوهام، لأن الوهم إنْ هو إلا مِنَ التصورات التي اعتاد الإنسان أن يراها ويلمسها ويسمع بها بحواسه، والله تعالى كما

(١) البخاري، الجامع الصحيح. حديث رقم (١٥١٩)، (ج٢، ص١٣٣).
(٢) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، (ج٢، ص٢٧).
(٣) ابن أبي جمرة، م.س.، (ج١، ص٥٢).
(٤) أبو بكر الطرطوشي، سراج الملوك، (صص٣ - ٤).

وصف نفسه ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(١)]، فسَّرَها ابن جزي: «أي الوصف الأعلى من الغِنَى عن كل شيء والنزاهة عن صفات المخلوقين»[(٢)]، يعني له الوصف الذي لا يشبه وصف غيره.

٣- (٢) الرد على القدرية:

يقول الطرطوشي في كتاب «الحوادث والبدع»: «وبيان ذلك بالمثال أنَّ [نفيَ] القدَر أصل من أصول البدع.. [فالقدرية] متفقون على أن أفعال العباد خلق لهم من دون الله تعالى»[(٣)]. وهذا لا شك مخالف لما جاء به خاتم الرسل محمد ﷺ، لأن الله تعالى قال ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[(٤)]. وذكر أشياء أخرى من تفريعهم لبدعتهم منها ما يتعلق بالقدر ومنها ما لا يتعلق بمسألة القدر، ونكتفي بما قلناه آنفًا.

(١) سورة النحل، آية (٦٠).
(٢) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، (ج١، ص٤٦٧).
(٣) الطرطوشي، كتاب الحوادث والبدع، (ص٩٨).
(٤) سورة الزمر، آية (٦٢).

المبحث الثالث:

نماذج من علماء الأشعرية في المغرب الأدنى

*** الإمام أبو عبد الله المازري** (المتوفى ٥٣٦هـ/ ١١٤٣م):

محمد بن علي بن عمر التميمي المازري يكنى أبا عبد الله ويعرف بالإمام، نزل المهدية من بلاد إفريقية. أصله من مازر، مدينة في جزيرة صقلية على ساحل البحر وإليها نسب جماعة منهم أبو عبد الله. هو إمام أهل إفريقية وما وراءها من المغرب، وصار الإمام لقبًا له رضي الله تعالى عنه فلا يعرف بغير الإمام المازري.

أخذ المازري عن اللخمي، وأبي محمد بن عبد الحميد السوسي، وغيرهما من شيوخ إفريقية ودرس أصول الفقه والدين وتقدم في ذلك، ولم يكن في عصره للمالكية في أقطار الأرض في وقته أفقه منه ولا أقوم لمذهبهم، وسمع الحديث وطالع معانيه واطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والأدب وغير ذلك. فكان أحد رجال الكمال في وقته في العلم، وإليه كان يفزع في الفتوى في الطب في بلده كما يفزع إليه في الفتيا في الفقه، وشرح البرهان لأبي المعالي الجويني وسماه «إيضاح المحصول من برهان الأصول».

وذكر الشيخ الحافظ النحوي أبو العباس أحمد بن الفهري اللبلي في مشيخة شيخه التجيبي أن من شيوخه أبا عبد الله المازري، وأن من تآليفه عقيدته التي سماها «نظم الفرائد في

علم العقائد» وألف غير ذلك.

وممن أخذ عنه بالإجازة القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله تعالى، كتب له من المهدية يجيز له كتابه المسمى «المعْلِم في شرح مسلم»، وغيره من تآليفه، وتوفي الإمام رحمه الله تعالى سنة ست وثلاثين وخمسمائة (١٠٩٣م) وقد نيف على الثمانين[١].

نبغ المازري بإفريقية في عصر كانت فيه الفتن قائمة على قدم وساق، وقد عانى الناس من ذلك الكثير، فحصلت فتنة سياسية عندما انقسمت دولة صنهاجة على نفسها إلى دولتين: دولة منصور بن بلكين أصحاب القيروان، ودولة حماد بن بلكين أصحاب القلعة. وحصل الانقسام الثاني لدولة صنهاجة بالقيروان، فكانت المدن الساحلية تستقل تارة عن العاصمة المهدية، وترجع أخرى رجوعًا ظاهريًا تحت ضغط القوة. وفي هذه الفترة المضطربة، عاش المازري ورأى أثرها في أمته، التي أصبحت فريسة سائغة للمتغلبين من النورمان الذين تغلبوا على صقلية وداسوا بأقدامهم ترابها حتى خرجت من حكم المسلمين.

وبجانب هذه الفتنة السياسية التي تفرقت فيها البلاد وعانى منها العباد، كان هناك فتنة أخرى في العقيدة أحدثها العبيديون المتغلبون على البلاد، الذين حاربوا السنّة حربًا شعواء في مذهب مالك الذي تقلده عامة أهل المغرب، إلى أن رفع هذه

(١) ابن فرحون، م.س.، (ج٢، صص٢٥٠ - ٢٥٢). وعياض اليحصبي، الغنية. ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، (ص٦٥). وابن خلكان. م. س.، (ج٤، ص٢٨٥).

الغمة المعز بن باديس الصنهاجي، مما دفع العبيديين للانتقام منه، بإرسال طوائف العرب من بني هلال وبني سليم والأشج وزغبة وكعب وغيرهم، فنزلوا نزول الصاعقة وقضَوْا على حضارتها وما شيدته الدول القائمة بإفريقية.

وفي هذا الجو القائم على الانقسام عاش المازري، ورأى أن البلاد التي ينتسب إليها قد اختفت منها راية الإِسلام، والبلاد التي يعيش فيها قريبة من ذلك، كما رأى احتلال نصارى جنوة للمهدية سنة ثمانين بعد الأربعمائة (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م). وكان عمر المازرى سبعًا وعشرين سنة، فأدرك ما يحف بقومه من مخاطر[(١)].

أثّر ذلك على حال أهل العلم في إفريقية، وفارقها كثير من أهل العلم إلى خارج البلاد، وإلى بعض مدن الساحل، إلا القليل الذي آثر البقاء بالقيروان بعد الخراب الذي أصابها، منهم الإمام عبد الخالق التميمي المعروف بالسيوري، فقد بقي بها إلى آخر أيامه، وكان من أصحاب أبي بكر بن عبد الرحمٰن وأبي عمران الفاسي، وكان يروي الحديث والفقه فانتفع به خلق كثير، وممن أخذ عنه: عبد الحميد بن الصائغ وأبو الحسن اللخمي. وقد برز هذان العالمان من جملة من رحل إلى المدن الساحلية لنشر العلم، وبذلك تبرز طبقة أخرى من العلماء الذين انتقلوا من القيروان. وعلى رأسهم اللخمي وابن الصائغ، وعنهما تلقى المازري العلوم التي ورثوها عن علماء

(١) الشاذلي النيفر، من مقدمة كتاب المعلم بفوائد مسلم للإمام المازري، ٣ أجزاء، ط٢، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٨م، (ج١، صص٢٧ - ٣٠).

القيروان، ومنهم السيوري وأبو بكر بن عبد الرحمٰن وأبو الطيب الكندي، «وهذان الإمامان هما شيخا المازري، وعليهما اعتماده في الرواية والسند العلمي القيرواني»[١].

١- الرد على المجسمة:

*** نفي الجسمية عن الله تعالى:**

قوله ﷺ: «**إذَا قَاتَل أحَدكم أخَاه فَليَجتَنِبِ الوجهَ فإنّ الله خَلقَ آدمَ عَلى صورَتِه**»[٢] الحديث. قال المازري: «واعلم أن هذا الحديث غلِط فيه ابن قتيبة[٣] وأجراه على ظاهره، وقال: فإنّ الله سبحانه له صورة لا كالصور. وأجرى الحديث على ظاهره، والذي قاله لا يخفى فساده، لأن الصورة تفيد التركيب وكلّ مركَّبٍ محدَث، والباري سبحانه وتعالى ليس بمحدَث فليس بمركَّب، وما ليس بمركَّب فليس بمصوَّر. وهذا من جنس قول المبتدعة إن الباري عزّ وجلّ جسم لا كالأجسام لما رأوا أهل السنة يقولون: البارئ سبحانه شيء لا كالأشياء طردوا هذا فقالوا جسم لا كالأجسام وقال ابن قتيبة صورة لا كَالصّوَر. والفَرق بَين مَا قلنَاه وَمَا قَالوه، أن لفظة شيء لا تفيد الحدوث، ولا تتضمن ما يقتضيه. وقولنا: جسم وصورَة يتضمَّنَان التأليف والتركيب وذلك دليل الحدوث. وعجبًا لابن قتيبة في قوله: صورة لا كالصّوَر، مع كون هذا الحديث يَقتضي

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب، الإمام المازري، منشورات لجنة البعث الثقافي الافريقي، دار الكتب الشرقية، تونس، (صص٣٦ - ٣٨).

(٢) مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم. رقم الحديث (٣٢)، (ج٨، ص٣١).

(٣) عبد الله بن عبد المجيد بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٥٧٦هـ/ ٨٨٩م).

ظاهره عنده [أي عند ابن قتيبة] خَلق آدم على صورته فقد صارت صورة الباري سبحانه على صورة آدم عليه السلام على ظاهر هذا، على أصله، فكيف يكون على صورة آدم ويقول: إنها لا كالصور، هذا تناقض. ويقال له أيضا: إن أردت بقولك صورة لا كالصور أنّه ليس بمؤلف ولا مركب فليس بصورة على الحقيقة، وأنت مثبت تَسمِيَةً تفيد في اللّغة معنى مستحِيلًا عليه تعالى مع نفي ذلك المعنى، فَلَمْ تعط اللفظ حقّه، وَلَمْ تُجْرِهِ على ظاهره. فإذا سلمت أنه ليس على ظاهره فقد وافقت على افتقاره إلى التَّأويل»[1].

يُفهم من كلام المازري الذي تقدم أن الله تعالى يستحيل أن يكون صورة، لأن الصورة تقتضي التركيب والتأليف وهذا لا يكون إلا للجسم المتحيز في المكان.

وهذا يؤكده شرح المازري لقول النبي ﷺ «**العِزُّ إزَارُه والكِبريَاءُ رِدَاؤه فَمَن ينَازِعنِي عَذَّبته**»[2] الحديث، فقال رحمه الله: «هَذَا مجاز واتِّسَاع عَلى عَادَةِ العَرَبِ وَهم يقولون: فلان شعاره الزهد والورَع ودِثَاره التَّقوى، ولا يريدون بِذَلك الثوبَ الذي هو شِعَار ودثار، وإنما يريدون أنه صفته ونعته. ووجه الاستعارة في هذا أن الرِّدَاء والإزَارَ يَلصَقَان بِالإنسان وَيلزمانه بجملته وفيهما سِتر له وجمال، فضرب ذلك مثلا لكون العز

(١) محمد بن علي بن عمر المازري، المعلم بفوائد مسلم. ٣ أجزاء، ط٢، منشورات المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٩١م، رقم الحديث في المعلم (١١٩٦)، (ج٣، صص٢٩٩ - ٣٠٠).

(٢) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم. رقم الحديث (٣٨)، (ج٨، صص٣٥ - ٣٦).

والكبرياء بالباري تعالى أَحَقَّ وله أَلْزَمَ وأوجَبَ واقتضاءُ جَلاله لهما آكد، وكذلك العرب يقولون: فلان غَمْرُ الرِّدَاء إذا كان واسع العطية تجوّزًا أيضًا بذلك، فَعَلى هَذَا يُحمل هذا الحديث، لأن الدليل العقلي قام على أن اللباس من صفات الأجسام وهو سبحانه ليس بِجِسم فلا يَمَسُّه جسمٌ ولا يَستُرُه جِسمٌ وهذا واضح لكلّ متأمل»[١].

وأوَّل أيضًا حديث النزول الذي فيه «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تبارك وتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ**»[٢] الحديث، فقال: «معناه: ينزل ملكُ ربّنا، على تقدير حذف المضاف، كما يقال: فعل السلطان كذا، وإن كان الفعل وقع من أتباعه، ويضاف الفعل إليه لما كان عن أمره»[٣].

وكذلك الكلام في الضحك الوارد في الحديث «**فَلَا يَزَالُ يَدْعُو الله حَتَّى يَضْحَكَ الله مِنْهُ فَإِذَا ضَحِكَ الله مِنْهُ قَالَ: ادْخُلِ الجَنَّةَ**»[٤] الحديث، قال الإمام المازري: «الضحك من الله محمول على إظهار الرضا والقبول، إذ الضحك في البشر علامة على ذلك. ويقال: ضحكت الأرض، إذا ظهر نباتها»[٥].

وفي «المعلم بفوائد مسلم» الكثير من المسائل التي أوَّلها الإمام المازري، بإخراج النص عن ظاهره، وإعطائه المعنى الذي يحتمله في لغة العرب، تنزيهًا لله تعالى عن الاتصاف

---

(١) المازري، المعلم، رقم الحديث في المعلم (١١٩٨)، (ج٣، ص٣٠٤).
(٢) مسلم، صحيح مسلم، رقم الحديث (٢٤)، (ج٢، ص١٧٥).
(٣) المازري، المعلم، رقم الحديث في المعلم (٢٩٨)، (ج١، ص٤٥٤).
(٤) البخاري، الجامع الصحيح، ٩ أجزاء، ط٢، دار المناج جدة ودار طوق النجاة بيروت، ١٤٢٩هـ، رقم الحديث (٧٤٣٧)، (ج٩، صص١٢٨ - ١٢٩).
(٥) المازري، المعلم، رقم الحديث في المعلم (١١٦)، (ج١، ص٣٣٩).

بالجسمية ولوازمها، كالجوارح والأعضاء وأعراضها من الحركة والسكون، والانتقال بإفراغ مكان وملء غيره، تعالى ربنا عن كل ما يتوهمه أهل البدع والزيغ من تشبيه وتمثيل.

٢- الرد على المعتزلة:

ويرد الإمام المازري على المعتزلة في أكثر من مكان في كتابه «المُعْلِم»، ويستدل من شرحه في هذا الكتاب، ورده على المشبهة والمعتزلة وغيرهم من أهل البدع على طريقته الأشعرية.

وفي «كتاب القدر» من «المعلم» يشرح حديث النبي ﷺ، ردًا على سؤال الرجلين من مُزَينَة قالا: «**يا رسول الله أرَأيتَ ما يعمَل النَّاس اليَومَ ويكدَحون فِيه، أشيء قُضِيَ عَلَيهِم ومَضَى فِيهِم مِن قَدَرٍ سَبَقَ، أو فِيما يَستَقبِلونَ به مِمّا أتاهم بِهِ نَبِيّهم ﷺ وثَبَتَتِ الحجّة عَلَيهِم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لاَ بَل شيء قُضِيَ عليهم وَمَضَى فِيهم، وَتَصدِيق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ** ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾[1]»[2] الحديث.

يؤكد الإمام المازري على تمسكه بنهج الأشعري في موضوع «القدر» بقوله: «هذا أيضًا مطابق لقول الأشعَرِيَّة أهل السنة في أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأنّ المعاصي قضاها الله وَقَدَّرَهَا، ألا ترى قولَ السَّائل أرَأيت ما يعمله الناس اليوم ويكدحون فيه؟ ولم يفرق بين خير وَشَرٍّ ولا طاعةٍ ولا مَعصِيَةٍ، وكذلك جوابه ﷺ لم يفرق فيه بل قال: بل شيء قُضِيَ عليهم

(١) سورة الشمس، آية (٧ – ٨).
(٢) مسلم، صحيح مسلم. حديث رقم (١٠)، (ج٨، صص٤٨ – ٤٩).

وَمَضَى فيهم، وتلا كتاب الله مصدّقًا لما قال ومسويًا بين الفجور والتقوى بقوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾[(١)]، فأخبر سبحانه وتعالى عن النفس وما فعل فيها، وكذلك قوله ﷺ في كتاب مسلم «**كلّ شيء بِقَدَرٍ حتى العَجز وَالكَيْس**»[(٢)] الحديث، مطابِق أيضًا لقول الأشعَرِيَّةِ في هذا، وكذلك قوله: جاء قوم مشركون يخاصمون النبيء ﷺ في القَدَر فنزل [قوله تعالى] ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾[(٣)] إلى قَوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[(٤)].

وَهَكَذا الأحَادِيث كلّهَا مطابقة لِقولِ أهلِ الحقِّ، وإنّما سمِّيتِ الأشعرية أهلَ السنة لاتّباعهم السنة وَموافقتهم لها. والمعتزلة تتجاسر على ردّها وتصغي إلى شبهة تقع في عقولها، فيَهون عليها معها ركوب العظائم من رد السنن الواردة، والازدراء على رواتها، وتكذيب الثِّقَات من المحدثين. وهذا مجانبٌ لِفِعل أهل التَّحصيلِ والدين، أعاذَنَا الله من ضلالة الملحدين»[(٥)].

---

(١) سورة الشمس، آية (٨).

(٢) مسلم، صحيح مسلم. حديث رقم (١٨)، (ج٨، صص٥١ - ٥٢).

(٣) سورة القمر، آية (٤٨).

(٤) سورة القمر، آية (٤٩).

(٥) المازري، المعلم، (ج٣، صص٣١٠ - ٣١٢).

خاتمة

إن الباحث في الأحوال السياسية في القرنين الخامس والسادس الهجريين/الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، يجد نفسه مدفوعًا لأن يحيط بأحوال العالم الإسلامي بشكل عام، وأحوال الخلافة العباسية وحركات الفرق المختلفة التي نشأت عن بعضها دول على شكل كيانات منفصلة عن دولة الخلافة. فيستنتج حالة الضعف التي سادت وعمت أجزاء كبيرة من أراضي الخلافة، ولكن هذه الحال لم تكن لتؤثر في النتاج العلمي لهذه الأمة شرقًا وغربًا، رغم المآسي التي مرت بها حتى أواخر القرن الرابع الهجري/ ١٠م، إلى أن جاءت البشائر في القرن الخامس الهجري/ ١١م بدخول قوى جديدة تمثلت في الأتراك السلاجقة في المشرق الذين مهدوا لقيام دولة نور الدين زنكي والدولة الأيوبية مما ساعد على إعادة الاعتبار لدولة الخلافة، وفي قيام دولتي المرابطين ثم الموحدين في الغرب الإسلامي، اللتين عملتا على توحيد هذا المجال الواسع تحت سلطان واحد.

واللافت للنظر أن المناخ السياسي والتغيرات التي حصلت في المشرق والمغرب، لم تكن لتؤثر في الحركة العلمية لجهاد علماء الإسلام سلبًا، بل كانت هذه الحركة العلمية وجهاد علمائها دافعًا وقّادًا يؤجج الحماسة في الأمة المحمدية، ويدفعها في طريق التقدم العلمي.

فكان ظهور أبو الحسن الأشعري في العصر السياسي

المضطرب وفي جو من انتشار الفرق المختلفة التي صارت تعمل على نشر أفكارها التي أصابت بتشويشها بعضًا من المجتمع الإسلامي، مما يؤثر على صحة الاعتقاد بما أنزله الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام، فتصدى لها علماء أهل السنة والجماعة بالدليل والبرهان، وعملوا على إنكار البدع الضالة في العقيدة وتصحيح عقائد الناس، ما أدى إلى التزام قواعد العقيدة الأشعرية على وفق ما نزل في الشرع الشريف وانتشارها شرقًا وغربًا.

فبدأ ظهور الأشعرية في الغرب الإسلامي بإرهاصات مهدت وأدت إلى التزام قواعد المذهب بالكامل، وهو ما يؤكد على أن العقيدة التي سادت قبل ظهور الأشاعرة المعروفين بأشعريتهم هي عقيدة سلف الأمة التي رافقت حركة الفتوح الإسلامية، في حركة علمية كان قادتها وزعماؤها وعلماؤها الصحابة والتابعين، وهي عقيدة قائمة على تنزيه الله تعالى عن الشبيه والمثيل ويغلب عليها تفويض النصوص وتقييدها ب «أمروها كما جاءت بلا كيف».

غير أنّ إشكاليةً تسرّبت إلى أذهان بعض من يؤرخ للحركة العلمية للمسلمين، تتلخص في فهم عقيدة «السلف»، ومعنى «السلف» و«السلفية». إن حل هذه الإشكالية وإعطاء الأجوبة الواضحة عليها وتبنّي المعنى السليم هو الذي يجعلنا نستكمل التأريخ للمراحل التي جاءت بعدها بكل وضوح، مع تبيان الحجج التي نستند إليها، والتي تؤيد ما ذكرته في حل هذه الإشكالية.

وعبارة «السلف» مصطلح زمني، يميز الذين هم أهل القرون

الثلاثة الأولى، والخلف الذين جاؤوا بعدهم، وكان الغالب عليهم الاعتقاد السليم في تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، وقد كان لكل من أهل السلف وأهل الخلف ما يبرر استعمالهم للوسائل في الدفاع عن عقيدة المسلمين في مواجهة الذين ناقضوها. وهذا صراع موجود في بطون كتب التاريخ والكتب العلمية العقدية والفقهية وكتب الأصول، أصول العقيدة وأصول الفقه.

فلا بد للباحث المنصف من العمل على توضيح بعض الأمور التي كانت تحدث في عصر السلف، الذي غلب على نهجهم في الاعتقاد «أمروها كما جاءت بلا كيف»، ثم اضطر البعض منهم لأن يقوم باستعمال وسائل لم تكن معتادة في عصرهم، من نحو تأويل المتشابه، وقد لجأوا إليها بسبب الحاجة إلى ذلك، وهدفهم ومقصدهم الدفاع عن الدين.

وكان واضحا التشابه والانسجام بين ما كان يجري في المشرق وما كان يجري في المغرب، فالأمة كلٌّ متكامل لا يوجد بين مشرقها ومغربها الحدود المغلقة المتعارف عليها في زماننا، بل كانت أوجه العلاقة مترابطة بينهما.

فعلم العقيدة يتعلق بأشرف معلوم، وهو ذات الله تعالى وصفاته. والذي يؤرخ لهذا الموضوع إن كان يعتقد عدم التنزيه لله تعالى، ويعتقد أن الله تعالى جسم يتحرك ويتنقل من مكان إلى مكان، كما قالت الفرق التي التزمت هذا المنحى الشاذ في الاعتقاد، فهو بلا شك لن يصل إلى المأمول في نصرة عقيدة رسول الله محمد ﷺ وعقيدة سائر أنبياء الله تعالى عليهم السلام.

إن ما حصل من علماء بلاد الغرب الإسلامي كان يدور في فحوى ما ذكرناه، مما يناصر مسيرة توضيح وإظهار القواعد العقدية:

- في التمسك بعقيدة سلف الأمة على المعنى السليم، لا على المعنى الذي ذهبت إليه فرق المشبهة والمجسمة قديمها وحديثها.
- مواجهة أهل البدع باستعمال الكلام، وهذا كان موافقًا لما فعله علماء السلف في المشرق.
- وأنّ هذا الانسياب قد حصل في الغرب، عن طريق علماء المذهب المالكي الأوائل الذين تلقوا عن مالك وتلاميذه، مثل أسد بن الفرات، وسحنون، والبهلول بن راشد، وغيرهم. وكذلك عن طريق الأشاعرة الأوائل الذين تلقوا عن تلاميذ أبي الحسن الأشعري، مثل أبي القاسم عبد الرحمٰن بن عبد المؤمن، ودراس بن إسماعيل، وابن أبي زيد القيرواني، وأبي الحسن القابسي، وأبي عمران الفاسي، وغيرهم.

وما تميز به الغرب الإسلامي في هذا العصر هو ظهور دولتين كبيرتين، حققتا انتصارات كبيرة للمسلمين، ووحدت بلاده ونهضت بها نهضة علمية كبيرة، وكلتا الدولتين كان سبب انطلاقها وتأسيسها سببًا دينيًا وتعليميًا، وكان لهما كبير الأثر في انتشار العقيدة الأشعرية في ربوع الغرب الإسلامي، فقد خرج العبيديون من المناطق التي أسسوا فيها دولتهم في تونس والمهدية والمنصورة، وتوجهوا بجيوشهم لاحتلال مصر فملكوها في سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م)، تبع ذلك نهضة علمية واسعة

تأسس في خضمها دولة المرابطين التي عملت في تنظيف المغرب من تجمعات أهل البدع من الخوارج والبورغواطيين، وحققت الانتصارات الكبيرة في توحيد الأندلس بعد إنهاء دول الطوائف، والذي أعقبه الانتصار الهائل على الإسبان في معركة الزلاقة سنة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) بقيادة يوسف بن تاشفين.

وسار الموحدون بعد انهيار دولة المرابطين على نهجهم في توحيد البلاد ومواجهة الأوروبيين الذين انتصروا عليهم في معركة الأرك سنة (٥٩١هـ/ ١١٩٥م) بقيادة يعقوب المنصور الموحدي.

أما العبيديون في المشرق فقد تكفل بهم نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي، وظهر في عهدهما الإصرار على نشر عقيدة أهل السنة والجماعة، فعمّت المدارس والمعاهد والمساجد بالعلماء الذين نشروا العلوم العقدية على الطريقة الأشعرية.

وتؤكد المصادر أن الذي حارب العقيدة الأشعرية وشوش عليها قديمًا، هم وأمثالهم يشوشون عليها ويخاصمون معتقديها حديثًا. فليس غريبا أن يحصل ضجيج وافتراآت مختلفة على أصحاب العقيدة الأشعرية. وما يمكن قوله إن الدولة التي أسسها في الغرب الإسلامي ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي الكومي أصبحت في مصاف الدول الكبرى في التاريخ، وكذلك ما قام به نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي في المشرق، أدى إلى الوصول إلى وحدة العالم الإسلامي العقدية بين شرقه وغربه، فما مضى القرن السادس إلّا والأمة وحّدتها عقيدة واحدة ولو لم تكن تحت سلطان واحد.

انتشر علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي طيلة القرنين الخامس والسادس الهجريين/ ١١ و١٢م، في العواصم العلمية التي اشتهرت في دولتي المرابطين والموحدين وليس فقط في عصر الموحدين، حيث شهد هذان القرنان نهضة علمية، مهدت لما بعدها في نشر العلوم الدينية على منهج الأشعرية في تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين.

وقد تبين ذلك من حصول الجدل الكلامي في الرد على المخالفين لعقيدة أهل السنة والجماعة، فعملنا على إدراج أهم المسائل التي عمل العلماء الأشاعرة على ردها، خصوصًا في بعض المسائل التي تتعلق بشبهات المجسمة والمعتزلة.

فالمجسمة ظهرت سطوتهم في تكفير الأمة تكفيرًا شموليًا، للأمور التالية:

- الأول: يعتبرون أن الذي ينزه الله تعالى عن الشبيه والمكان هو معطل ينفي وجود الله، لأنهم يقيسون الخالق على المخلوق، فيتخيلون ويتوهمون أن الموجود لا بد أن يكون متمكنًا في مكان والذي ينفي المكان عنه يكون معطلًا له سبحانه.
- والثاني: يعتبرون أن كل من يزور قبر النبي ﷺ، أو أي ولي من أولياء الله تعالى مشرك حلال الدم، لأنهم يعتبرونهم قبوريون يعبدون من فيها.

أما المعتزلة، فقد فظهرت عقائدهم عند بعض العصريين، ما بين من ينتسب للمشيخة، وبين من ينتسب لبعض الأحزاب المتطرفة في اعتقادهم لمسألة خلق الأفعال.

وقمنا بعرض نماذج مما قام به بعض علماء الأشاعرة في الغرب الإسلامي في القرنين الخامس والسادس الهجريين، لبيان عملهم في تصحيح عقائد الناس في تربية الصغار والكبار، لتحصيل مجتمع آمن سليم متضامن يفكر باعتدال ويواجه التطرف، وهذا الذي يحصّن المجتمعات من الآفات الناتجة عن الإفراط والتفريط.

وقد عُرِفَت أشعرية هؤلاء العلماء من خلال التصانيف التي ألّفوها، فيتميز منهم من صنف في المتون العقدية، ومنهم من عُرف تمسكهم بمنهج الأشعرية، من خلال الفنون التي صنفوا فيها، لأن ذلك نهج ينسكب في كل فن من فنون العلوم الشرعية، سواء كان في التفسير، أو القراءات، أو شروح الحديث النبوي الشريف، أو في العلوم الشرعية الأخرى وعلوم اللغة العربية.

ثم إن غرضنا من تبيان نماذج من زبدة ما توصل إليه علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي التأكيد من أقوالهم أنهم كانوا على عقيدة التنزيه، عقيدة رسول الله محمد صلى الله عليه والسلام، وصحابته والسلف الصالح ومنهم الإمام مالك بن أنس وبقية أئمة المذاهب الأربعة رضي الله عنهم.

والجدير بالاهتمام:

- على عكس ما يشاع في كثير من المصادر، فإنَّ المرحلة المرابطية كانت غنية جدًا بروافد النتاج العقدي الأشعري، من بداية ظهور الدولة (سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) إلى انتهائها وزوالها (سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٧م)، من عبد الله ابن ياسين مرورًا بأبي بكر المرادي الحضرمي، وأبي الحجاج

الضرير، وأبي الوليد الباجي، والطرطوشي، وعياض اليحصبي، وأبي بكر بن العربي. وتواصَلَ هذا السند بابن خمير السبتي، وأبي عمرو عثمان السلالجي، وغيرهم كثير.

- وأن التواصل في أسانيد العلماء لم تؤثر فيهم سياسة هذه الدولة أو تلك، وكأن المظاهر المختلفة في الشأن السياسي، لم تؤثر على السلوك العلمي الذي كان عليه علماء الأمة من الأشاعرة، بل أن عمل أولئك الأئمة كان يدعم على المستوى العام، صيانة المجتمع عقديًا من تحريف أصحاب البدع المتطرفة، ولا شك أن ذلك كان على مر العصور إلى يومنا هذا.

وقد رأينا من خلال مطالعة المصادر التي تؤرخ لانتشار العقيدة الأشعرية فجوة في التأريخ يحاول زرعها المناوئون لهذه العقيدة، أي من أصحاب المنهج المعادي لعقيدة تنزيه الله تعالى عن الشبيه والمثيل، في كلامهم وآرائهم عن الأشعرية، فأثروا تأثيرًا بالغًا في المجتمعات الإسلامية في مختلف البلاد، مما سبّب فوضى كبيرة انعكست على الاتجاهات السياسية والدينية والثقافية، لذلك أوصي بالامور التالية:

* ضبط الأصول الأساسة للمنهج التأريخي الذي يؤرخ للعقيدة الأشعرية وانتشارها.

* الرجوع إلى تراجم العلماء في مختلف العلوم الشرعية، التي وصفت أحوالهم وذكرت أسانيدهم ومصنفاتهم والظروف التي عاشوا فيها وما تعلموه وما علموه، فسنجد في ذلك الردود التي يحتاجها كل منصف يؤرخ للأشعرية،

وسيجد أن هؤلاء العلماء كانوا على عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن شذ منهم كان النادر القليل، وقد انبرى أساطين أهل العلم في الدفاع عن دين الله تعالى وردهم.

* العمل على عدم الترويج لأئمة التجسيم والتشبيه وبيان مزاعمهم بوصفهم لأنفسهم وأتباعهم «أنهم سلف الأمة وعقيدتهم عقيدة السلف الصالح»، فإن ذلك مما يخرب ويشوّه معتقد الأمة التي لن تكون إلا كما أخبر عنها الرسول الكريم ﷺ بأنها لا تجتمع على ضلال وأنها الفرقة الناجية التي وصفها في الحديث الشريف بأنها: «الجماعة» و«السواد الأعظم».

* فضح العابثين الذين يكيدون لبث التشويش والفوضى، وهذا له انعكاس على تاريخنا المعاصر، من حيثية أن مناهج المتطرفين العاملين في هذا العصر والذين عاثوا ويعيثون في الأرض فسادًا هي نفسها مناهج المناوئين للأشعرية أي لمنهج الوسطية والاعتدال.

وأحب في هذه الخاتمة أن أوجه توصية إلى الإخوة العاملين في التربية والتعليم أن يعملوا بقول الإمام مالك رحمه الله تعالى: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، وأول صلاحها بدأ من أول واجب على المكلف وهو معرفة الله تعالى على ما يليق، وتنزيهه عما لا يليق، والإيمان به تعالى وبرسوله محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تصديقًا وإقرارًا. والعمل بما يرضي الله تعالى في أداء الواجبات واجتناب المحرمات.

والتنبه إلى تعليم الصغار والكبار أسس العقيدة السليمة، وتحصين النشء من خطر الوقوع في أفخاخ المتطرفين الذي انحرفوا عن الصراط المستقيم، إما إفراطًا وإما تفريطًا فكلا الطرفين مهلِك، وخير الأمور ما كان وسطًا بينهما. فدين الإسلام دين الوسطية والاعتدال، ولا ملجأ ولا منجى إلا بالعودة إلى الالتزام بما شرعه الله تعالى.

إن الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن أسه وأساسه الاعتقاد السليم بلا إله إلا الله محمد رسول الله، والأشعرية طريقة ومذهب ينجي الأجيال والمجتمعات من صنوف التطرف، فالعمل على تعلم وتعليم متن في العقيدة الأشعرية ليس رجعية ولا تخلفًا، بل هو المنهج الذي فيه إنقاذ أمة صارت كاليتيم بلا كافل، من تكاثر الأيدي التي تعبث فيها وتحرفها عن مسارها، بعد أن كانت أستاذة الحضارة والتقدم، والتاريخ يشهد.

إن الانتصارات التي رفعت الأمة من كبوتها قديمًا كانت على أيدي الأشاعرة شرقًا وغربًا، فأعيدت هيبة الخلافة وانتشرت المدارس والمعاهد تعلم الأشعرية، وعادت مصر زاهرة بارقة إلى حضن الأمة الدافئ، ورجعت القدس بهمة وعزم صلاح الدين الأشعري الذي وحد البلاد وأنقذ العباد، هذا في المشرق؛ أما في المغرب فأهل السنة طهروا إفريقية من الانحراف، وأسس علماء الأشاعرة دولتي المرابطين والموحدين، اللتين تتابعتا لتوحدا بلاد الغرب الإسلامي تحت سلطان واحد.

وبكلمة مختصرة أقول: إنَّ هذه الأمة لم تمت، وإنَّ الأمل ناصع واضح براق العوالم شامخ الصروح.. فكما نهضت من كبوتها قديمًا، فهي ما زالت قادرة على أن تنهض من كبوتها ومآسيها في عصر النكبات والنكسات.

والله الموفق للسداد

فهرس الآيات القرآنية

سورة البقرة

سورة ءال عمران

سورة النساء

سورة المائدة

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة الرعد

سورة النحل

سورة مريم

سورة طه

سورة الشعراء

سورة القصص

سورة السجدة

سورة الصافات

سورة الزمر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الجاثية

سورة محمد

سورة ق

سورة القمر

سورة الحديد

سورة الجمعة

سورة الملك

سورة القيامة

سورة الفجر

سورة الشمس

سورة الإخلاص

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الراوي	رقم الصحيفة

حرف الهاء

- «هُمْ قَوْمُ هَذَا» يعني في قوله تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾	مسند بن أبي شيبة	١٢٢

حرف الواو

- «وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة. .»	سنن أبي داود	٨٧
- «وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»	سنن أبي داود	٣٨٩

حرف الياء

- «يا رسول الله أرَأيتَ ما يعمَل النَّاس اليَومَ ويكدَحون فِيه، أشيء قُضِيَ عَلَيهِم ومَضَى فِيهم مِن قَدَرٍ سَبَقَ، أو فِيما يَستَقبِلونَ به مِمَّا أتَاهم بِهِ نَبِيّهم ﷺ وثَبَتَتِ الحجّة عَلَيهِم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لَا بَل شيء قُضِيَ عليهم وَمَضَى فِيهم، وَتَصدِيق ذلك في كتاب الله عزّ وجلّ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾»	صحيح مسلم	٤٠١
- «يخرج من ضئضئ هذا قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»	صحيح مسلم	١٠٤
- «يصلح الله به بين فئتين من المسلمين»	صحيح البخاري	٤١
- «ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»	موطأ مالك وصحيح مسلم وسنن الترمذي	٣١٩، ٣٧٥، ٤٠٠

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم [رواية حفص عن عاصم]

الحديث النبوي الشريف:

١- مالك بن أنس، الموطأ، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، جزءان.

٢- محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة، ودار طوق النجاة - بيروت، ١٤٢٩هـ، ٩ أجزاء.

٣- محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ٥ أجزاء.

٤- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أبو المعاطي النوري، ط١، عالم الكتب، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ٦ أجزاء.

٥- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود. ط١، دار الجنان ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م، جزءان.

٦- أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة، مسند بن أبي شيبة، ط١، دار الوطن، الرياض، ١٤٢٧هـ.

٧- محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني، سنن ابن ماجه، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٨- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح الإمام مسلم، ط١، دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة، ودار طوق النجاة، بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٣م، ٨ أجزاء.

المصادر:

٩- ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي الصدفي أبي علي حسين بن محمد (ت٥٩٤هـ/ ١١٢٠م)، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط١، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

١٠- ابن أبي زرع علي بن محمد الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس

في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، (١٩٧٢).

١١- ابن الأثير علي بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ. تحقيق إحسان عباس، ١٣ جزءا، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٢- الآبي الأزهري صالح عبد السميع، الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني. ط١، طبع الحاج عبد الله اليسَّار، القاهرة، د. ت.

١٣- إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

١٤- الأشعري أبو الحسن علي بن إسماعيل، كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.

١٥- الأنصاري الأوسي المراكشي محمد بن محمد بن عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. ط١، دار الثقافة، بيروت، (١٩٦٥).

١٦- الأنصاري التونسي محمد بن سلامة، النكت المفيدة في شرح الخطبة والعقيدة. ط١، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٧- أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف، المنتقى شرح الموطا. ط٢، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١٨- البخاري الحنفي علاء الدين محمد بن محمد، ملجمة المجسمة. ط١، دار الذخائر، بيروت.

١٩- أبو البركات المبارك بن الشعار الموصلي»، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، المشهور بـ«عقود الجمان في شعراء هذا الزمان». ١٠ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٠- ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك، الصلة، في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ٣ أجزاء، ط١، دار الكتاب المصري- القاهرة ودار الكتاب اللبناني- بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٢١- البكري الصديقي محمد علي بن محمد علان. الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، ٦ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت،

١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

٢٢- البغوي الحسين بن مسعود، معالم التنزيل. ٨ أجزاء، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٣- البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، فتوح البلدان. ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (١٩٨٨).

٢٤- أبو بكر بن العربي المعافري محمد بن عبد الله، الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، سِفران، ط١، دار الحديث الكتانية، طنجة، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

٢٥- أبو بكر بن العربي المعافري محمد بن عبد الله، عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي. ١٣ جزءا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٦- أبو بكر بن العربي المعافري محمد بن عبد الله، كتاب الأفعال. منشورات مركز أبي الحسن الأشعري - الرابطة المحمدية، ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

٢٧- أبو بكر بن العربي المعافري محمد بن عبد الله، العواصم من القواصم. مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت.

٢٨- البياضي أحمد بن الحسين، إشارات المرام من عبارات الإمام أبي حنيفة النعمان في أصول الدين. ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٢٩- البيهقي أحمد بن الحسين، السنن الكبرى. ١٠ أجزاء، ط١، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، ١٣٤٤هـ.

٣٠- البيهقي أحمد بن الحسين، شعب الإيمان. ط١، ١٤ جزءًا، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣١- البيهقي أحمد بن الحسين، مناقب الشافعي، جزءان، ط١، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م.

٣٢- البيهقي أحمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث. ط١، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١ .

٣٣- البيهقي أحمد بن الحسين، كتاب الأسماء والصفات. المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د. ت.

٣٤- ابن تومرت محمد بن عبد الله، كتاب أعز ما يطلب، وزارة الثقافة الجزائرية، بمناسبة الجزائر، ٢٠٠٧ .

٣٥- ابن جزي الكلبي الغرناطي محمد بن أحمد، القوانين الفقهية. تحقيق: عبد الله المنشاوي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٣٦- ابن جزي الكلبي الغرناطي محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، محمد سالم هاشم، جزءان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣٧- ابن أبي جمرة الأندلسي أبو محمد عبد الله، بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها، شرح مختصر صحيح البخاري. ٥ أجزاء، ط٣، دار الجيل.

٣٨- سبط ابن الجوزي يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله أبو المظفر. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، ٢٣ جزءا، ط١، دمشق، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٣٩- ابن الجوزي عبد الرحمٰن بن علي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. ١٠ أجزاء، ط١، دار صادر، بيروت، ١٣٥٨هـ.

٤٠- ابن الجوزي عبد الرحمٰن بن علي، دفع شبهة التشبيه. تحقيق وتعليق محمد زاهد الكوثري، المتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (٢٠١٠).

٤١- الجويني عبد الملك بن عبد الله المشهور بأبي المعالي والمعروف بإمام الحرمين، كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد. تحقيق أسعد تميم، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٢- الحصني الدمشقي تقي الدين أبو بكر، دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد. تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (٢٠١٠).

٤٣- الحلبي علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون. ٣ أجزاء، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٤٤- ابن حوقل محمد بن علي الموصلي، صورة الأرض. دار مكتبة الحياة

للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٩٢).

٤٥- أبو حنيفة النعمان بن ثابت، العالم والمتعلم. مطبعة الأنوار - مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٦٨هـ.

٤٦- أبو حنيفة النعمان بن ثابت، الفقه الأكبر (مع شرحه - ممزوجا بالمتن - لملّا علي القاري). صورة عن طبعة ١٣٢٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٧- الخطيب البغدادي احمد بن علي أبو بكر، تاريخ بغداد. ١٤ جزءا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٨- عبد الرحمٰن ابن خلدون. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ط٢، ٨ أجزاء، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤٩- ابن خلكان، وفيات الأعيان. ٧ أجزاء، دار صادر، بيروت، ١١٤١هـ - ١٩٩٤م.

٥٠- ابن خمير السبتي علي بن أحمد أبو الحسن، مقدمات المراشد إلى علم العقائد في دفع شبهات المبطلين والملحدين. ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٥١- الدباغ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري وأبو القاسم عيسى بن ناجي التنوخي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان. ٥ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٥٢- دحلان أحمد بن زيني مفتي مكة، فتنة الوهابية. اعتنى بطبعه طبعة جديدة بالأوفست حسين حلمي بن سعيد استانبولي، مكتبة الحقيقة، إسطانبول، (١٩٧٨).

٥٣- الذهبي محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء. ٢٥ جزءا، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥٤- فخر الدين الرازي محمد بن عمر، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م.

٥٥- فخر الدين الرازي محمد بن عمر، الإشارة في علم الكلام. ط١، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، (٢٠٠٩).

٥٦- الراغب الأصبهاني الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن. دار قهرمان للطباعة والنشر والتوزيع، اسطنبول، (١٩٨٦).

٥٧- الزركشي محمد بن عبد الله بن بهادر، تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي. ٤أجزاء، ط١، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، القاهرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٥٨- ابن الزيات يوسف بن يحيى التادلي، التشوف إلى رجال التصوف. ط١، بيروت، ١٣٣٧هـ - ٢٠١٦م.

٥٩- تاج الدين السبكي عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبرى. ٦ أجزاء، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٦٠- تاج الدين السبكي عبد الوهاب بن علي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٦١- تقي الدين السبكي علي بن عبد الكافي، السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل. المكتبة المتخصصة للرد على الوهابية، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، د. ت.

٦٢- تقي الدين السبكي علي بن عبد الكافي، فتاوى السبكي. جزءان، دار المعرفة، بيروت.

٦٣- السلالجي عثمان بن عبد الله القيسي الفاسي أبو عمرو، العقيدة البرهانية والفصول الإيمانية. ط١، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٦٤- السملالي العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام. ١٠ أجزاء، ط٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٦٥- السيوطي عبد الرحمٰن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمود رياض الحلبي، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٦٦- الدين السيوطي عبد الرحمٰن بن أبي بكر، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، جزءان، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٦٧- أبو شامة المقدسي عبد الرحمٰن بن إسماعيل، كتاب الروضتين في أخبار

الدولتين النورية والصلاحية. وضع حواشيه وعلق عليه: إبراهيم شمس الدين، ٥ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٦٨- الشيرازي هبة الله، سيرة المؤيد داعي الدعاة، تقديم وتحقيق: محمد كامل حسين، ط١، دار الكاتب المصري، القاهرة، (١٩٤٩).

٦٩- الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد، أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري. ٤ أجزاء، ط١، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م.

٧٠- الصفدي خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات. ٢٩ جزءا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٢٠٠٠).

٧١- الضبي أحمد بن يحيى، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيمالأبياري، جزءان، ط١، دار الكتاب المصري- القاهرة ودار الكتاب العربي - بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٧٢- الضرير أبو الحجاج يوسف بن موسى، التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد، تحقيق: سمير فوبيعو محمد العمراني ونور الدين شعيبي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

٧٣- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك. ط١، ٥ أجزاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

٧٤- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن. ٢٤جزءا، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

٧٥- الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، الحوادث والبدع. تحقيق: عبد المجيد تركي، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٧٦- الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي إتيانه واجتنابه، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٧٧- الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، سراج الملوك. ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٧٨- ابن عبد البر يوسف بن عبد الله النمري، التمهيد لما في الموطأ من

المعاني والأسانيد، ٢٤ جزءا، مؤسسة قرطبة للبحث العلمي وتحقيق التراث الإسلامي والترجمة، القاهرة، د. ت.

٧٩- ابن عذاري المراكشي. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ط٣، ٤ أجزاء، دار الثقافة، بيروت، (١٩٨٣).

٨٠- العراقي عبد الرحيم بن الحسين، المستخرج على المستدرك للحاكم. مكتبة السنة، القاهرة، ١٤١٠هـ.

٨١- أبو العرب تميم محمد بن أحمد بن تميم، طبقات علماء إفريقية. دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٨٢- أبو العرب تميم محمد بن أحمد بن تميم، تحقيق: يحيى وهيب الجبوري، المحن. ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٨٣- العسقلاني ابن حجر أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري. ١٣ جزءا، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٨٤- ابن عساكر علي بن الحسن، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري. ط١، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٨م.

٨٥- ابن عطية عبد الحق بن غالب المحاربي الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. ٦ أجزاء، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٨٦- ابن عطية عبد الحق بن غالب المحاربي الأندلسي، فهرس ابن عطية، تحقيق محمد أبي الأجفان ومحمد الزاهي، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (١٩٨٣).

٨٧- العقباني أبو عمرو سعيد بن محمد، شرح العقيدة البرهانية. ط١، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٨٨- عياض بن موسى اليحصبي، الإعلام بحدود قواعد الإسلام، تحقيق: محمد صديق المنشاوي ومحمود عبد الرحمٰن عبد المنعم، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، د. ت.

٨٩- عياض بن موسى اليحصبي، إكمال المعلم شرح صحيح مسلم. ٨ أجزاء، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩٠- عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: محمد سالم هاشم، جزءان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٩١- عياض بن موسى اليحصبي، الغنية فهرست شيوخ القاضي عياض. ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٩٢- ابن فرحون إبراهيم بن علي المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، جزءان، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.

٩٣- ابن فورك أبو بكر محمد بن الحسن، شرح العالم والمتعلم (لأبي حنيفة النعمان بن ثابت). ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٩٤- الفيومي أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير (معجم عربي- عربي). مكتبة لبنان، بيروت، (٢٠٠١).

٩٥- القابسي أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري، الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين. ط١، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، (١٩٨٦).

٩٦- القباب الفاسي أحمد بن محمد أبو العباس، شرح كتاب الإعلام بقواعد الإسلام، ط١، منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث - الرابطة المحمدية للعلماء، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

٩٧- القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن. ٢٠ جزءا، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٩٨- ابن كثير إسماعيل بن عمر الدمشقي، البداية و النهاية. ١٤ جزءا، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٩٩- اللالكائي هبة الله بن الحسن بن منصور، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة. ٤ أجزاء، ط١، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢ه.

١٠٠- المازري محمد بن علي بن عمر، المعلم بفوائد مسلم. ٣ أجزاء، ط٢، منشورات المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت

الحكمة، الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٩١).

١٠١- المالكي عبد الله بن محمد، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: محمدالعروسي المطوي، جزءان، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٠٢- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار. دار الشؤون الثقافية، بغداد، (١٩٨٦).

١٠٣- مخلوف محمد بن عمر، شجرة النور الزكية، جزءان، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠١٠).

١٠٤- المرادي الحضرمي محمد بن الحسن أبو بكر، عقيدة أبي بكر المرادي الحضرمي. منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية - الرابطة المحمدية. ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٠٥- المراكشي عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. ط١، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.

١٠٦- مسكويه أبو علي أحمد بن محمد، تجارب الأمم وتعاقب الهمم. ٧ أجزاء، ط٢، دار سروش، طهران، (٢٠٠٠).

١٠٧- أبو المظفر الإسفراييني طاهر بن محمد، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين. تحقيق: كمال الحوت، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٠٨- المقترح مظفر بن عبد الله المصري الشافعي، شرح العقيد البرهانية والفصول الإيمانية. ط١، دار مكتبة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٠٩- المقريزي أحمد بن علي، كتاب إتحاف الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء. تحقيق: جمال الدين الشيال - محمد حلمي محمد أحمد، ٣ أجزاء، ط٢، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١١٠- المكي محمد بن هبة الله، منتخب حدائق الفصول وجواهر الأصول في علم الكلام على أصول أبي الحسن الأشعري. ط٢، شركة دار

المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
١١١- المليجي سامي قاسم أمين، الوهابية. ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، (٢٠٠٨).
١١٢- أبو منصور عبد القاهر البغدادي التميمي، الفرق بين الفرق. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د. ت.
١١٣- منيمنة حسن، تاريخ الدولة البويهية - السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي. الدار الجامعية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
١١٤- أبو منصور عبد القاهر البغدادي التميمي، أصول الدين. ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
١١٥- الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. ٣ أجزاء، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
١١٦- النسفي عبد الله بن أحمد أبو البركات، مدارك التنزيل وحقائق التأويل. ٤ أجزاء، ط٢، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
١١٧- أبو نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠ أجزاء، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
١١٨- النويري أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب. ط١، ٣٣ جزءا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
١١٩- الهرري عبد الله بن محمد، الدليل القويم على الصراط المستقيم. ط٣، شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
١٢٠- الهرري عبد الله بن محمد، الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم، ط٩، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
١٢١- الهرري عبد الله بن محمد، المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية، ط١١، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م.
١٢٢- الهرري عبد الله بن محمد، صريح البيان في الرد على من خالف

القرآن. ط٥، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

١٢٣- الهرري عبد الله بن محمد، عمدة الراغب في مختصر بغية الطالب. ط٣، شركة دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

١٢٤- الهيتمي أحمد ابن حجر، الفتاوى الحديثية، ط٢، دار المعرفة، بيروت، د. ت.

١٢٥- ابن واصل جمال الدين محمَّد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. ٥ أجزاء، ط١، دار الكتب والوثائق الأميرية، القاهرة، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.

١٢٦- ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفر، تاريخ ابن الوردي. جزءان، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٢٧- ياقوت الحموي، معجم البلدان. ٥ أجزاء، ط١، دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٢٨- اليفرني الطنجي علي بن عبد الرحمٰن أبو الحسن، المباحث العقلية في شرح العقيدة البرهانية. تحقيق وتقديم جمال علال البختي، ٣ أجزاء، ط١، منشورات الرابطة المحمدية، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.

المراجع:

١٢٩- البختي جمال علال، المذهب العقدي السني في الغرب الإسلامي (وقفة تأطيرية) - ثانيا: الاتجاه السني الأشعري (ت طور المذهب بالغرب الإسلامي)، من القسم الأول لمقدمة التحقيق لكتاب: عقيدة أبي بكر المرادي (ت ٤٨٩هـ/١١٠٦م)، منشورات مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية - الرابطة المحمدية، ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٣٠- أبو عُبيَّة طه عبد المقصود عبد الحميد، موجز عن الفتوحات الإسلامية. ط١، دار النشر للجامعات، القاهرة، د. ت.

١٣١- إبراهيم التهامي، الأشعرية في المغرب: دخولها، رجالها، تطورها، وموقف الناس منها.ط١، دار قرطبة، الجزائر، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٣٢- ثابت محمد خالد، أبناء الخالة أولياء الله الثلاثة. ط١، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٣٣- الحاتمي علي مقدادي، كشف الخفا عن عبث الوهابية بكتب العلما. ط١، دار النور المبين للنشر والتوزيع، عمان، (٢٠١٩).
١٣٤- الحبيب بن طاهر، ابن أبي زيد القيرواني وعقيدته في الرسالة والجامع: دراسة في المنهج والمضمون. ط١، مؤسسة المعارف للطبعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
١٣٥- حميتو عبد الهادي، قراءة الإمام نافع عند المغاربة من رواية أبي سعيد ورش - مقوماتها البنائية ومدارسها الأدائية إلى نهاية القرن العاشر الهجري. ط١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الرباط، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٣٦- الخطيب محمد عجاج، السنة قبل التدوين. ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
١٣٧- الدّاه الشنقيطي الموريتاني محمد أحمد، الفتح الرباني شرح على نظم رسالة ابن أبي زيد القيرواني. المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م.
١٣٨- زهري خالد، من علم الكلام إلى فقه الكلام. ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ودار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م.
١٣٩- شرحبيلي محمد بن حسن، تطور المذهب المالكي في الغرب الإسلامي حتى نهاية العصر المرابطي. ط١، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية، الرباط، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
١٤٠- الشرنوبي الأزهري عبد المجيد بن إبراهيم، تقريب المعاني على متن الرسالة لابن أبي زيد القيرواني. ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
١٤١- عاشور سعيد عبد الفتاح. أوروبا العصور الوسطى، جزءان، الجزء الأول (التاريخ السياسي)، ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (١٩٧٢).
١٤٢- العبادي أحمد، في تاريخ المغرب والأندلس. دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د. ت.

١٤٣- عبد الوهاب حسن حسني، الإمام المازري. دار الكتب الشرقية، تونس، (١٩٥٥).

١٤٤- علوان سليم، تفسير أولي النهى لقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ط٤، شركة دار المشاريع، بيروت، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

١٤٥- عليان ربحي مصطفى، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية. ط١، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٤٦- القاسمي محمد جمال الدين، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث. ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٤٧- القاضي سمير بن سامي، إيضاح المرام من رسالة الأشعري الإمام: شرح لرسالة استحسان الخوض في علم الكلام للإمام أبي الحسن علي ابن إسماعيل الأشعري. ط١، شركة دار المشاريع، بيروت- لبنان، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٧م

١٤٨- القضاعي العزامي سلامة، فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الأكوان. دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

١٤٩- القلشاني أحمد بن محمد المغربي المالكي، تحرير المقالة في شرح الرسالة. ط١، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٥٠- كامل محمد عمر، كفى تفريقا للأمة باسم السلفية. مناقشة علمية لكتاب الدكتور سفر الحوالي «نقد منهج الأشاعرة في العقيدة». ط١، دار المصطفى للنشر والتوزيع، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

١٥١- الكتاني محمد عبد الحي، ماضي القرويين ومستقبلها، تحقيق عبد المجيد بوكاري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، (٢٠٠٦).

١٥٢- كنون عبد الله، ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة. ٣ أجزاء، ط١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٣٠هـ - ١٩١٠م.

١٥٣- مؤنس حسين، أطلس تاريخ الإسلام. ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٥٤- مؤنس حسين، موسوعة تاريخ الأندلس- تارخ وفكر وحضارة وتراث. جزءان، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٥٥- مرتضى الزبيدي محمد بن محمد الحسيني، اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين. ١٠ أجزاء، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

١٥٦- المناوي محمد عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ١٤١٠هـ.

١٥٧- النجار عبد المجيد، تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت، الحركة الموحدية بالمغرب أوائل القرن السادس الهجري. ط٢، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن- فيرجينيا، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٥٨- النجار عبد المجيد، ابن تومرت - حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب. ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٥٩- الهادي روجيه إدريس، الدولة الصنهاجية: تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠م إلى القرن ١١م. نقله إلى العربية حمادي الساحلي، جزءان، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (١٩٩٢).

١٦٠- محمد الفاسي، «أبو عمران الفاسي والعلاقات العلمية بين المغرب وتونس»، ضمن كتاب: أبو عمران الفاسي حافظ المذهب المالكي، جزءان، ط١، الرباط، ١٤٠٠هـ - ٢٠١٠م.

١٦١- بوزغبية محمد تقديم كتاب ضمن وقائع ندوة: «المذهب المالكي وأثره في توحيد ممارسة الشعائر الدينية: جهود علماء القيروان والقرويين»، منشورات وزارة الشؤون الدينية التونسية، تونس، (٢٠١٢).

١٦٢- حميتو عبد الهادي، بحث بعنوان: حياة أبي عمران الفاسي ومناقبه، للندوة العلمية التي نظمها مركز الدراسات وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء بمناسبة مرور ألف عام على وفاة أبي عمران الفاسي، أقيمت بعنوان: أبو عمران الفاسي (ت ٤٣٠هـ) حافظ المذهب المالكي، يوم الخميس ٤ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، الموافق في ٣٠ أبريل ٢٠٠٩م في الرباط، ط١، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

١٦٣- الشاذلي النيفر، مقدمة كتاب المعلم بفوائد مسلم للإمام المازري. ٣ أجزاء، ط٢، الدار التونسية للنشر، تونس، (١٩٨٨).

فهرس الموضوعات